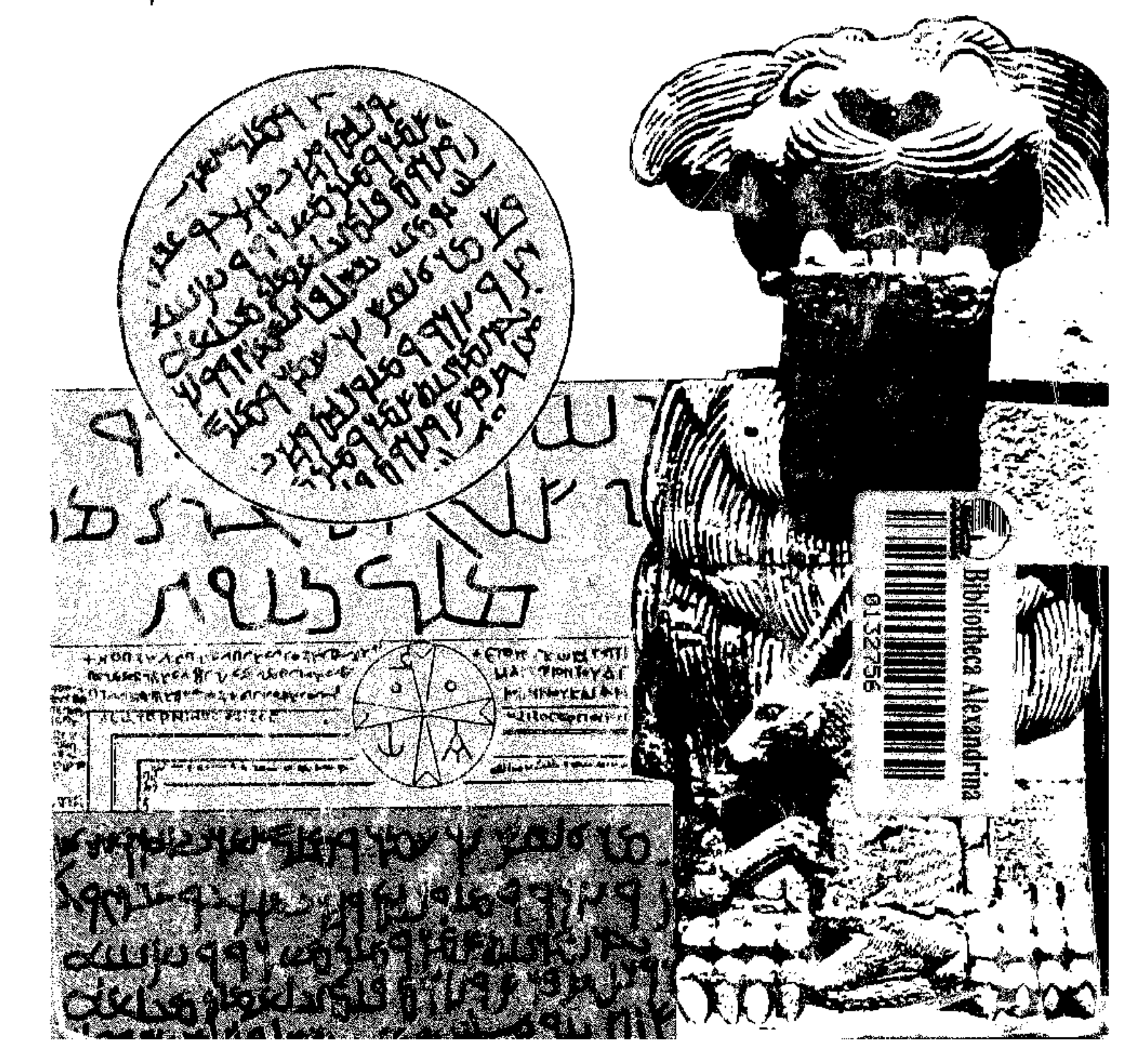
د. محمود عرفه محمود

العَرَب قبل الإسلام

أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم




محمد خطاب

العـرب قبـل الإسـلام

أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم

تأليف

دكتور محمود عرفـة محمود

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٩٥





عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES







مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمي ـ اسباتس ـ الهرم – ج.م.ع – تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES - A.R.E. - Tel: 3851276



(رب انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما)



إهداء

أستاذى العالم الجليل الأستاذ الدكتور

محمد جمال الدين سرور

أهدى إلى روحك الطاهرة كتابى هذا..

وهو قطرة من بحر علمك.. وكلمة من سفر أدبك

طيب الله ثراك وفى الجنة أكرم مثواك.

مقــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد، فلا شك أن البحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ودراسة مظاهر الحياة العربية من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والدينية لجدير بالاهتمام والعناية وبذل الجهد لتوضيح الصورة المشرقة للنهضة العربية، التى يجب أن توضع فى مكانها اللائق فى مضمار الحضارة الإنسانية.

لما كان تاريخ الأمم والشعوب متصلا الأحداث متشابك الحلقات، فلا يمكن فهم التاريخ الإسلامى للدولة العربية ومعالجته بطريقة صحيحة مستقلا عن ماضى العرب العتيد الممتد عبر الزمان، خاصة أن الجنس العربى يعد من أقدم الأجناس البشرية على سطح الأرض، وأن بلاد العرب التى كانت مهد الديانات السماوية، قد اختارها الله عز وجل وشرفها بآخر الرسالات وبخاتم الأنبياء والمرسلين.

تتناول هذه الدراسة المتواضعة، أحوال العرب السياسية والدينية، وأهم مظاهر حضارتهم فى حقبة من أهم فترات التاريخ البشرى عامة، والتاريخ العربى الإسلامى بصفة خاصة إذ تمثل إحدى صفحات السجل الوطنى للأمة العربية فى الفترة التى سبقت أعظم الأحداث فى تاريخ الإنسانية.

يتجلى من ثنايا الدراسة التعريف بالأمة العربية التى تعد من أقدم الأجناس السامية. والوصف الجغرافى للجزيرة العربية، وأثر البيئة والعوامل الطبيعية فى النشاط البشرى. وتقسيم العرب إلى عدنانيين وقحطانيين وطبقاتهم وأنسابهم.

كما يتجلى من خلالها مظاهر الحياة السياسية فى جزيرة العرب التى قامت على أرضها عدة ممالك ودويلات عربية كانت معاصرة لإمبراطوريتى الفرس والروم، فقامت مملكة الحيرة فى الناحية الشمالية الشرقية من الجزيرة،

ومملكة الغساسنة فى الجهة الشمالية الغربية، وقامت مملكة كندة فى شمال، أما فى الجنوب فكان هناك عدة دويلات لعل من أشهرها، قتبان وحضرموت ومعين وسبأ وحمير. وفضلا عن ذلك انتشرت القبائل العربية فى كافة أنحاء الجزيرة العربية، التى كانت تتمتع بكيان سياسى مستقل يتربع على قمته سيد القبيلة الذى يرأس مجلس القبيلة المكون من زعماء البطون والعشائر وكبار مشايخها.

كانت القبيلة التى تمثل وحدة النظام السياسى فى بادية العرب، تؤمن بوجود رابطة قوية تجمع أبناءها فى صعيد واحد على أساس وحدة الدم والنسب والمصير.

أما النظام السياسى فى مدن بلاد الحجاز قبل الإسلام، فلا يقل أهمية عن دراسة هذا النظام فى بادية العرب، ففى مكة وضع أول بيت للناس، بيت الله العتيق وعلى أرضها قامت قبيلة قريش التى كان لها شأن عظيم فى صنع أحداث تاريخ العرب قبل الإسلام. أما مدينة يثرب فقد شهدت الصراع الذى قام بين القبائل العربية، أهلها الأصليين وبين اليهود القادمين إليها، وكذلك النزاع الطويل المرير بين قبائل الأوس والخزرج وما ترتب عليه من الفتن والحروب التى دارت بينهم.

تتناول الحياة الدينية، الديانات التى انتشرت فى بلاد العرب قبل الإسلام، فكانت هناك الوثنية عبادة الأصنام التى انتشرت بين القبائل العربية فى طول جزيرة العرب وعرضها، فاتخذت كل قبيلة منها صنما أو أكثر اختصت بعبادته، وفضلا عن ذلك اشتركت عدة قبائل فى عبادة صنم واحد. وكان هناك الديانة اليهودية التى عرفت طريقها إلى جزيرة العرب واتخذت لها من الأماكن الخصيبة موطناً لها، حيث الرخاء الاقتصادى والمال الوفير الذى يقدسه اليهود أكثر من أى شئ آخر. أما المسيحية فتركزت فى الجنوب حيث اتخذت من نجران معقلا رئيساً لها، انطلقت منه الجماعات التبشيرية إلى كافة أرجاء الجزيرة. وإلى جانب الديانات السابقة كان هناك الصابئة - عبادة النجوم والكواكب والمجوسية - عبادة النيران.

وفى وسط كل هذا الاختلاف العقائدى والتشتت الدينى، ظهرت طائفة من المستنيرين العقلاء الذين نبذوا عبادة الأوثان ولم يجدوا فى اليهودية ولا فى النصرانية التوحيد الخالص لذات الله تبارك وتعالى، فاتخذت من الحنيفية ملة إبراهيم الخليل عليه السلام عقيدة لها، بعد أن اهتدوا إليها فاعتنقوها ودعوا قومهم إلى ترك ما هم عليه من الشرك والضلال وتوحيد الله الواحد الأحد.

ولعل من أهم ما يتميز به هذا العصر هو النهضة التى ظهرت آثارها فى نواحى الحياة المختلفة، إذ رأى العرب أن معيشتهم وكيانهم ومكانتهم بين الدول المعاصرة لا يتحقق إلا بتنمية موارد الثروة التى امتن الله بها على بلادهم، ومن ثم بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل فكانت الزراعة موضع اهتمامهم، وبخاصة فى يثرب والجهات الجنوبية من جزيرتهم، فعملوا على إنمائها وإكثار محصولها حتى عم الرخاء وصارت اليمن تعرف بالأرض الخضراء والبلاد السعيدة.

كذلك اهتم العرب باستغلال موارد بلادهم من الثروة المعدنية والطبيعية فى إقامة صناعات كبيرة اشتهرت بالمهارة والدقة، ولعل من أهمها المنسوجات والسلاح والحلى والمصنوعات الجلدية، التى كانت بلدان العالم تتنافس للحصول عليها واقتنائها، وذلك فضلا عن الصناعات الحرفية التى اشتهر بها سكان بادية العرب.

بلغ التقدم التجارى شأوا بعيداً فى هذا العصر فانتعشت التجارة الداخلية فى الأسواق التى اعتاد العرب إقامتها فى أوقات مختلفة حتى صارت منعقدة طوال العام فى جهات متفرقة، كما نشطت حركة التجارة الخارجية، وبخاصة أن العرب قد اشتهروا بمهارتهم فى ركوب البحر، وصارت لهم علاقات تجارية مع الهند والسند والصين ومدن البحر المتوسطة (الروم).

ومما هو جدير بالذكر أن وسائل المعاملات التجارية والمالية قد تنوعت ففى المدن شاع استعمال النقود المعدنية من الدنانير والدراهم، بينما اعتمد عرب البادية على المقايضة فى معاملاتهم التجارية.

أما عن الحياة الاجتماعية، فقد كان هناك عدة طبقات فى المجتمع العربى قبل الإسلام، تأثرت فى تشكيلها بالحالة الاقتصادية وقوة الثراء المادى، والمكانة الاجتماعية والأصل الذى ينتمى إليه أصحاب كل طبقة.

لم تقتصر أنواع الزواج والطلاق التى شاعت فى الجزيرة العربية على العرب وحدهم، بل عرفت عند كثير من الشعوب السامية الأخرى، ولم تكن بعض الزيجات الشاذة التى تواترت أخبارها فى المصادر العربية، مرحلة بدائية فى طور السلم الاجتماعى للجنس البشرى، وإنما كان الدافع لها يرجع إلى بعض الأوضاع الاجتماعية والأحوال الاقتصادية وأثر الطبيعة الصحراوية.

لعبت المرأة العربية دوراً هاماً فى صنع الأحداث السياسية وشاركت فى العهود والمواثيق، وتحملت مسئولياتها نحو قومها بالتدخل الإيجابى فى المواقف المصيرية. وفضلا عن ذلك كان يستجار بها مما يدل على مكانتها الرفيعة ومنزلتها السامية.

اشتهر العرب قبل الإسلام بالصفات النبيلة والخلال الكريمة التى كان للطبيعة الصحراوية وشدة الجدب وقسوة الحياة أثرها فى تطبعهم بها وغرسها فى نفوسهم، فصارت وفرة الفضائل وتنوع المآثر من سمات التميز التى اصطبغت بها فطرتهم.

تتجلى مظاهر الحياة الاجتماعية عند العرب فى عاداتهم وتقاليدهم التى ارتبطت فى كثير منها بمعتقداتهم الدينية، ولا شك أن هذه العلاقة الوثيقة ترجع إلى تأثرهم بالطبيعة الصحراوية الموحشة التى جعلتهم يؤمنون بوجود قوى خفية خارقة تؤثر فى حياتهم ومعايشهم وما يتعرضون له من الخير والشر، وجلب السعادة ودفع الضر والأذى.

وأخيراً فإن هذه الأمة التى ذكرها الله عز وجل فى غير قليل من آياته وشرفها بعرض شامل لكافة جوانب حياتها السياسية والحضارية فى كتابه العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لتستحق منا البحث الجاد الأمين. وبذل الجهد الشاق من أجل إحياء تراثنا وإعادة الثقة فى نفوس أبنائنا، لكى يفخروا على الدوام بانتمائهم إلى الأمة العربية. قال

رســـول الله ﷺ : «إن الله اختار خلقه، فاختار منهم آدم، ثم اختار بنى آدم، فاختار منهم العرب، ثم اختارنى من العرب، فلم أزل خياراً فى خيار، ألا من أحب العرب فبحبى أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم».

والله أسأل أن يوفقنى لمتابعة البحث فى تاريخ أمتنا العربية الإسلامية، وحضارتها الزاهية، فهو نعم المولى ونعم النصير.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

دكتور محمود عرفة محمود



الفصل الأول

بلاد العرب قبل الإسلام

١ – التعريف بالعرب.

٢ – جغرافية الجزيرة العربية.



بلاد العرب قبل الإسلام

١ - التعريف بالعرب

العرب أمة من الناس سامية الأصل (نسبة إلى ولد سام ابن نوح)، منشؤها جزيرة العرب، وكلمة عرب لغـوياً تعنى فصح وأعرب الكلام بينه. ومنها عرّب الاسم العجمى أى نطق به على منهاج العرب وتعرّب أى تشبه بالعرب، والعاربة هم صرحاء خلص[(١)].

يطلق لفظ العرب على قوم جمعوا عدة أوصاف لعل أهمها أن لسانهم كان اللغة العربية، وأنهم كانوا من أولاد العرب وأن مساكنهم كانت أرض العرب وهى جزيرة العرب[(٢)].

يختلف العرب عن الأعراب، فالعرب هم أهل الأمصار والقرى، والأعراب هم سكان البادية. غير أن العلامة ابن خلدون استعمل لفظى العرب والأعراب بمعنى واحد، فاستخدم لفظ العرب فى وصفه طبائع الأعراب ومعايشهم، فهم الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون برعى الإبل ويتخذون من الخيام مساكن لهم، ويظعنون من مكان لآخر حسب مقتضيات حياتهم، وحياة أنعامهم التى يتوقف معاشهم عليها وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار[(٣)].

قال رسول الله ﷺ فى التعريف بالعرب «يا أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هى اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربى».

العرب شعب قديم، قدم الأجناس البشرية الأولى، فقد وجد اسم العرب

---

(١) مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز، القاهرة ١٤٠٠هـ، ص ٤١١-٤١٢.

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، القاهرة ١٩٢٤، جـ١، ص٧٧.

(٣) ابن خلدون : المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، ص ١٤٩-١٥٢.

على أقدم النقوش المصرية القديمة. وذكر اسمهم على النقوش الفارسية أيضاً بمعنى الإمارات العربية التى كانت تنزل غربى الفرات، كما نجد عنهم إشارات كثيرة فى النقوش الأشورية.

فمن أقدم النقوش المصرية الباقية عرفت كلمة (عامو) ومعناها البدو أو الآسيويون، وهى تشير إلى الأعراب البدو، الذين كانوا ينزلون حول مصر، كما كانت بلاد العرب الجنوبية على اتصال وثيق مع بلاد النوبة[١].

لما كانت بلاد العرب الشرقية تقع على حدود العراق، فقد عرف سكانها القدماء - وهم السومريون والبابليون جيرانهم العرب - خاصة أن بلاد عمان كانت المورد الرئيسى للنحاس السومرى، وقد وجدت إشارات كثيرة عن بلاد العرب والشعب العربى على تمثال من حجر الديوريت للملك نارام - سن (حوالى ٢٤٠٠ ق.م)، وهو حفيد سرجون - أول ملوك السومريين[٢].

أما على النقوش الأشورية فقد ذكر اسم العرب فى نص كلمات الملك الأشورى شلمانصر الثالث - الذى قاد حملة ضد ملك دمشق الآرامى وحلفائه من العرب سنة ٨٥٤ ق.م، قال فيه : «قرقر مدينته الملكية، أنا دمرتها، أنا أبدتها، أنا حرقتها بالنار مع ١٢٠٠ عربة حربية، ١٢٠٠ فارس، ٢٠,٠٠٠ جندى لآرام دمشق، ١٠٠٠ لجند بو العربى»[٣]. وإلى جانب ذلك وردت فقرات غير قليلة فى التواريخ الأشورية القديمة تشير إلى العلاقات العربية الأشورية.

يذكر مؤرخو الفرس، أن قمبيز بن دارا مؤسس الإمبراطورية الفارسية مر بشمال بلاد العرب سنة ٥٢٥ ق.م فعقد محالفة مع أهلها وهو فى طريقه لغزو مصر[٤].

---

(١) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام، القاهرة ١٩٤٩، ص٤٠.

(٢) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام، ص٤٢.

(٣) محمد مبروك نافع : المرجع السابق، ص٤٣.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، جـ١ ، ص١٧-١٨.

كان اسم العرب الذى ذكر فى مواضع كثيرة من التوراة، يقصد به شيوخ شمال بلاد العرب وصحراء بلاد الشام، يتضح ذلك من عبارة «ملوك بلاد العرب» التى وردت فى سفر أرمياء[١].

أما مؤرخو اليونان والرومان القدامى، فقد أطلقوا اسم العرب على سكان الجزيرة العربية كلها، بينما يضيف هيرودوت (ت ٤٢٥ ق.م) إليها فلسطين وشبه جزيرة سيناء[٢].

كذلك وجدت ألقاب الملوك القدماء على النقوش العربية القديمة وقد أضيف إليها لفظ (عربى)، فوجد فى آثار العصر السبئى فى جنوب الجزيرة العربية، نقش يقول : «أنا ملك حضرموت العربى». إلى جانب أن أبرهة – حاكم اليمن من قبل نجاشى الحبشة – أطلق اسم العرب فى نقشه على أهل اليمن وسائر الجزيرة العربية[٣].

كما اكتشف اسم العرب منقوشاً على الآثار العربية الشمالية للدلالة على إتساع السلطان والنفوذ، فقد عثر على أقدم الكتابات المدونة فى موضع «النمارة»، وهو الحرة الشرقية من جبل الدروز، على شاهد قبر ملك عربى يدعى امرؤ القيس، ويرجع تاريخ النقش إلى سنة ٣٢٨م، ويتألف من خمسة أسطر يقول فيها :

١ – هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى نال التاج.

٢ – وملك الأسدين ونزارا وملوكهم، وهزم مذحج بقوته.

٣ – وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمّر وملك معدا.

٤ – واستعمل أبناءه على القبائل، وكلهم فرسان للروم فى القوة.

٥ – هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ليسعد ولده.

---

(١) الكتاب المقدس : سفر أرمياء، ٢٥ : ٢٤.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١ ، ص٢٧.

(٣) جواد على : المرجع السابق، جـ٢ ، ص١٤٢.

والتاريخ المدون على النص السابق بتقويم بصرى، يقابل ٧ ديسمبر سنة ٣٢٨م[١] وللنص أهمية تاريخية كبيرة، فهو أول نص عربى شمالى يرد فيه اسم ملك عربى، يجمع الجمع ويؤلف بين القبائل ويعين نفسه ملكا عليهم، وصاحب القبر هو امرؤ القيس بن عمرو أحد ملوك الحيرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤرخين اليونان استعملوا لفظ سراقينوس (Sarakinos) للدلالة على اسم شعب كان يسكن بلاد الشام أو شبه جزيرة سيناء، ثم توسعوا فى استعماله حتى شمل كل الشرقيين وصار اسم (Saracens) وهو تحريف للفظ اليونانى السابق، يطلق على جميع العرب والشرقيين بلا استثناء، وفى العصور الوسطى أطلق على العالم الإسلامى[٢].

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، حـ٣، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩، حـ١، ص٣.

٢ - جغرافية الجزيرة العربية

جزيرة العرب قطر عظيم تبلغ مساحته نحو مليون ميل مربع وتقع فى الركن الجنوبى الغربى لقارة آسيا.

يطلق العرب على بلادهم اسم «جزيرة العرب» تجاوزاً لأن البحار والأنهار تحيط بها من جميع الجهات، فيحدها من الشرق الخليج العربى ومن الجنوب البحر العربى، ويحدها البحر الأحمر (القلزم) من الغرب، بيما يكمل الفرات الحد الشرقى والشمالى الشرقى. وبذلك تكون بلاد الشام والبادية التى تمتد بين العراق والشام وبادية سيناء قد دخلت كلها فى حدود جزيرة العرب بإدخال نهر النيل ليكمل الحد الغربى ويصب فى البحر المتوسط (بحر الروم) الذى يمثل الحد الشمال الغربى. وهذا التحديد هو الذى أورده الهمدانى فى كتابه «صفة جزيرة العرب»[١]. أما الجغرافيون فيطلقون على بلاد العرب اسم «شبه الجزيرة العربية» بإخراج بادية الشام وشبه جزيرة سيناء منها، إلا أن طبيعة الأرض الجيولوجية تحتم ضمهما، لأنهما تمثلان أجزاء هامة لا يمكن فصلها عن الطبيعة الصحراوية لسائر بلاد العرب[٢].

يتألف سطح الجزيرة العربية من هضبة تشبه الصحراء الأفريقية فى إتساعها وسهولها القاحلة الرملية والصخرية، التى تتخللها بقاع يندر فيها النبات. فهى عبارة عن أرض واسعة تنحدر تضاريسها من الغرب متجهة نحو الشرق، وهى مرتفعة غرباً، حيث تكثر الجبال المرتفعة التى يتراوح ارتفاع قممها بين عشرة آلاف قدم وثلاثة آلاف قدم، ومن أشهرها جبال السّراة[٣] التى تمتد من أقصى شمال الجزيرة حتى جنوبها موازية لساحل البحر الأحمر. وتعرف المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال السراة وبين ساحل البحر الأحمر باسم «تهامة»، وتعنى الأرض المنخفضة، لأنها تنحدر انحداراً شديداً، وسواحلها

---

(١) الهمذانى : صفة جزيرة العرب، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٣، ص٤٧.

(٢) O'Leary : Arabia Before Muhammad, London, 1927, P.5.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، بيروت ١٩٧٩، حـ٣، ص٢٠٤.

المطلة على البحر يصعب رسو السفن فيها لخلوها من المرافئ الصالحة، ولوجود الشعب المرجانية الكثيفة على طول شواطئها[١].

تمتد نجد بين عسير والطائف، وهى هضبة عظيمة الارتفاع تتراوح الارتفاعات فيها بين ستة آلاف قدم وأربعة آلاف قدم، وتقع فى قلب جزيرة العرب، ويحدها من الغرب جبال السراة. وقد سميت نجدا لارتفاع أرضها[٢]. وتفصل سلسلة جبال الحجاز بين المرتفعات العالية نجد وبين الهضاب المنخفضة تهامة[٣]، وهى تمتد من خليج العقبة (آيلة) فى الشمال حتى تصل إلى عسير فى الجنوب وسميت حجازا لأنها تحجز بين تهامة ونجد.

كذلك تمتد سلسلة أخرى من الجبال المختلفة الارتفاع فى جنوب جزيرة العرب، وتتراوح ارتفاعاتها ما بين العشرة آلاف قدم إلى أربعة آلاف قدم، وتتخللها وديان كثيرة. ويتميز الجبل الأخضر من بينها بارتفاعه الشاهق الذى يبلغ نحو ٩٩٠٠ قدم، ولما كان هذا الجبل يقع على الساحل الشرقى لعمان، فهو بذلك يختلف عن السمة الطبيعية للجهات الشرقية من الجزيرة، التى تتميز بأرضها المنخفضة[٤].

يقسم جغرافيو العرب جزيرتهم بحسب طبيعتها إلى خمسة أقسام هى : تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن، وقد عرضنا للثلاثة الأولى منها، أما العروض فتشمل اليمامة وعمان والبحرين، وكانت اليمامة تسمى جو والقرية فسميت باليمامة نسبة إلى أشهر مدنها، أما البحرين فتمتد من البصرة شمالا حتى عمان جنوبا، وقد سميت عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق[٥]. وتمتد اليمن من نجد إلى البحر العربى جنوبا وبحر القلزم (الأحمر) غربا، وتتصل من الشرق بحضرموت وعمان. وتقع فى الركن الجنوبى الغربى لجزيرة

---

(١) جورج فضلو : العرب والملاحة فى المحيط الهندى (مترجم)، مكتبة الأنجلو بمصر، ص٢٥.

(٢) ياقوت : المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٦٢.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة، ١٩١٣، جـ٤، ص٢٤٦.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص١٥٨.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص ١١٢.

العرب، وكان القدماء يطلقون عليها اسم الأرض الخضراء[١] والبلاد السعيدة Arabia Felix ويجمل الهمدانى أقوال الإخباريين العرب عن أقسام جزيرتهم بقوله : «فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التى نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب فى أشعارها وأخبارها : تهامة، الحجاز، نجد، العروض، اليمن، وذلك أن جبل السراة وهو أعظم جبال العرب وأذكرها، أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف الشام، فسمته العرب حجازا لأنه حجز بين الغور وتهامة.. وصار ما دون ذلك الجبل من شرقيه من صحارى إلى أطراف العراق نجدا.. وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما العروض.. وما يلى ذلك اليمن»[٢].

تتصف الطبيعة الصحراوية لجزيرة العرب باختلافات متباينة فى كافة أرجاء الجزيرة، ففى أقصى الشمال تتميز المنطقة الصحراوية برمالها البيضاء والحمراء التى تغطى معظم شمال الجزيرة. وتشكل كثبانا رملية مرتفعة يطلق عليها اسم النفود، التى كانت تعرف عند العرب القدماء باسم بادية السماوة وهى تغطى مساحة تقرب من ١٠٠,٠٠٠ كيلو متراً مربعاً[٣]، ويلى منطقة النفود منطقة طويلة واسعة أرضها حمراء تسمى الدهناء، وتتميز الدهناء برمالها الحمراء التى تمتد من نجد شمالا إلى حضرموت فى الجنوب، ومن عمان فى الشرق إلى اليمن فى الغرب، والقسم الغربى منها يسمى الأحقاف، وتبلغ مساحة الدهناء نحو ٣٠٠,٠٠٠ ميل مربع[٤]. والمنطقة تخلو من الكائنات الحية، ولا يستطيع أن يعيش على أرضها الإنسان أو الحيوان، وتشتهر بوجود الربع الخالى فى أواسطها.

تتميز صحراء جزيرة العرب بوجود الأراضى البركانية ذات الأحجار

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، ١٩٧١، جـ٢، ص٤٤٢ القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٥، ص٦.

(٢) الهمدانى : صفة جزيرة العرب، ص ٤٧-٤٨.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص ١٥٢.

(٤) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام، ص ١٩.

السوداء التى تبدو وكأنها أحرقت بالنار[١]. وتكثر المناطق البركانية فى الجهات الغربية والوسطى[٢]، حيث تبلغ نحو ثلاثين حرة. ويرجع تكوين الحرات إلى فعل البراكين، وهى على ضربين، أحدهما يتألف من فجوات البراكين ذاتها، والآخر يتكون من حممها التى كانت تقذفها البراكين فتسيل على جانب الفتحات البركانية، ثم تبرد وتتصلب ثم تتفتت بفعل العوامل الجوية خلال فصلى الشتاء والصيف وبخاصة الرياح العاتية التى كثيراً ما تهب على قلب الجزيرة العربية وعلى الجهات الغربية منها بصورة دائمة.

تعتبر جزيرة العرب من أشد البلاد جفافًا وحرارة، ذلك أنه على الرغم من كون البحر يحيط بها من ثلاث جهات، إلا أن هذه المساحات من الماء لم تستطع التقليل من حدة ارتفاع الحرارة فى تلك الأجزاء الواسعة النادرة الأمطار، فدرجة الحرارة فى داخل الجزيرة العربية مرتفعة عادة ولا تهبط فى الصحراء إلى أقل من ٤٣°م نهاراً و٣٨°م ليلا[٣] فالجو البحرى لم يتغلب على ظاهرة الجفاف لأنه لا يكاد يصل إلى أواسط الجزيرة بسبب مقاومة الرياح السموم الشديدة الحرارة التى تمنعه من التغلغل إلى داخل الجزيرة.

وعلى الرغم من مواسم الجفاف التى تصيب جزيرة العرب بصورة شبه دائمة، إلا أنه توجد بعض الوديان التى يسيل فى بعضها الماء عند سقوط الأمطار، كما توجد بعض الجداول لكنها غير صالحة للملاحة، فهى إما قصيرة سريعة الجريان شديدة الانحدار وإما ضحلة تجف بعد وقت قصير.

أما أكثر المناطق التى حبتها الطبيعة بالأمطار الموسمية فهى اليمن والقسم الشمالى منها – الذى يسمى عسير[٤] – فتسقط عليها الأمطار المنتظمة التى تصلح لاستغلالها فى الزراعة. ويلاحظ أن التربة فى اليمن وعسير دائمة الخضرة حيث تمتد إلى نحو مائتى ميل من الساحل. وعلى ذلك

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٤٥.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص١٩٠.

(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب (مترجم)، عيسى البابى الحلبى بمصر، ص ٤١.

(٤) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام، ص ٢١.

فالزروع والثمار تتركز فى الجنوب، لجفاف الهواء وملوحة التربة وكثرة الصخور فى الجهات الأخرى من سطح الجزيرة العربية.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كانت عليه اليمن من خصب ورخاء فى قوله تعالى ﴿لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾(١).

تشتهر الجهات الجنوبية من الجزيرة العربية بزراعة القمح والشعير، كما ينمو الأرز فى عمان، ويزدهر شجر البخور فى معظم المناطق الموازية للساحل الجنوبى على المرتفعات، وتنتج عسير الصمغ العربى. أما شجر البن الذى اشتهرت به اليمن فقد أدخل إلى جنوب بلاد العرب فى القرن الرابع عشر الميلادى بعد نقله من الحبشة(٢).

أما فى باقى أنحاء الجزيرة فيكثر شجر السنط والأثل الذى ينتج منه أحسن أنواع الفحم الخشبى. وتشتهر الطائف بزراعة الكروم الذى أدخلت زراعته هناك أوائل القرن الخامس الميلادى بعد نقله إليها من بلاد الشام. وعرفت الواحات العربية زراعة الرمان والتفاح واللوز والمشمش والبرتقال والليمون وقصب السكر والموز، ومن المرجح أن الأنباط واليهود هم الذين أدخلوا أمثال هذه الحاصلات الزراعية بعد نقلها من أقصى شمال جزيرة العرب(٣).

ويعد التمر بكافة أنواعه من أهم الحاصلات الزراعية التى تنتجها الجزيرة العربية، لاعتماد أهلها على التمر فى طعامهم وإطعام إبلهم وأنعامهم فضلا عن استخدام سعف النخيل فى بناء منازلهم التى يقطنون بها، يقول ابن قتيبة : «التمر واللبن هما الطعام الأساسى الذى يعتمد عليه البدو فى معايشهم»(٤). ويرى علماء النبات أن النخيل قد نقل إلى جزيرة العرب من بلاد العراق، غير أن النخيل عرف فى الجزيرة منذ أقدم العصور.

---

(١) سورة سبأ : آية (١٥).

(٢) Hitti : History of the Arabs, London, 1960, p. 19.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص ٢٠٩.

(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار، القاهرة، ١٩٧٣، جـ٣، ص ٢٠٨.

كانت أهم الحيوانات التى عرفتها جزيرة العرب وورد ذكرها كثيراً فى الشعر القديم تتمثل فى النمر والفهد والضبع والذئب[١] والثعلب والأسد الذى اشتهر بنحو مائة مرادف لاسمه عند العرب. وكانت الحيوانات الأليفة التى اعتمد عليها العربى فى حياته هى الغنم والماعز وكلاب الحراسة والحصان والجمل.

يعد الحصان العربى من الحيوانات التى كان يفتخر بها العربى ويحرص على امتلاكها والعناية بها لأهميته فى الحروب فضلا عن الحل والترحال. وكان البدو يعتمدون على الغنم والماعز فى طعامهم، وشراب ألبانها، واستخدام أوبارها وجلودها فى عمل مساكنهم. أما الكلاب فترجع أهميتها بالدرجة الأولى إلى استخدامها فى حراسة قطعان الماشية من فتك الذئاب، فضلا عن استخدامها فى الصيد.

كان الجمل يمثل أهم الحيوانات الأليفة وأعظمها نفعاً لسكان البيئة الصحراوية فى جزيرة العرب، فهو وسيلة البدوى الذى يعتمد عليها فى أسفاره ورحلاته، وهو طعامه وشرابه أينما ذهب يقول فيليب حتى : «إن الجمل هو صديق البدوى الملازم له، وهو أمه المرضعة التى يعتمد عليها فى شرب لبنه»[٢]. وعلى ذلك فكان الجمل يعتبر بحق هبة الله التى أنعم بها على الإنسان فى الصحراء[٣].

قال الله تبارك وتعالى : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾[٤].

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١ ، ص ٢٠٣.

(٢) فيليب : تاريخ العرب مطول (مترجم)، بيروت، ١٩٦٥ ، جـ١ ، ص٣٣.

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 21.

(٤) سورة النحل : الآيات (٥ – ٨).

الفصل الثانى

طبقات العرب وأنسابهم

١ - العرب البائدة.

٢ - العرب الباقية :

أ) أنساب القبائل القحطانية.

ب) أنساب القبائل العدنانية.



طبقات العرب وأنسابهم

تمهيد :

كانت جزيرة العرب مهد الساميين، والموطن الذى نزحوا منه إلى ماحولهم من أقاليم. وعلى الرغم من انقسام الآراء حول الوطن الأول للعنصر السامى، إلا أن غالبية المؤرخين تؤكد أن الجزيرة العربية كانت المهد الأول للساميين[١]، بل ويحددون قلب الجزيرة على أنه الموضع الذى شهد أول سكنى للجنس السامى.

يقسم الإخباريون الشعب العربى إلى قسمين عظيمين أو طبقتين كبيرتين هما : العرب البائدة، والعرب الباقية، والطبقة الأولى يريدون بها القبائل التى هلكت وبادت أخبارها، والثانية يقسمونها إلى العرب العاربة ويقصدون بها أقدم سكان جزيرة العرب وهم عرب الجنوب القحطانيين، وقد سموا بذلك لرسوخهم فى العربية. والعرب المستعربة وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقد سموا بذلك لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية أو السريانية[٢]، فلما قدمت قبيلة جرهم من القحطانيين مكة وسكنوا مع إسماعيل وأمه هاجر، تزوج إسماعيل منهم وتعلم هو وأبناؤه العربية فسموا بذلك العرب المستعربة أو المتعربة. ويرى ابن خلدون تقسيم العرب إلى أربع طبقات، فيضيف طبقة العرب المستعجمة إلى الطبقات الثلاث السابقة، ويقصد بهم الشعوب غير العربية التى دخلت فى نفوذ الدولة الإسلامية[٣].

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، بيروت، ١٩٧٨، جـ١، ص ٤٥؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، بيروت، ١٩٧٩، جـ١، ص٩٩.

(٢) السريانية : لهجة آرامية قديمة نشأت فى إقليم الرها. أنظر، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، بيروت، ١٩٦٥، جـ١، ص١٨٤.

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص١٧-١٨.

يبدو أن مؤرخي العرب وضعوا تلك التقسيمات للعرب فى طبقات بائدة وباقية للاعتماد عليها فى التأريخ لأنساب القبائل العربية الشمالية والجنوبية متأثرين في ذلك بالطبيعة الصحراوية لجزيرتهم العربية التى قسمت العرب إلى عرب الشمال وعرب الجنوب أو إلى قحطانيين وعدنانيين. كما أن هذا التقسيم ساعدهم إلى حد كبير على التفرقة بين القبائل العربية التى بادت وبين الباقية. على أن الواقع يدل بوضوح على انتماء العرب جميعاً إلى أب واحد هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى : ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم﴾[١] وقال رسول الله ﷺ : «كل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام»[٢].

أدى انقسام العرب إلى عرب الشمال وعرب الجنوب، إلى قيام الحروب والمنازعات بين الكتلتين وزادت الخصومة بينهم إلى حد أن اتخذ كل حى منهم شعاراً له فى الحرب يخالف شعار الآخر، فاتخذ القحطانيون العمائم الصفر والرايات الصفر، والعدنانيون العمائم الحمر والرايات الحمر وظل الخلاف واضحاً بينهم على الرغم من محاولة الإسلام توحيد صفوف الأمة العربية وجمع شملها تحت لوائه. وكان لهذا الاختلاف أثره الكبير فى تثبيت أنساب القبائل وتقسيم العرب إلى شعبين كبيرين.

يتجلى لنا من استعراض أنساب القبائل العربية سواء كانت قحطانية أم عدنانية، أن الحياة السياسية للقبائل، كانت حياة كتل وهى حياة اقتضتها ضرورات الدفاع عن النفس والمصالح.

هكذا يمكن أن نفسر نظرية الطبقات السابقة، بأن الظروف السياسية لعبت دورها فى تكوينها، وإن شاء أصحابها الرجعة بها إلى الماضى البعيد. فهناك اتجاه يقول أن بنى أمية حين وضعت الأقدار أمور المسلمين فى أيديهم، إنما عملوا على إحياء العصبية الأولى بين القبائل وضرب الواحدة منها بأخرى

(١) سورة الحج : آية ٧٨.

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبير، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، ١٩٥٨، جـ١، ص٢٥.

رغبة منهم فى السيطرة على القبائل جميعاً. وقد تسبب هذا الوضع فى الإساءة إلى القبائل الجنوبية التى سرعان ما انتهزت فرصة قيام الدولة العباسية، فعملت على استعادة ما فقدته على أيام الأمويين، وبدأ الإخباريون ومعظمهم من قبائل الجنوب يكتبون عن الأنساب وعن التاريخ العربى قبل الإسلام. وزاد الأمر سوءا أن العصبية لدى القحطانيين لعبت دوراً خطيراً فى الأنساب، ذلك أنهم لم يكتفوا بالتأريخ لأنسابهم، وإنما كانوا ينسبون غيرهم إليهم مما أدى إلى ظهور الاختلاط فى الأنساب(١).

يرجع «الويس موسيل» مسألة اختلاط الأنساب عند العرب، إلى مكانة اليمن التى كانت تتمتع بها قبل الإسلام فانتسب الكثيرون إليها، ثم جاء علماء الأنساب فسجلوها على أنها حقيقة واقعة(٢).

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص ٣٤١.

(٢) Musil : Northern Nejd, New York, 1928, p. 318.

١ - العرب البائدة

يقصد بالعرب البائدة تلك الأقوام التى عاشت فى الماضى البعيد ولم يعد لأحد منهم وجود، وقت التأريخ لها، بينما بقيت آثارهم.

يعتقد بعض المستشرقين أن ما يسمى بالعرب البائدة، ليس من التاريخ الحقيقى فى شئ، ويعتبرونه جزءا من الميثولوچيا العربية أو التاريخ الأسطورى الذى عادة ما يسبق التاريخ الحقيقى لكل أمة، وعلى ذلك فقد عالجوا تاريخ القبائل العربية البائدة على هذا الأساس. الواقع أن ما ذهب إليه هؤلاء المستشرقون إنما هو وهم باطل، لأن تاريخ هذه القبائل تاريخ حقيقى، خاصة ما ذكر عن قبائل عاد وثمود ومدين، التى ورد ذكرها فى كتاب الله العزيز بصورة شاملة متكاملة يمكن الاعتماد عليها فى معالجة أخبارها وكشف كل ما يحيط بها من غموض. وقد أثبتت الآثار المكتشفة فى المواضع التى كانت تسكنها عاد وثمود ومدين أن هذه الأقوام عاشت هناك، وأنها قد بادت وتركت لنا آثارها باقية عبر الزمان لتكون للناس عبرة وموعظة، على مر الأيام. قال الله تبارك وتعالى : ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾[١].

كانت أشهر القبائل العربية البائدة التى ورد ذكرها فى المصادر العربية هى : عاد وثمود ومدين وطسم وجديس وعبيل وجرهم والعماليق[٢].

أولاً : عـاد :

تعتبر قبيلة عاد أقدم القبائل العربية التى جاءت بعد قوم نوح، استناداً إلى قوله تعالى : ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة﴾[٣]، وكان موطنهم حضرموت التى تتاخم بلاد اليمن على حدود

---

(١) سورة يوسف : آية (١١١).

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف بمصر، جـ١، ص ٢٠٧-٢٠٨؛ المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار التحرير، ١٩٦٧، جـ١، ص ٣١٣-٣٢٥.

(٣) سورة الأعراف : آية (٦٩).

الصحراء التى تعرف بالأحقاف، قال تعالى : ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾[١].

كانت قبيلة عاد فى رغد من العيش، حباهم الله بالنعم الوافرة والخير الكثير، ومنحهم فوق ذلك بسطة فى أجسامهم وقوة فى أبدانهم - غير أنهم بدلا من أن يتوجهوا بالشكر لله على نعمائه، عثوا فى الأرض فسادا واقترفوا المنكرات وأذل القوى منهم الضعيف وبطش الكبير بالصغير، ولم يكتفوا بذلك بل اتخذوا أصناما لهم يعبدونها من دون الله ويتوجهون لها بالشكر على ما كانوا يتمتعون به من النعم، فلما أراد الله عز وجل هدايتهم إلى طريق الرشاد أرسل إليهم رسولا من أنفسهم ليهديهم إلى سواء السبيل ويرشدهم إلى خالقهم، غير أنهم أعرضوا عنه ورموه بسفاهة العقل وحماقة الرأى، وأصروا واستكبروا استكبارا وقالوا له كما جاء بالقرآن الكريم ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾[٢]. فأنزل الله بهم العذاب الشديد، بأن أرسل عليهم الرياح العاتية التى ظلت تسومهم العذاب الأليم سبع ليال وثمانية أيام متتالية، أصبح القوم بعدها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، فانتهى أمرهم وطمست أخبارهم، قال الله عز وجل : ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر، إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابى ونذر﴾[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن كثيراً من المؤرخين القدامى[٤] ومن سار على نهجهم من المؤرخين المحدثين اعتقدوا بوجود قبيلة ثانية من قوم عاد، أطلقوا عليها عادا الثانية، استناداً إلى تفسيرهم للآية الكريمة :

---

(١) سورة الأحقاف : آية (٢١).

(٢) سورة هود : الآيات (٥٣).

(٣) سورة القمر : الآيات (١٨).

(٤) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص٣١٣؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٤٨؛ ابن كثير : البداية والنهاية، بيروت، ١٩٧٨، جـ١، ص ١٣١.

﴿وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى﴾[١] غير أنه يتضح من استقراء الآيات البينات التى اختصت بذكر قوم عاد فى سور القرآن الكريم، أن الآية الكريمة تعنى بعاد الأولى البعد الزمنى والتاريخى بين قوم عاد وقوم ثمود، ذلك أن ثمود جاءت بعد عاد. وقبيلة عاد واحدة أرسل لها نبى واحد هو هود فلم يرد فى القرآن الكريم، الذى ينفرد بذكر أخبار عاد وثمود اسم أى نبى آخر أرسل إلى قوم عاد، كما لا توجد آية واحدة فى القرآن الكريم تشير إلى وجود عاد الثانية. ويرى بعض المفسرين أن ثمود هى عاد الثانية. غير أن ذكر عاد وثمود فى كتاب الله العزيز واضح لا يقبل التخمين والاستنتاج فكل قبيلة كانت قائمة بذاتها ولها نبيها المرسل.

ثانيـاً : ثمـود :

كانت قبيلة ثمود تقيم فى شمال بلاد العرب بين الحجاز والشام فيما يعرف بالحجر[٢]، وكانوا يسكنون فى بيوت نحتوها فى الجبال، ولاتزال آثارهم المنحوتة فى الصخور باقية شاهدة عليهم فى المنطقة الممتدة من الجوف شمالا إلى الطائف جنوباً، ومن الإحساء شرقاً إلى أرض مدين غرباً[٣].

يقول المسعودى : «وديارهم بفج الناقة، وبيوتهم إلى وقتنا هذا أبنية منحوتة فى الجبال، ورسومهم باقية، وآثارهم بادية.. وذلك فى طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادى القرى»[٤]، وقد أشار القرآن الكريم إلى مساكن قوم ثمود فى قوله تبارك وتعالى ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين﴾[٥].

---

(١) سورة النجم : الآيات (٥٠-٥١).

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٥٠.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص٣٢٩.

(٤) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص ٣١٥.

(٥) سورة الحجر : الآيات (٨٠-٨٢).

كانت قبيلة ثمود في رغد من العيش وسعة من الرزق، فلم يحمدوا الله عز وجل على ما أنعم به عليهم، بل عالوا في الأرض فسادا وبعداً عن الحق، وعبدوا الأوثان من دون الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانا. فبعث الله إليهم صالحا رسولا، فدعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونهاهم عن عبادة الأصنام التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ولا تغني عنهم من الله شيئا.

غير أن ثمـود سخرت من نبيها صالح، وأصرت على عنادها، وتمادوا في طغيانهم، وأبوا أن يطيعوه، إلا أن يأتي لهم بمعجزة خـارقة تبين لهم صـدق رسـالته، فأخرج لهم صالح من الصخر ناقة – بإذن الله – وأمرهم ألا يمسـوها بسـوء.

على الرغم من تحذير قوم ثمود بسوء العاقبة إذا ما تعرضوا للناقة، إلا أنهم حسبوها خطراً جسيماً عليهم وشراً مستطيرا مما حملهم على عقرها. فلما رأى صالح ما فعلوه، وعدهم العذاب الأليم من رب العالمين[١].

لم يمض غير قليل حتى أرسل الله عليهم صيحة من السماء فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وأهلكهم الله عز وجل جزاء بما كانوا يقترفون. وقد أشار الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز إلى ما أصاب قوم ثمود بقوله عز وجل : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم (*) واذكروا إذ جعلكم خلفـاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخـذون من سـهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين (*) قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه، قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون (*) قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون (*) فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم. وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (*) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾[٢].

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص٥١.

(٢) سورة الأعراف : الآيات (٧٣-٧٨).

ثالثاً: مديـن:

كان أهل مدين قوماً عربا يسكنون مدينتهم «مدين» التي تقع في أطراف بلاد الشام مما يلي الحجاز، قريباً من بحيرة لوط[١] وكانوا يعبدون الأوثان من دون الله. ويحتكرون التجارة ويعبثون بالكيل والميزان ويبخسون الأسعار فبعث الله فيهم أخاهم شعيبا رسولا، ليهديهم إلى الطريق المستقيم ويأمرهم بالعدل، ويحذرهم عاقبة ظلمهم. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها. ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾[٢].

لم تجب قبيلة مدين دعوة شعيب، وساروا على نهج عاد وثمود في الاستهزاء بأنبيائهم والسخرية من دعوتهم، رافضين أن ينتهوا عن عبادة أسلافهم قائلين: ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾[٣].

لما يئس شعيب من هداية أهل مدين إلى طريق الحق استنصر ربه عليهم وتضرع إليه أن يعجل لهم ما يستحقون من العذاب، فاستجاب الله دعاءه وآزره ونصره، وابتلاهم بصيحة عظيمة من السماء أهلكتهم، ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه. قال تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين (*) كأن لم يغنوا فيها، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود﴾[٤].

رابعاً: طسم وجديس:

ينسب المؤرخون قبيلتي طسم وجديس إلى لاوذ بن إرم بن سام بن نوح[٥]، ويذكرون أن مساكنهم كانت في منطقة جو التي عرفت فيما بعد

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص ٧٧-٧٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) سورة الأعراف: آية (٨٥).

(٣) سورة هود: آية (٨٧).

(٤) سورة هود: الآيتان (٩٤-٩٥).

(٥) ابن قتيبة: المعارف، دار المعارف، القاهرة، ص١٣؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٤.

باسم اليمامة والبحرين[١]، وعثر على نص يونانى يرجع تاريخه إلى سنة ٣٢٢م. ذكر فيه اسم قبيلة طسم، أما جديس فقد ذكرها بطليموس فى جغرافيته باسم (Jodisitae)، وقال إنه اسم قبيلة من قبائل العرب كانت تنزل فى شرقى بلادهم. وإنه زار قصرا لهم فى اليمامة مازالت بقاياه موجودة[٢].

كانت الرئاسة على قبيلتى طسم وجديس فى بادئ الأمر لطسم، وظل الحال على ذلك حتى ولى أمرهما رجل ظلوم غشوم، استذل قبيلة جديس كما يروى المؤرخون وانتهك أعراض نسائها، فقررت جديس الانتقام والقضاء على ملك طسم، وما لبث أن اشتبك الطرفان فى معركة شديدة، دارت خلالها مذبحة رهيبة لم ينج فيها إلا رجل من طسم اسمه رياح بن مرة - الذى استطاع أن يفر هارباً إلى حسان بن تبع - ملك حمير، حيث طلب منه المساعدة لمحاربة جديس[٣] فوافق ملك حمير وأمده بجيش كبير سار معه إلى هناك، وبينما كان الجيش الحميرى على مسيرة ثلاثة أيام من اليمامة، إذا بزرقاء اليمامة - أخت - رياح بن مرة، تحذر قبيلة جديس وتخبرهم أنها ترى شجرا يتحرك ومن ورائه جنود تحمل سلاحا، فلم يصدقها القوم، حتى إذا ما وصل الجيش الحميرى أباد جديس عن آخرها[٤]. وهكذا كان فناء طسم على أيدى جديس، وفناء جديس على أيدى الحميريين. وصارت القبيلتان من العرب البائدة.

خامساً : عبيل :

يرجع نسب عبيل إلى ولد عوصى أخى عاد[٥]، وهم الذين اختطوا مدينة يثرب، وعاشوا فيها حتى قدم إليهم العماليق وطردوهم وتعرضوا هناك لسيل جارف اجتحفهم اجتاح مساكنهم) فسمى موضعهم الجحفة[٦].

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٤٤٢.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص ٣٤٠.

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ١، ص ٣٢٣، ٣٨٦.

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ١، ص٦٢٩.

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٢١.

(٦) ابن سعد : الطبقات الكبير، جـ١، ص ٢١.

سادساً : العماليق :

ينسب العماليق إلى عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح[١] وهم يعتبرون من أقدم قبائل العرب الصرحاء، الذين انتشروا في جهات متفرقة من جزيرة العرب.

ذكر العماليق في التوراة على أنهم من أقدم الشعوب التى سكنت جنوب فلسطين[٢]، وأنهم كانوا في صدام وحروب مستمرة مع بنى إسرائيل، تقول التوارة «إذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق، ويتلفون غلة الأرض إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ولا غنما ولا بقرا ولا حميرا[٣]. وعلى ذلك كما تقول التوراة فقد أمر الرب، شاؤل، ملك إسرائيل «أن يحارب العماليق ويبيد كل ممتلكاتهم من ثيران وماشية وجمال وحمير»[٤].

---

(١) ابن قتيبة : المعارف، ص ١٣-١٤.

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١ ، ص ٣٤٦.

(٣) القضاة : ٦ : ٣-٤.

(٤) صموئيل أول : ١٥ : ٣-٩.

٢ - العرب الباقية

العرب الباقية هم القبائل التى سكنت اليمن والحجاز وكافة أنحاء الجزيرة العربية وتزايد أفرادها على مر السنين، حتى كونت شعبين عظيمين كتب لهما البقاء، هما شعب قحطان وشعب عدنان أو العرب العاربة، والعرب المستعربة أو عرب الجنوب وعرب الشمال.

أ) أنساب القبائل القحطانية :

كان الموطن الأصلي للشعب القحطاني، بلاد اليمن فى الركن الجنوبى الغربى من جزيرة العرب، ولذلك عرفوا باسم عرب الجنوب، وينسب القحطانيون إلى قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح وهو أول ملوك اليمن فلما توفى قحطان خلفه ابنه يعرب - جد العرب الجنوبيين(١)، وعلى ذلك فقد أطلق على القحطانيين اسم العرب العاربة نسبة إلى يعرب ووصفوا فيما بعد بأنهم الصرحاء أو الخلص أو الراسخون فى العربية.

يقسم النسابون، العرب العاربة، شعب قحطان إلى فرعين كبيرين هما جرهم ويعرب، وقد باد الفرع الجرهمى بينما بقيت يعرب التى تشعبت إلى مجموعتين من القبائل هما حمير وكهلان.

يرجع نسب حمير إلى حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان(٢)، وأنجب حمير جملة من الأبناء، كانوا هم أجداد قبائل حمير، التى من أشهرها قبيلة قضاعة التى يرجع نسبها إلى قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة ابن زيد بن مالك بن حمير(٣). ويرى بعض النسابين أن قضاعة إحدى قبائل العدنانيين من ولد معد بن عدنان ابن عدنان(٤)، غير أن اختلاط

---

(١) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص ٣٤١.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، المكتبة التوفيقية، ١٩٧٨، جـ١، ص ١٢.

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٢٤٧.

(٤) ابن قتيبة : المعارف، ص ٦٣.

بطون قضاعة الكثيرة بقبائل قحطان وقبائل عدنان، هو الذى أحدث ذلك الالتباس بين النسابين. يقول عمرو بن مرة الجهينى – من جهينة – إحدى بطون قضاعة، فى هذا الصدد مؤكداً نسب قضاعة إلى القحطانيين :

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر ∴ قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر ∴ فى الحجر المنقوش تحت المنبر(١)

كانت أشهر بطون قضاعة، بلى وجهينة وكلب وبهراء وبو نهد وسعد هزيم وبنو مهرة وتنوخ. وكانت بلى تسكن اليمن والنسبة إليهم بلوى، وهم ولد بلى بن عمرو بن الحالف ابن قضاعة، قال المثلم بن قرط البلوى :

ألم تر أن الحى كانوا بغبطة ∴ بمأرب إذ كانوا يحلونها معا
بلى وبهراء وخولان اخوة ∴ لعمرو بن حاف فرع من قد تفرعا(٢)

وكانت منازل جهينة فى نجد فى الأصل، وعند ظهور الإسلام كانت تقيم فى الحجاز على مقربة من المدينة بين ساحل البحر الأحمر ووادى القرى. أما بنو نهد فكان يقيم أكثرهم فى مدينة نجران، بينما كان بنو مهرة يسكنون فى ناحية الشحر من اليمن ببلاد العنبر(٣). وكانت كلب فى حد ذاتها جملة قبائل وبطون كبيرة، ومن أشهر رجالها، زهير بن جناب الكلابى، وكان بنو كلب ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام ومنها، رفيدة وعريتة وصحب وكنانة الكلابية، وقد تفرعت كنانة إلى بنى عدى وبنى زهير وبنى علم وبنى خباب(٤).

يرجع نسب قبائل كهلان إلى كهلان بن سبأ شقيق حمير بن سبأ، وكان بنو كهلان، وبنو حمير يتناوبون الحكم فيما بينهم، إلا أن حمير انفردوا به وظلت السيادة لهم، حتى تقلص ملكهم فانتقلت الرئاسة إلى بنى كهلان.

---

(١) الأصفهانى : كتاب الأغانى، دار الكتب المصرية، جـ٧، ص ٧٧-٧٨.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام،جـ٤، ص ٢٤٢.

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، دار العارف، ص ٤٤٠.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٢٤٩.

انحدرت قبائل كهلان كلها من مالك وعريب ولدى زيد بن كهلان، ومن أشهرها، الأزد وهي مجموعة ضخمة من القبائل منها : الأوس والخزرج ومازن وجفنة (ملوك الشام)(١)، والجلندى (ملوك عمان)(٢) وبجيلة، وخزاعة التي كانت محالفة لرسول الله ﷺ في نزاعة مع قريش(٣) وقد سميت بهذا الاسم، لأنهم لما ساروا مع قومهم مهاجرين من مأرب تخزعوا عنهم (أي تخلفوا عنهم) حينما وصلوا مكة فأقاموا فيها، بينما سار الآخرون إلى الشام وقد أشار حسان بن ثابت إلى ذلك بقوله :

ولما هبطنا بطن مر تخزعت خزاعة عنا في حلول كراكر(٤)

ويتفق كثير من النسابين على وضع قبائل الأزد كلها في أربعة بطون طبقاً للمواضع التي كانت تنزل بها، وهم، أزد عمان، وأزد السّراه، وأزد شنؤهة (سكان السّراه أيضاً) وأزد غسان(٥).

كذلك كانت همدان من أشهر القبائل الكهلانية التي عرفت قبل الإسلام، وكان لها شأن عظيم بعد ظهور الإسلام ومن بطونها بني عليان وبني قدم وبني حجور، وبني جحدن، وبني شبام(٦).

وكانت جذام ولخم من القبائل اليمنية الكهلانية التي تفرعت عن مالك بن زيد ابن كهلان أيضا، وكانت ديار جذام تقع حول آيلة من أول أعمال الحجاز حتى ينبع من أطراف يثرب أما لخم شقيق جذام فهم رهط آل المنذر - ملوك الحيرة، وكانت منازلهم تقع في بلاد الشام والعراق وفي مواضع متعددة من فلسطين(٧).

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جـ٢، ص ٧٥؛ البكرى : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، القاهرة، ١٩٥٤، جـ١، ص ٢٩٦.

(٢) ابن المصعب الزبيرى :كتاب نسب قريش، ص ٧.

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، جـ١، ص ١٠١.

(٤) بطن مر : موضع من نواحي مكة. أنظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٢٥٣.

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١، ص ٣١٩.

(٦) ابن قتيبة : المعارف، ص ١٠٥.

(٧) النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، جـ٢، ص ٣٠٣.

أما أشهر القبائل الكهلانية التى تفرعت عن عريب بن زيد بن كهلان فمنهم، الأشعر وطئ ومذحج ومرة[١]. وكانت منازل الأشعر (الأشاعرة) فى الناحية الشمالية من زبيد بلاد اليمن[٢]، ومن بطونها الجماهرة وجدة ووائل وكاهل. وكانت طئ تنزل باليمن ثم هاجرت إلى الحجاز ونزلوا فى جوار بنى أسد، ثم استولوا على جبلين من بلاد أسد، أقاموا فيهما فعرفا بجبلى طئ[٣] وتفرع عن طئ جديلة وبنو تميم وبنو نبهان وبنو ثعل وبنو ثعلبة (الثعالب). وكان لمكانة طئ الكبيرة فى بلاد العرب وكثرة أبنائها الفضل الأكبر فى أن أطلق السريان اسمها على العرب جميعا. كما اختار الفرس أحد أبناء طئ وهو إياس بن قبيصة لتولى الحكم فى الحيرة مرتين[٤]. وقد ظلت طئ فى حل وترحال حتى نزلت جنوب النفود قبيل ظهور الدعوة الإسلامية[٥]. وكانت مذحج من القبائل اليمنية الكبيرة التى تفرع عنها كل من، جلد ومراد وزيد وسعد العشيرة وهيس والنخع[٦]. وكانت زيد بن مذحج تعرف بعنس ومنهم كل من عمار بن ياسر الصحابى المعروف، والأسود العنسى المتنبئ[٧]. أما النخع فاشتهر منهم الأشتر النخعى واسمه مالك بن الحارث صاحب رسول الله ﷺ وصاحب على بن أبى طالب كرم الله وجهه[٨].

ب) أنساب القبائل العدنانية :

العدنانيون هم عرب الشمال، الذين سكنوا الجزء الشمالى من الجزيرة العربية، وينسب العدنانيون إلى عدنان ابن أدد بن كثوم بن مقوم بن ناحور

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٤٥.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١، ص ٣٢٥.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٥٤.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص ٢٧٠.

(٥) Rabin : Ancient West-Arabia, London, p. 193.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٥٥.

(٧) النويرى : نهاية الأرب، جـ٢، ص ٣٠١.

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١، ص ٣٢٧.

ابن تاريخ بن نابت بن اسماعيل بن إبراهيم[١]. وهم العرب المستعربة وتفرعت القبائل العدنانية كلها من نسل ولدى عدنان، معد وعك وكانت عك قد صارت فى بلاد اليمن بعد أن تزوج عك من الأشعريين وأقام معهم، ولذلك اختلط نسبه بالقبائل القحطانية، و«صارت اللغة والدار واحدة»[٢].

تفرع عن معد قبائل أربع، إياد ونزار وقنص وزنمار. وكان إياد أكبر أبناء معد وإليه يرجع نسب كل إيادى، وكانت منازلهم القديمة فى تهامة ثم ارتحلوا بسبب الحروب التى دارت بينهم، فذهب قسم منهم إلى العراق حيث نزلوا الأنبار وتكريت[٣]، وذهب قسم آخر منهم إلى البحرين وهجر حيث انضموا إلى قضاعة[٤]، بينما سكن القسم الثالث منهم بلاد الشام حيث دانوا للغساسنة ولحق أكثرهم ببلاد الروم[٥]. أما قنص فخلف أباه فى الإمارة على العرب، وأراد أن يخرج أخاه نزارا من الحرم، إلا أن أهل مكة أجمعوا على طرد قنص وقدموا عليه نزاراً[٦]، الذى تفرعت عنه أشهر البطون العدنانية ومنها، مضر وربيعة[٧].

كانت أشهر بطون ربيعة بن نزار، أسد وضبيعة، ومن نسلهما تشعبت قبائل ربيعة، فمن أسد كانت جديلة وعنزة وعميرة[٨]، وكانت عنزة من القبائل العربية الكبيرة قبل الإسلام، ولاتزال من القبائل البارزة فى الوقت الحاضر. ولها بطون وأفخاذ كثيرة فى نجد والحجاز وبادية الشام. وتفرع عن

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص ١٠؛ المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص ٤٨٧.

(٢) ابن هشام : المرجع السابق، جـ١، ص١٠.

(٣) البكرى : معجم ما استعجم، جـ١، ص١٨.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١، ص ٣٣٦.

(٥) البكرى : المرجع السابق، جـ١، ص ٧٥.

(٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٣٠٠.

(٧) ابن المصعب الزبيرى : نسب قريش، ص ٥.

(٨) النويرى : نهاية الأرب، جـ٢، ٣٢٨.

جديلة كل من، دعمي وجدى وعبدالقيس ووائل[١]. وتفرع عن وائل كل من بكر وتغلب[٢].

كانت بكر بن وائل من القبائل الكبيرة التى كان لها شأن عظيم عند ظهور الإسلام، وهى مثل القبائل العدنانية الأخرى من القبائل المهاجرة التى تركت ديارها فى تهامة على أثر الحروب التى دارت بين العدنانيين، وهاجرت إلى اليمامة والبحرين والعراق. وكان لبكر بن وائل حروب طويلة مع تغلب استمرت سنين طويلة ووقعت فيها عدة وقائع.

كذلك كانت تغلب بن وائل من القبائل العربية التى ورد اسمها فى كثير من مؤلفات النسابين والمؤرخين والأدباء واتصلت بحكم منازلها بالغساسنة والمناذرة والروم والفرس. وقد ثار التغلبيون على سلوك الحيرة مرات كثيرة ودارت بينهم عدة حروب.

تعتبر مضر من أعظم القبائل العدنانية، وقد تفرع عنها كل من الياس وقيس عيلان[٣]. وكانت أشهر بطون قيس عيلان بن مضر، سعد وخصفة وعمرو[٤]. وتفرع عن سعد بن قيس عيلان، غطفان ومنبه. وتعد غطفان من البطون الكبيرة المعروفة، ووقعت بينهما وبين بنى عامر بن صعصعة عدة أيام قبل الإسلام. ومما تجدر الإشارة إليه أن غطفان العدنانية تختلف عن قبيلة أخرى تسمى غطفان التى تنسب إلى غطفان بن سعد بن مالك من اليمن. وكانت غطفان فى جملة القبائل التى قاومت الإسلام فى بداية الأمر، ثم أسلمت فى السنة الثامنة للهجرة. ومن أشهر بطون غطفان كل من عبس وذبيان. وتعد عبس من جمرات العرب[٥]، وقد اشتهر منها عنترة بن شداد

---

(١) النويرى : نهاية الأرب، جـ٢، ص ٣٢٩.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١، ص ٣٣٨.

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل الملوك، جـ١، ص ٢٦٨.

(٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ٤٨٠.

(٥) جمرات العرب : يقصد بالجمرة، القبيلة التى لا تخالف غيرها، ولا تنضم إلى الحروب. وتصبر فى القتال حتى تحقق النصر، ويتراوح عدد فرسانها ما بين الثلاثمائة فارس إلى الألف فارس. ويتفق أكثر المؤرخين على أن جمرات العرب هى ضبة وعبس والحارث ويربوع ونمير.
أنظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ٤٨٦؛ ابن منظور : لسان العرب، جـ٥، ص ٢١٥.

بطل العرب المشهور[١]. ومن نسل ذبيان، فزارة وسعد. وكانت مواطن فزارة فى نجد ووادى القرى[٢]، وقد ذهبت بطون منهم إلى شمال أفريقية. وكان لحذيفة بن بدر - رئيس فزارة - دور كبير فى حرب داحس والغبراء التى وقعت بين عبس وذبيان. واشتهر من نسل ذبيان النابغة الذبيانى. كان من نسل خصفة بن قيس عيلان كل من عكرمة ومحارب. ومن محارب اشتهر عامر بن وهب بن مجاشع المعروف بذى الرمحين، وكان سيد قومه. أما فرع عكرمة فكان من نسله مازن وهوازن وسليم وسلمان ومالك. ومن هوازن، بكر ومنها معاوية ومنبه ويزيد وسعد. وفى بنى سعد بن بكر بن هوازن استرضع رسول الله ﷺ[٣].

أما هوازن فمن القبائل الكبيرة التى تفرعت عنها بطون كثيرة معروفة، وكانت هوازن من القبائل التى قاومت الإسلام فغزاها رسول الله ﷺ بعد فتح مكة فتمكن منها ودخلت فى الإسلام. وكان من أشهر ولد منبه بن بكر بن هوازن، قسى وهو ثقيف[٤]، ومن ثقيف كان الحجاج بن يوسف الثقفى والشاعر أمية بن الصلت، وأبو عبيدة بن مسعود والد المختار الثقفى[٥].

يتألف الفرع الثانى من فروع مضر، نسل إلياس من مجموعات ثلاث، هم طابخة وقمعة ومدركة، ولكل منها قبائل وبطون عديدة. فمن نسل طابخة كل من ضبة إحدى جمرات العرب[٦]، التى كانت منازلها تقع فى اليمامة. وتميم بن طابخة، التى انتشرت بطونها فى الناحية الشرقية من جزيرة العرب ونجد والعراق. وقد سكنت إلى جوار قبائل أسد وغطفان وتغلب. وكان لتميم صلات قوية بملوك الحيرة.

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٣٠٦.

(٢) البكرى : معجم ما استعجم، جـ١، ص٦٣؛ النويرى : نهاية الأرب، جـ٢، ص ٣١٦-٣١٧.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص ١٦٨.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٣٠٩.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق، جـ٢، ص ٣١٠.

(٦) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ٤٨٦.

كان من نسل قمعة بن إلياس، عمرو بن لحى، أول من غير دين إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان[١]. وأشهر بطون قمعة كل من أسلم وخزاعة وكانت مواطن خزاعة فى مكة وكانوا حلفاء قريش، ودخلوا فى عهد رسول الله ﷺ فى عام الحديبية. وهم غير خزاعة غسان.

أما فرع مدركة فيتألف من أصلين هما خزيمة وهذيل[٢]، وكانت هذيل من القبائل العربية الكبيرة التى سكنت السراة فيما بين مكة ويثرب فى جوار بنى سليم وكنانة. وقد اشتهرت هذيل بكثرة من نبغ فيها من الشعراء حيث بلغ عددهم نيفا وسبعين شاعرا[٣]. ومن أشهر رجالها كل من أسد وأسدة والهون وكنانة[٤]. وتشعبت كنانة إلى النضر - وهو أكبر أبناء كنانة - ومالك وملكان ومليك وعمرو وعامر وغزوان وعبد مناة، ومن بطون عبد مناة، بكر ومنها ليث والدئل. وكان من نسل مالك، فهر، وهو قريش وبه سميت قريش قريشا، ولهذا يقال لهم بنو فهر[٥]، وولد فهر غالبا والحارث ومحارب وجزلة.

وكان من نسل غالب بن فهر، لؤى وتيم وقيس. ومن ولد لؤى كعب وعامر وخزيمة وسعد. وأنجب كعب كلا من مرة وعدى وهصيص. وتفرع عن مرة، كلاب وتيم ويقظة[٦]. وتشعب كلاب إلى قصى وزهرة ونعم. فأنجب قصى كلا من عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى بن قصى وعبد قصى[٧]. وكان لعبد مناف من الولد كل من عبد شمس (جد الخلفاء الأمويين) وهاشم ونوفل والمطلب. فأنجب هاشم بن عبد مناف كل من عبدالمطلب وأسد

---

(١) ابن المصعب الزبيرى : نسب قريش، ص ٨.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٣١٩.

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ١٩٧.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١، ص ٣٤٨.

(٥) النويرى : نهاية الأرب، جـ٢، ص ٣٣٣.

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص ١٠٧.

(٧) ابن هشام : المصدر السابق، جـ١، ص ١٠٩.

وأبى صيفى ونضلة والشفاء[١]. فأنجب عبدالمطلب من الولد عشرة هم، العباس وحمزة وعبدالله وأبو طالب والزبير والحارث وجحم والمقوم وضرار وأبو لهب (عبدالعزى)[٢]. وكان الحارث أكبر أولاد عبدالمطلب وبه كان يكنى. وأنجب عبدالله بن عبدالمطلب، رسول الله سيدنا محمدا ﷺ، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. وكان لرسول الله ﷺ من الأبناء كل من القاسم - أكبر أبنائه - ،به كان يكنى، وزينب وعبدالله وأم كلثوم وفاطمة ورقية. ثم أنجب إبراهيم من مارية القبطية بنت شمعون بن إبراهيم. وكان المقوقس حاكم الاسكندرية قد أهداها إلى رسول الله ﷺ[٣].

كان من نسل العباس بن عبدالمطلب الذى ينسب إليه العباسيون كلا من الفضل وبه كان يكنى وعبدالله الذى دعا له رسول الله ﷺ فقال : «اللهم أعطه الحكمة وعلمه التأويل». وعبيد الله بن العباس وقثم والحارث وكثير وتمام بن العباس[٤].

أما أبو طالب بن عبدالمطلب فأنجب كلا من طالب وعقيل وجعفر وعلى الذى ينسب إليه العلويون. وأنجب على بن أبى طالب كلا من الحسن والحسين ومحمد بن على بن أبى طالب، الذى يقال له «ابن الحنفية» نسبة إلى أمه خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة من بنى حنيفة، وتسميه الشيعة «المهدى»[٥]، وهم يزعمون أنه لم يمت. ويحيى بن على والعباس وعمر بن على بن أبى طالب.

وولد عبد شمس بن عبد مناف كلا من حبيب - وهو أكبر أبنائه - وبه كان يكنى، وأميـة الأكبر وعبدالعزى وعبد الله (الأعرج). فأنجب أمية بن عبد شمس، أبا العاصى، وهو من حكماء قريش وشعرائهم، وحرب بن أمية وأبا حرب وأبا سفيان وسفيان وعمر وأبا عمر. فأنجب أبو العاصى بن أمية كلا

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص ١١١.

(٢) ابن المصعب الزبيرى : نسب قريش، ص ١٧.

(٣) ابن المصعب الزبيرى : المصدر السابق، ص ٢٢.

(٤) ابن المصعب الزبيرى : المصدر السابق، ص ٢٧.

(٥) ابن المصعب الزبيرى : المصدر السابق، ص ٤٢.

من عفان وعفيف وعوف وعثمان والحكم والمغيرة. ومن نسل عفان بن أبي العاصي، عثمان بن عفان. وولد حرب بن أمية أبا سفيان (صخرا)، وكان أبو سفيان يقود المشركين إلى حرب رسول الله ﷺ ثم أسلم وحارب إلى جانب المسلمين في الطائف واستعمله رسول الله ﷺ على نجران[١]. ومن ولده أيضاً الحارث بن حرب وعمر وأم جميل بنت حرب «حمالة الحطب»، وفيها يقول الأحوص الشاعر الأنصاري[٢] :

ما ذات حبل يراه الناس كلهم ∴ وسط الجحيم ولا يخفى على أحد

كل الحبال حبال الناس من شعر ∴ وحبلها وسط أهل النار من مسد

كان لأبي سفيان بن حرب من الولد كل من حنظلة، ومعاوية بن أبي سفيان، الذي قال «أسلمت ولقيت رسول الله ﷺ ووضعت إسلامي عنده وقبل مني»[٣] وعتبة بن أبي سفيان ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان.

أما الحكم بن أبي العاص، فكان له من الولد واحد وعشرون رجلا وامرأة، منهم مروان بن الحكم، الذي أنجب أحد عشر رجلا وامرأة منهم عبدالملك بن مروان وبشر ومحمد وعبدالعزيز بن مروان[٤].

كذلك أنجب عبدالعزى جملة من الأبناء فمنهم، أسد بن عبدالعزى. ومن ولد أسد، خويلد، فولد خويلد بن أسد كلا من عدي وبه كان يكنى، وحزام والعوام ونوفل والسيدة خديجة بنت خويلد[٥]، زوج رسول الله ﷺ ومن نسل العوام بن خويلد عبدالرحمن، وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ عبدالرحمن. والسائب والزبير بن العوام، فأنجب الزبير بن العوام كل من عبدالله والمنذر وعروة وعاصم ومصعب وحمزة وخالد وعبيدة

---

(١) ابن المصعب الزبيري : نسب قريش، ص ١٢٢.

(٢) ابن المصعب الزبيري : المصدر السابق، ص ٨٩.

(٣) ابن المصعب الزبيري : المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٤) ابن المصعب الزبيري : المصدر السابق، ص ١٥٩-١٦٠.

(٥) ابن المصعب الزبيري : المصدر السابق، ص ٢٣٠.

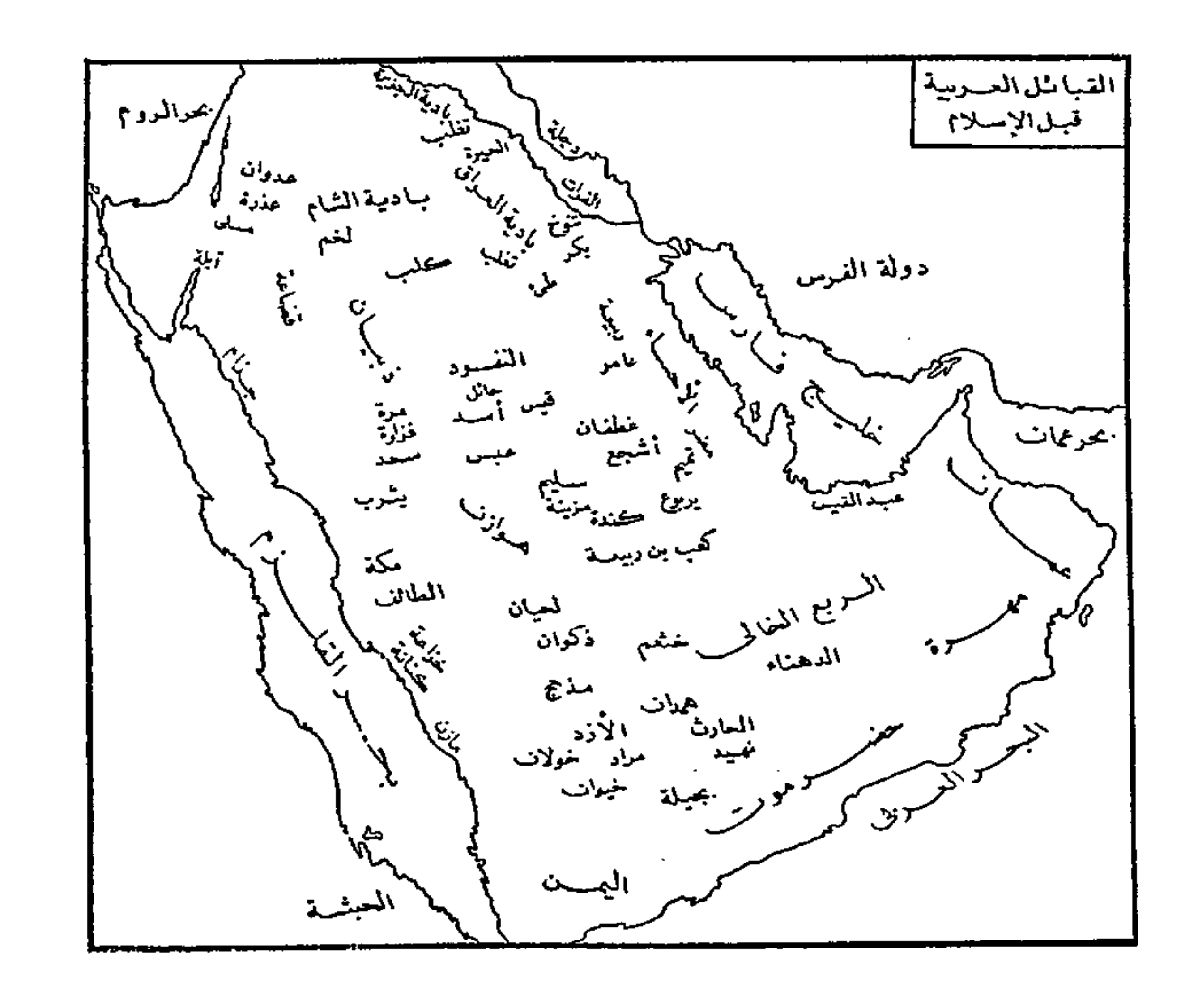
وجعفر. وكان عبدالله بن الزبير أسن ولد الزبير، وهو أول مولود ولد بالمدينة من المسلمين[١].

أما زهرة بن كلاب شقيق قصى بن كلاب فأنجب عبد مناف والحارث بن زهرة. فولد عبد مناف بن زهرة، وهبا وهو جد رسول الله ﷺ والد أمه السيدة آمنة بنت وهب[٢].

---

(١) ابن المصعب الزبيرى : نسب قريش، ص ٢٣٧.

(٢) ابن المصعب الزبيرى : المصدر السابق، ص ٢٦١؛ ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١ ، ص ١٦٣.


القبائل العربية
قبل الإسلام
بحر الروم
حدوان
عذرة
بادية الشام
لخم
كلب
تغلب
الحيرة
بادية العراق
بكر
طيء
دولة الفرس
عامر
النفود
حائل
قيس
أسد
مرة
فزارة
سعد
عبس
غطفان
أشجع
تميم
سليم
مزينة
كندة
يربوع
يثرب
هوازن
كعب بن ربيعة
عبد القيس
بحر عمان
مكة
الطائف
لحيان
ذكوان
الربع الخالي
خثعم
الدهناء
مهرة
مذحج
همدان
الحارث
الأزد
نهيد
مراد
خولان
خيوان
بجيلة
حضرموت
البحر العربي
اليمن
الحبشة

الفصل الثالث

المظهر السياسى للقبائل العربية
فى بادية العرب

١ - النظام السياسى.

٢ - أيام العرب.

أ) أيام القحطانيين فيما بينهم.

ب) أيام العدنانيين فيما بينهم.

جـ) الأيام التى دارت بين القحطانيين والعدنانيين.



المظهر السياسى للقبائل العربية

فى بادية العرب

١ - النظام السياسى

كانت القبيلة هى وحدة النظام السياسى الذى ينتمى إليها ويقدسها العربى قبل الإسلام. والقبيلة أسرة كبيرة تتكون من أبنائها الذين يؤمنون بالإنضمام إليها ويحترمون عرفها المتفق عليه فيما بينهم، ويتعصبون لها ويدافعون عنها ويبذلون في سبيلها كل غال ونفيس. ويرجع ذلك إلى الشعور الجارف نحو القبيلة، الأسرة الكبيرة التى يفتخر ويزهو كل فرد فيها بالانتماء إليها والاندماج مع أخوانه فيها فكل أبناء القبيلة الواحدة أخوة يجرى فى عروقهم دم واحد، هو دم أبيهم الكبير الذى تنتمى إليه وتتسمى باسمه القبيلة.

يختلف الانتماء إلى القبيلة عن الانتماء العام للجنس أو الأمة، فالأول يحمل فى طياته شعوراً أقوى بكثير من الآخر لأن المسألة مسألة أبوة أو أخوة أو عمومة، يقول ابن خلدون : «أعلم أن كل حى أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضاً عصبيات أخرى لأنساب خاصة هى أشد التحاماً من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بنى أب واحد»[١].

كان للعصبية القبلية أثر فعال فى حفظ التوازن بين القبائل العربية فى بادية العرب، وفى صيانة حقوق أفرادها وكرامتهم وكيانهم، ذلك أن سلطان العصبية كان قوياً وله دور هام فى الدفاع عن القبيلة والتصدى لأعدائها.

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص ١٣١.

فكل أبناء القبيلة المتعصبين لها كانوا يتضامنون من أجل الدفاع عن شرف الأسرة الكبيرة وسمعتها وحمايتها من العدوان يقول ابن خلدون : «ولا يصدق دفاعهم (أبناء القبيلة) وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم»[١]. فالجميع كانوا يقدسون قبيلتهم بدرجة تفوق الميول والاختلاف العقائدى، فمكانتها عند أبنائها كانت أقوى وأعلى من الإيمان الدينى.

على الرغم من أثر العصبية القبلية فى حفظ التوازن بين القبائل العربية فى بادية العرب، إلا أنه كان يشوبها التعصب الأحمق البعيد عن التعقل فى مواجهة الأزمات والمسائل الخطيرة التى قد تنشأ بين القبائل، فالأعصاب دائماً ملتهبة تنتظر من يشعلها لأتفه الأسباب، والعصبية تقف حائلا أمام العدالة. لأن شعار القبيلة هو «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوما». وقد ظهر الأثر السئ للعصبية عند لقاء المسلمين بالمشركين فى القتال فلعبت العصبية دورها فى ارتداد بعض أبناء الأسرة وانضمامهم إلى ذويهم من المشركين. ذلك أن بعض أفراد العشيرة الواحدة يحارب فى صفوف المسلمين، بينما البعض الآخر مع المشركين. وقد نهى الإسلام عن ذلك بشدة فى قوله تبارك وتعالى : «.... لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أوأبناءهم أو إخوانهم أو عشريتهم....»[٢].

كان يتربع على قمة القبيلة الشيخ أو السيد، أو كما كان يلقب فى بعض الممالك بالملك أو الأمير[٣]. كان شيخ القبيلة يجب أن يتصف بالشجاعة والجود والكرم والغنى وسداد الرأى والتجربة وكبر السن. وإلى جانب ذلك كان على شيخ القبيلة أن يتحلى بأصالة النسب إلى القبيلة، فلم يكن من المعقول أن يتولى أمر القبيلة ورئاستها إلا أحد أبنائها من ذوى الخبرة والقدم ورجاحة العقل، ذلك أن سيد القبيلة كان يختار بقوة عصبيته وكثرة أبنائه وأتباعه فى

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص ١٨٢.

(٢) سورة المجادلة : آية (٢٢).

(٣) استعمل هذا اللقب عند مملكتى الحيرة والغساسنة جريا على عادة الفرس والروم.

أنظر : محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام، ص ٣٥-٣٦.

القبيلة. يقول ابن خلدون : «وذلك أن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبية فلابد فى الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع»(١). وفضلا عن ذلك كان لشخصية سيد القبيلة أثر بالغ فى قوة القبيلة وبقائها أو فى ضعفها وفنائها. فنجد قبيلة تظهر فجأة فتجتاح القبائل الأخرى وتتزعمها بقوة رئيسها، ونجد قبيلة تذبل وتنهار لأن زعيمها ضعيف الشخصية فتضعف قبيلته بضعفه وتتصدع وينتهى أمرها(٢).

على الرغم من تولى رئاسة القبيلة أكبر أبناء سيدها بعد وفاته، إلا أن زعامة القبيلة لم تكن وراثية بالضرورة، لأن استيفاء الشروط وتوفر الصفات الخاصة بتلك السيادة كان يتقدم على مسألة الوراثة وقد عبر عن ذلك عامر بن الطفيل، أحد سادات العرب بقوله(٣) :

وأنى وإن كنت ابن سيد عامر	وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة	أبى. الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى	أذاها وأرمى من رماها بمنكبى

كان سيد القبيلة يضطلع بعدة مهام، لعل من أهمها قيادة القبيلة فى الحرب، وتقسيم الغنائم، واستقبال الوفود وعقد المحالفات وإقامة الضيافات ودفع الديات باسم القبيلة. كما كان يقضى فى مسائل الزواج والطلاق، ويفصل فى قضايا النزاع على الماء والكلأ، فضلا عن بذل النفس والنفيس فى سبيل وحدة القبيلة وتماسكها ورفعة شأنها على الدوام.

أما حقوق رئيس القبيلة فكانت تتمثل فى إحترام رأيه وتوقيره، والامتثال لرأيه وطاعته فى الحروب. كما كان يستولى على ربع الغنيمة والصفايا، فضلا

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص ١٣٢.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص ٢١٥.

(٣) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص ٣٢٦.

عن الحكم والنشيطة والفضول يقول عبدالله بن عنمة الضبى فى رثاء بسام بن قيس سيد شيبان[١].

لـك المربـاع منـها والصفايـا　　　وحكمك والنشيطة والفضول[٢]

لم يكن لشيخ القبيلة سلطة مطلقة على أبنائها، إنما كان سلطانه معنويا مستمدا من قوة عصبيته وكثرة أتباعه في القبيلة، فكان هناك مجلس القبيلة، الذى يتألف من أقوى زعماء البطون والعشائر، وله سلطة الفصل فى الأمور الهامة التى تمس حياة القبيلة ومصير أبنائها.

كان مجلس القبيلة يتكون من الخطيب[٣]، لسان القبيلة الذى ينبرى للدفاع عنها، والشاعر الذى يمدح أبناءها ويهجو أعداءها ويتغنى ببطولاتها، ولذلك كانت القبيلة تفخر بنبوغ شعرائها، وتعتز بهم وتتغنى بأشعارهم التى كانوا يعتقدون أنها وحى يوحى به إلى الشاعر فعبروا عن ذلك بقولهم (شيطان الشاعر)[٤]. وبلغ من تأثير الشعراء على أبناء القبيلة، أن الواحد منهم كان يستطيع أن يلهب الشعور ويذكى نار العصبية، فالشعر الخاص بالفخر والحماسة والرثاء والهجاء كان مرتبطا ارتباطاً وثيقاً بالحروب التي دارت بين العرب قبل الإسلام. وكان لمكانة الشاعر بين أبناء القبيلة أن الرجل إذا كان شاعراً شجاعاً كاتباً رامياً أطلقوا عليه اسم «الكامل»[٥]. وإلى جانب الخطيب والشاعر كان هناك الكاهن والعراف، فكان لكل قبيلة كاهن أو عدة كهان تلجأ إليهم لاستشارتهم فى الأمور العظيمة، فهم يعتقدون أن للكاهن تابعاً من الجن يطلعه على كل شئ فى الحاضر والمستقبل إلى جانب قدرته على دفع الأذى عن شخص وتوجيه الشر إلى آخر يراد إيذاؤه. وكان لاعتقاد أبناء القبائل بأن

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٥، ص ٢١٣.

(٢) المرباع : ربع الغنيمة، الصفايا : ما يصطفيه سيد القبيلة من خيار الغنائم، الحكم : ما يستولى عليه الفارس المبارز قبل لقاء الجيشين فالحكم فيه لسيد القبيلة، النشيطة : ما يصيبه الجيش قبل لقاء العدو، الفضول : ما فضل بعد تقسيم الغنيمة ولا يقبل القسمة.

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، المكتبة المرتضوية، جـ١ ، ص ٢١٤.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٦، ص ٣٤١.

(٥) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص ٢١٧.

ما يصدر عن الشاعر والكاهن هو ضرب من ضروب الوحى. الذى يأتيهم بطريق الآلهة المتصلين بها، أن زعموا بأن الوحى الذى يوحى إلى سيدنا محمد ﷺ هو من قبيل الكهانة وقول الشعر. فنزلت الآيات البينات : ﴿فلا أقسم بما تبصرون. وما لا تبصرون. إنه لقول رسولٍ كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين﴾[١]. أما العراف فكان فى منزلة أقل من الكاهن لأنه لا يوحى إليه بشىء، بينما هو على درجة عالية من الذكاء والتفرس فى التجارب والأمور. فهو يعرف الأشياء عن طريق الفراسة والقرائن وذلك برؤيته الثاقبة لنبرات الأصوات وملامح الأشخاص وحركاتهم عند التكلم[٢]، ومن أشهر عراف القبائل العربية، رباح بن عجلة – عراف اليمامة – والأبلق الأسدى، عراف نجد[٣]. وكان القصاص أحد أعضاء مجلس القبيلة البارزين فهو يقص على أبناء القبيلة قصص البطولة والشرف ليحمسهم ويشجعهم على مواجهة الأعداء والتصدى لهم وعلى الصبر فى القتال. أما عموم مشيخة القبيلة فكان يتألف من زعماء العشائر والبطون وكبار مشايخهم من ذوى التجربة والكفاية الذين يضطلعون بالفصل فى مسائل المواريث والديات والمنازعات والمناوشات التى قد تثار بين أفراد القبيلة.

لما كانت القبائل فى بادية العرب تحيا حياة سياسية فطرية تقوم على الاستعداد الدائم للغزو والإغارة، لذا كان لزعماء المشايخ القبلية دور خطير فى كيان القبيلة ومصيرها فبحكمتهم وكفايتهم تقرر الأمور، ولعل خطبة من أحد زعماء مجلس القبيلة تثير حربا لقبيلته أو الحلف الذى ينتمى إليه لأنهم كانوا أصحاب جاه وسيادة فى قومهم.

كان مجلس القبيلة يجتمع فى النادى[٤]، وهو المكان الذى كان يجلس فيه القوم ويقضون فى أمورهم. وكان هذا المجلس يجتمع كلما دعت الضرورة

---

(١) سورة الحاقة : الآيات (٣٨-٤٣).

(٢) أنظر : الفصل التاسع (العادات والتقاليد).

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١ ، ص ٢١١-٢١٢؛ المسعودى : مروج الذهب، جـ١ ، ص ٤١٥-٤١٧.

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٥، ص ٢١٠.

إلى ذلك، فلم يكن له وقت محدد لانعقاده، على أن القبيلة كلها كانت تتجمع تحت لواء واحد فى حالة الاستعداد للحرب مع قبيلة أخرى ويظل مجلس القبيلة منعقداً بصفة دائمة من أجل التجهيز للقاء العدو، ولإغراء القبائل الأخرى بالإنضمام إليها لتتقوى بهم. وهنا يتجلى المظهر السياسى للقبائل العربية فى حالة الحرب، حيث يشعر أفرادها بحاجتهم إلى التضامن والتماسك ونبذ الخلافات الداخلية فيما بينهم. فالتكتل ضرورة من أجل القوة والبقاء، ولذلك تكتلت القبائل فى كتل كبيرة هى الأحلاف[١].

وفى ذلك يقول البكرى : «فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلافات والفرقة وتنافس الناس فى الماء والكلأ والتماسهم المعاش فى المتسع وغلبة بعضهم بعضا على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف، انضم الذليل منهم إلى العزيز وحالف القليل منهم الكثير»[٢]. فالمناذرة كانوا يتحالفون مع بعض القبائل للاستعانة بهم على الغساسنة وكذلك كان يفعل هؤلاء للاستعانة بهم على المناذرة. كما جرت عادة القبائل الضعيفة قليلة العدد أن تلجأ إلى القبائل الكبيرة تلتمس منها العون والمساعدة، فدخلت بعض قبائل بادية العرب فى كنف ورعاية دولة حمير ببلاد اليمن[٣].

كانت الأحلاف تمثل العصبية الكبيرة التى تشمل القبائل والعشائر المتحالفة بالنسب أو الجوار[٤]، وهى المجتمع القبلى الكبير الذى تنصهر فيه القبائل من أجل المؤازرة والحماية والدفاع المشترك، فبمجرد انعقاد الحلف يرتبط مصيرها وكيانها ووجودها بالمتحالفين معها ويصير لزاماً التضامن فى الحروب والتعاون، فالكل دائماً متأهب لتلبية نداء حليفه[٥].

---

(١) الحلف : من كلمة الحلف بمعنى اليمين، الذى كان يقسمونه فى عهودهم، وكانوا يغمسون أيديهم فى أثناء عقد أحلافهم فى طيب أو دم، ويقولون الدم الدم الهدم الهدم.

أنظر : الجاحظ : كتاب الحيوان، القاهرة، ١٣٥٧هـ، جـ٤، ص ٣.

(٢) البكرى : معجم ما استعجم، جـ١، ص ٥٣.

(٣) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية، دار الفكر العربى، ص ١٢.

(٤) ابن خلدون : المقدمة، ص ١٢٩.

(٥) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٣، ص ٣٣٦-٣٣٧.

على الرغم من كون الزواج يمثل إحدى العلاقات الاجتماعية، إلا أنه كان إحدى المظاهر السياسية للقبيلة العربية قبل الإسلام، ذلك أن المصاهرة بين القبائل والعشائر المختلفة كان بمثابة عقد الأحلاف بينها، إذ يؤدى إلى تقاربها وتآلفها وارتباط مصيرها ببعضها البعض لذلك كان زعماء القبائل والعشائر يهتمون اهتماماً كبيراً باختيار زوجاتهم من الأسر الكبيرة ومن القبائل القوية ليحصلوا بذلك على سند قوى فى الكيان السياسى.

كان من أشهر الأحلاف التى عقدت بين القبائل العربية قبل الإسلام، حلف الرباب الذى انعقد بين خمس قبائل هى ضبة وثور وعكل وتميم وعدى[١]، وحلف الأحلاف الذى انعقد بسبب الخلاف بين بنى عبد الدار وبين أبناء أعمامهم بعد وفاة قصى بن كلاب، فتعاقد بنو عبد الدار مع بنى مخزوم وبنى سهم وبنى جمح وبنى عدى بن كعب وتعاهدوا عند الكعبة على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا وسموا الأحلاف[٢]، وكان من أهم الأحلاف التى ورد ذكرها كثيراً عند مؤرخى الإسلام، حلف الفضول، الذى عقد بين تيم بن مرة وزهرة وهاشم من قرش، وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم وعلى ألا يخذل بعضهم بعضا، فأطلقت قريش على هذا الحلف اسم حلف الفضول الذى وصف بأنه أكرم حلف سمع به وأشرفه فى العرب، قال فيه رسول الله ﷺ : «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت، تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها وألا يعز ظالم مظلوما»[٣].

كانت بعض القبائل العربية تدخل فى أحلاف ذات، طابع خاص يختلف عن التحالفات القبائلية، فحرصت بعض هذه القبائل على الدخول فى رعاية إحدى الدول الكبرى المعاصرة لها، من أجل الدفاع والحماية والتصدى للاعتداءات الخارجية من القبائل المجاورة فتحالف أمراء مملكةالحيرة مع الفرس، وأقام الغساسنة تحالفاً مع الروم فى مقابل أن تقوم الممالك العربية

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٥، ص ١٤١.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص ١٣٧؛ المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص ٣٢٨.

(٣) ابن هشام : المصدر السابق، جـ١، ص ١٣٨-١٣٩.

بتأمين سلامة حدود تلك الدول من غارات الأعراب والعشائر، التى كثيراً ما سببت لها القلاقل وعدم الاستقرار. ولا شك أن اتفاقيات الدفاع المشترك بين الدول الكبرى وبين زعماء القبائل العربية كانت تعود، بالنفع على تلك الدول، إذ أدت لها خدمات جليلة، فسهلت لها أمر ضبط الأعراب واجهاض غاراتهم والسيطرة عليهم. كما وفرت عليها مهمة التصدى للبدو وتعقبهم، ومن ناحية أخرى أدت هذه الأحلاف إلى زيادة الفرقة والنزاع والخصومة بين العرب بعضهم البعض، مما كان له أسوأ الأثر فى قيام الحروب بينهم وضعفهم جميعاً لصالح الدول الكبرى. ويعلق الدكتور جواد على، على ذلك بقوله : «وما كان فى وسع الحبش ولا الفرس الاستيلاء على العربية السعيدة لولا هذا الانقسام الداخلى المؤسف والنزاع بين الرؤساء»[1].

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص ٢٢٧.

٢ - أيام العرب

أدت الفرقة السياسية فى مجتمع ما قبل الإسلام إلى حتمية النزاع واشتعال الحروب بين القبائل، فقامت بينها حروب طويلة تكاد لا تنتهى وكانت الحروب والمناوشات التى تقع بين القبائل العربية تعرف بالأيام أو أيام العرب[١]، وقد سميت بذلك لأنها كانت تقع وتستمر طوال النهار وتتوقف ليلا، والعادة أن يذكر اسم الوقعة بعد كلمة يوم. وكانت تلك الأيام تعنون باسم الموضع الذى حدثت فيه المعركة أو الشئ البارز أو اسم القبائل التى اشتركت فيها[٢]. ولعل من أهم أسباب قيام تلك الحروب بين القبائل العربية، النزاع على الماء والمرعى والماشية، والأخذ بالثأر والرهان فى السباق، وإبراز الشجاعة والافتخار بالبطولة، خاصة إذا ما تخلل المعارك قول الشعر فى الفخر والحماسة. وكان عسف سادة القبائل القوية فى طلب الإتاوة المفروضة على القبائل الضعيفة أحد العوامل فى اشتعال تلك الحروب. فعند ظهور شخصية قوية فى القبائل المفروض عليها الإتاوة، تهب للخلاص من سيطرة الأقوياء وتقطع الإتاوة فتشتعل الحروب.

لما كانت الطبيعة الصحراوية لجزيرة العرب تتصف بالقسوة بسبب ندرة الماء وضآلة الموارد، فقد اتسمت حياة الأعراب فى البادية بعدم الاستقرار والتنقل والارتحال، وكثرة الصراع والتشاحن بينهم، كما أصبحت الغارات للاستيلاء على قطعان الماشية وممتلكات الغير من العادات الطبيعية التى انتشرت بين البدو. كما أصبح السلب والنهب لا يعد جريمة فى نظر البدوى، ومن هنا فقد اتسمت حياة البدوى بالقسوة والبأس الشديد، وصارت كل قبيلة متحفزة دائماً من أجل الغزو والإغارة، ومن أجل حماية منازلها وآبارها ومراعيها، ذلك أن العرب اعتبروا أرض المراعى الصحراوية ملكية عامة للقبيلة

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، دار المعارف بالقاهرة، جـ١٦، ص ١٣٩.

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص ٣٤٥.

كلها وقد أدى التفاوت الاجتماعى الكبير بين الغنى الفاحش والفقر المدقع إلى حقد الفقراء وبغضهم للأغنياء. وباتوا يتحينون الفرص المناسبة للإغارة عليهم وسلب ونهب ما يمكن أن تصل إليه أيديهم، ومن هؤلاء انتشرت العصابات التى اتخذت من الغزو والإغارة والفتك وقطع الطرق وسائل للمعيشة بعد أن سدت فى وجوههم سبل الحياة، فكانوا يتربصون فى المناطق الوعرة التى تقع على طرق التجارة المعروفة للانقضاض على القوافل وسلب كل ما تحمله من أموال ومتاع وأشياء ثمينة.

أما الأخذ بالثأر الذى كان يعد من أهم أسباب أيام العرب فيرجع إلى اعتقاد أبناء القبيلة أنها مسألة شرف وحياة وكيان القبيلة ومكانتها بين القبائل الأخرى فمعالجة القتل بالقتل كانت تعتبر الطريقة الشرعية لأن شعارهم الدم لا يغسله إلا الدم، وذلك لعدم وجود قانون يستند إليه أو حكومة تنظم إقامة الحدود وترعى الأمن وعلى ذلك كان الأخذ بالثأر أمراً مقدساً وعقيدة راسخة فى نفوس رعايا القبيلة وكان على الثائر إدراك ثأره أو الموت دونه. وفى هذه الحالة يظل واجب الثأر ينتقل بطريقة وراثية بين الأبناء والأحفاد[١] مهما طال الزمن، فحدث أن استمرت الحروب بين قبيلتى بكر وتغلب أمداً طويلا طلبا للثأر، وهى ما عرفت بحرب البسوس وكان على الثائر أن يبتعد عن كل ملذات الحياة حتى يدرك ثأره ويغسل شرف القبيلة. فلا يقرب النساء ولا يتطيب ولا يتدهن ولا يشرب الخمر ولا يقول الشعر إلا فى هجاء أو رثاء. وقد عمق قداسة طلب الثأر احتقار العرب، أخذ الدية واعتباره لوناً من ألوان الخوف وصورة من صور الجبن وعدم المقدرة وقلة الحيلة على مواجهة القتال، فى حين شجعوا القتل بالقتل وإراقة الدماء والأخذ بالثأر.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأيام لم تكن كلها حروبا بالمعنى المعروف للحرب، فإن منها ما كان مجرد مناوشات أو مهاترات لا يسقط فيها إلا بضعة رجال ومنها أيام وقعت فى عدة سنين تثار فيها الحرب حينما تتجدد

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٥، ص ١٧٥.

المناسبات وتنتهي بتسوية يتفق فيها على دفع ديات القتلى وإنهاء المشكلات سبب الإثارة. فإذا ما انتهت بقيت القبيلة المنتصرة تفتخر بيومها وأيامها وأسماء أبطالها الذين رفعوا اسمها عالياً، وطالما جر هذا التباهي والتفاخر القبائل إلى حروب جديدة[١].

على الرغم من صعوبة تصنيف الحروب التي وقعت بين القبائل العربية وتنظيمها على أساس تاريخي، إلا أنه يمكن ترتيبها على نهج تقسيم العرب إلى طبقات جنسية وأنساب إذ كان مبعث الحروب الخلاف في الجنس أحياناً وفي أصول القبائل أحياناً أخرى، وعلى ذلك نبدأ بالأيام التي وقعت بين القحطانيين بعضهم البعض، يليها الحروب التي دارت بين القبائل العدنانية فيما بينها، ثم الأيام التي قامت بين القحطانية والعدنانية.

أ) أيام القحطانيين فيما بينهم :

كان من أشهر أيام القحطانيين فيما بينهم تلك الأيام التي دارت بين المناذرة والغساسنة ومن أهمها يوما عين أباغ[٢]، ومرج حليمة[٣]. إذ وقعا بين رئيسين مشهورين من القحطانيين هما المنذر بن ماء السماء والحارث بن جبلة الغساني. ويرجع السبب في إشعار تلك الحروب بين الطرفين إلى تحالف المناذرة مع الفرس ومعاونتهم ضد الروم وحلفائهم من الغساسنة. فانتقلت عدوى الحروب من الدولتين الكبيرتين إلى الحليفين العربيين، فلما انتصر الغساسنة على المناذرة في يوم أباغ وقتل المنذر بن ماء السماء[٤]، خلفه ابنه المنذر وتلقب بالأسود، وسار على رأس أبناء المملكة طالباً ثأر أبيه فنزل بمرج

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص ٣٤٧.

(٢) عين أباغ : واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص٦١.

(٣) مرج حليمة : يقع بالقرب من قنسرين على الطريق الواصل بين حلب وحمص، وسمي بذلك لقيام حليمة بنت الحارث بن جبلة بدور كبير في تحميس رجال قبيلتها على القتال والانتصار في ذلك اليوم. أنظر ياقوت : المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٩٦.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص ٣٢٦؛ النويري : نهاية الأرب، جـ١٥، ص٤٣.

حليمة بالقرب من قنسرين[١] والتقى هناك بالحارث بن جبلة وأصحابه، فلما دار القتال بين الطرفين انتصر الغساسنة وقتل المنذر بن المنذر ملك الحيرة وأسر كثير من أصحابه[٢]، بينما فر هارباً من نجا منهم، وقد صور لنا الشعراء ماحدث في يومي عين أباغ ومرج حليمة أبلغ تصوير فقال عبدالرحمن بن حسان :

هن أسلاب يوم عين أباغ   من رجال سقوا بسم زعاف

وقال النابغة الذبياني[٣] :

يوما حليمة كانا من قديمهم   وعين باغ فكان الأمر ما أتمرا

وقال أيضاً ابن الرعلاء الضبابي[٤] :

كم تركنا بالعين عين أباغ   من ملوك وسوقه أكفاء

أمطرتهم سحائب الموت تترى   إن في الموت راحة الأشقياء

وكان يوم البردان[٥] من الأيام التي دارت بين كندة وقضاعة[٦] من القحطانيين، وذلك بسبب إغارة كندة وربيعة على البحرين بقيادة حجر بن عمرو بن معاوية الكندي (جد امرئ القيس)، فلما علم بذلك زياد بن الهبولة - أحد ملوك غسان من قضاعة - سار على رأس أصحابه إلى المواضع التي كانت تقطنها القبيلتان واستولى على أموالهم وسبى حريمهم ومنهن هند بنت ظالم زوج حجر، فعاد حجر بن عمرو على أثر ذلك من إغارته لملاقاة زياد،

---

(١) قنسرين : مدينة بالشام بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٤٠٤.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١ ، ص ٣٢٦.

(٣) ياقوت : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٦١.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٣٢٦.

(٥) البردان : موضع باليمامة به نخل؛ ياقوت : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٣٧٦.

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٣٠١؛ الأصفهاني : الأغاني، جـ١٥ ، ص٨٢.

وصحبه عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان وعمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، فأدركوا زيادا بالبردان، وطالبوه برد ما أصابه منهم – فردها عليهم – غير أن عمرو بن أبي ربيعة صرع فحلا لزياد بن الهبولة، فحدث نزاع بين الطرفين توعد فيه عمرو زيادا قائلا : «ولا والله لا تبرح حتى أروى سناني من دمك»[١]. وما لبث أن انضم حجر بن عمرو إلى عمرو وأقبلوا جميعاً حتى انتهوا إلى عسكر بن الهبولة فاقتتلوا قتالا شديداً، فانهزم أصحاب ابن الهبولة، وقتلوا قتلا ذريعا، واستولى رجال حجر على ما كان بأيديهم من الغنائم والسبي. أما هند زوجة حجر التي أفصحت عن إعجابها بزياد بن الهبولة وحبها له، فقط ربطها زوجها في فرسين ثم ركضهما حتى قطعاها وأنشد فيها قائلا :

ان من غره النساء بشئ ... بعد هند لجاهل مغرور

حلوة العين والحديث ومرّ ... كل شئ أجن فيها الضمير

كل انثى وإن بدا لك فيها ... آية الحب – حبها خيتعور[٢]

ومن أشهر أيام القحطانيين يوم الكلاب الأول[٣]، الذي حدث بين شرحبيل بن الحارث بن عمرو بن حجر وبين أخيه سلمه بن الحارث بسبب الوشاية بين الأخوين واختلافهم وتحاسدهم، فبلغت العداوة أشدها وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لأخيه الجموع وزحف إليه بالأتباع والجنود فسار شرحبيل ومن معه حتى نزلوا «الكلاب»[٤]، وأقبل سلمه في من معه فاقتتل القومان قتالا شديدا وثبت بعضهم لبعض، فلما كان آخر النهار، نادى منادى شرحبيل : من أتاني برأس سلمه فله مائة من الإبل، ونادى منادى سلمة بنفس النداء، فاشتد القتال حينئذ وكانت الغلبة لسلمة وأتباعه ومضى

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص ٣٠٢.

(٢) خيتعور : كل شئ يتلون ولا يدوم على حال.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ١، ص ٢٣١؛ الأصفهاني : الأغاني، جـ١١، ص٦٠.

(٤) الكلاب : اسم ماء بين الكوفة والبصرة؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٧٢.

شرحبيل منهزماً فتبعه حبيب بن عتيبة ذو السنينة (كانت له سن زائدة) فالتفت إليه شرحبيل وضربه على ركبته فقطع رجله وكان لذى السنينة أخ لأمه اسمه عصيم بن مالك ويكنى أبا حنش، التفت إلى شرحبيل قائلاً : «قتلنى الله إن لم أقتلك» وحمل عليه حتى أدركه، فقال : يا أبا حنش اللبن اللبن (يريد الدية) فرد أبو حنش قائلاً : «قد هرقت لبنا كثيراً»[١]، ثم طعنه وألقاه عن فرسه ونزل إليه فأخذ رأسه وبعث بها إلى سلمة فلما رأى سلمة رأس أخيه بين يديه جزع، وظهرت الندامة فى وجهه ولم يتمالك فبكى، ولما علم معد يكرب - أخو شرحبيل - بما جرى لأخيه قال فى رثائه :

إن جنبى عن الفراش لنابى كتجافى الأسر فوق الظراب[٢]
من حديث نما إلى فما تر قأ عينى ولا أسيغ شرابى
مرة كالزعاف اكمتها النا س على حرملة[٣] كالشهاب

أما يوم اليحاميم[٤] فحدث بين قبيلتى جديلة والغوث وكلاهما من طئ بسبب مقتل أسبغ بن عمرو بن لأم، قائد بنى جديله على يد أحد رجال الغوث وهو أبو سروه السنبسى وتمثيله بأذنيه وافتخاره بذلك قائلاً :

نخصف بالآذان منكم نعالنا ونشرب كرها منكم فى الجماجم

فأثار ذلك قبيلة جديلة وتجهزت للحرب، وأقبلت قبائل الغوث كل قبيلة وعليها رئيسها، وتزاحفوا، واقتتلوا فانهزمت جديلة وفر رجالها هاربين ولم تبق لها بقية للحرب بعد اليحاميم فدخلوا بلاد كلب فحالفوهم وأقاموا معهم[٥].

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٥٣.

(٢) الظراب : جمع ظرب، وهو ما نتأ من الحجارة.

(٣) ملة : الجمر

(٤) اليحاميم : ماء على طريق مكة؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص ٤٣١.

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٣٨٨.

وتعتبر حروب الأوس والخزرج[(١)] من الوقائع التى دارت بين القحطانيين فيما بينهم، ذلك أن سيل العرم لما حدث خرجت الأزد من اليمن مع رؤسائهم إلى تهامة ثم هاجروا إلى النواحى الشمالية منها ونزل الأوس والخزرج بنواحى يثرب فعاشوا بين اليهود بالضواحى والقرى فى شظف من العيش وهوان وإذلال من اليهود إذ حكموهم وتحكموا فيهم وألزموهم آداء الخراج.

وظل الحال على ذلك حتى سار مالك بن العجلان الخزرجى إلى الغساسنة بالشام ونزل على عبيد بن سالم بن مالك بن سالم المكنى بأبى جبيلة، أحد أشرافهم واستجاره على اليهود، فأجاره وجاء إلى المدينة وقتل عظماء اليهود ثم عاد إلى الشام بعد أن مكن للأوس والخزرج بيثرب[(٢)].

وعاش الحيان فى وئام ووفاق حتى حدثت بين الطرفين عدة حروب[(٣)] أكثرها مناوشات ومنازعات وقعت بسبب أمور غير ذات قيمة لا تستحق أن تثار بسببها حرب، ولعل من أشهرها حرب سمير[(٤)] التى وقعت بسبب رجل من ذبيان اسمه كعب الثعلبى كان نازلا فى جوار مالك بن عجلان الخزرجى وقد تباهى وتفاخر بحماية مالك، فأدى به ذلك إلى مقتله على يد سمير بن يزيد من الأوس فثارت ثائرة الخزرج وطالبوا الأوس بإرسال سمير إليهم إلا أن الأوس رفضوا ذلك وعرضوا دفع نصف الدية على اعتبار أن المقتول كان حليفا وليس من أهل القبيلة، غير أن مالك بن العجلان اعتبر ذلك العرض إهانة لشرفه ومكانته وأصر على أخذ دية كاملة. فلما اختلف الحيان وجمع بعضهم البعض زحف مالك بمن معه من الخزرج وزحفت الأوس بمن معها من حلفائها من قريظة والنضير واقتتلوا قتالا شديدا حتى حجز الليل بينهم، وظل الطرفان

---

(١) الأوس والخزرج : يرجع نسبهما إلى حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس ابن ثعلبة بن مازن بن الأزد.

أنظر : ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص ١١.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٤٠٢.

(٣) الأصفهانى : الأغانى، جـ٣، ص ١٨.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ١، ص ٤٠٢-٤٠٣.

يتعاودان القتال في أمر سمير وكثرت أيامهم حتى أصلح بينهم ثابت بن المنذر بن حرام.

ومن الوقائع التي دارت بين الأوس والخزرج حرب كعب بن عمرو المازني وهو رجل من الخزرج قتل على يد رجل من الأوس من بني جحجبي فثار أخوه عاصم بن عمرو وأرسل إلى بني جحجبي يؤذنهم بالحرب وسرعان ما تلاقى الطرفان بالرحابة وهو حصن يثرب وانتهى القتال بهزيمة الأوس[١].

كذلك دارت الدائرة على الأوس في حرب حاطب والتي وقعت عند الحارث بن الخزرج بسبب إهانة الخزرج لرجل ذبياني كان قد نزل ضيفا على حاطب بن قيس الأوسي، أحد أشراف الأوس. وقد ترتب على يوم حاطب وتغلغل العداوة في النفوس عدة حروب فمنها يوم الربيع وقد اقتتل فيه الطرفان قتالا شديدا حتى كاد يفني بعضهم بعضا فانهزمت الأوس، وتبعها الخزرج حتى بلغوا دورهم وكانوا قبل ذلك إذا انهزمت إحدى الطائفتين فدخلت ديارها كفت الأخرى عن اتباعها فلما تبع الخزرج الأوس إلى دورهم طلبت الأوس الصلح فامتنعت بنو النجار من الخزرج عن إجابتهم فحصنت الأوس، النساء والذراري في الآطام وهي الحصون فكفت عنهم الخزرج[٢].

ومن أشهر أيام الأوس والخزرج التي وقعت قبيل ظهور الدعوة الإسلامية يوم بعاث[٣] الذي كان لليهود دور كبير في قيامه، ذلك أن الأوس كانت قد عقدت تحالفا مع بعض قبائل اليهود من أجل المصالح المشتركة، فلما بلغ الخبر الخزرج، اعتقدوا أن ذلك التحالف موجه ضدهم فبعثوا إلى اليهود لاستيضاح الأمر فأكدوا لهم أنه لمجرد الدفاع والحماية فيما بين الطرفين وأنه ليس موجها ضد أحد إلا أن الخزرج طلبوا من اليهود إرسال بعض الرهائن تكون في أيديهم للدلالة على حسن النوايا. فبعث إليهم اليهود بأربعين غلاما

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١ ، ص ٤٣.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٤١١-٤١٣.

(٣) بعاث : من أعمال قريظة بيثرب؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ١ ، ص ٤٥١.

من بنى قريظة وبنى النضير ففرقتهم الخزرج فى دورهم، وظل الحال على ذلك إلى أن أثار عمرو بن النعمان البياضى قومه بياضة - قبيلة فى الخزرج - وحثهم على الاستيلاء على منازل اليهود قائلا : «إن أباكم أنزلكم منزل سوء بين سبخة، أرض ذات ملح، ومفازة - أرض لا ماء بها - وأنه والله لا يمس رأسى غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل»[١]، فوافقه قومه على ذلك الرأى وقرروا أن يرسلوا إلى اليهود إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم وإما أن نقتل الرهن فاستقر اليهود على الخروج. إلا أن كعب بن أسيد القريظى حملهم على العدول عن ذلك قائلا : «يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الغلمان ما هى إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته حتى يولد له مثل أحدهم»[٢]. فاجتمع رأيهم على ذلك، فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوهم. فثارت اليهود واجتمعوا إلى كعب بن أسيد، وتآمروا أن يعينوا الأوس على الخزرج انتقاماً لما حدث، فأرسلوا إلى سائر الأوس فى الحرب مجددين العهود معهم على المؤازرة والتناصر فأجابهم الأوس إلى طلبهم. ولما بلغ الخبر الخزرج أجمعوا على تولية عمرو بن النعمان البياضى أمر حربهم ولبث الأوس والخزرج يتجهزون للحرب نحو أربعين ليلة وأرسلت الخزرج إلى حلفائهم من أشجع وجهينة، واستدعت الأوس قبيلة مزينة. وكان اللقاء عند بعاث فاشتبك الطرفان فى قتال شديد تبادلا فيه النصر والهزيمة حتى انتهى بهزيمة الخزرج[٣]. ويعد يوم بعاث اخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج فقد جاء الإسلام فألف بين قلوبهم واتفقت الكلمة واجتمعوا على نصرة رسول الله ﷺ[٤].

وقال قيس بن الخطيم الظفرى الأوسى مفتخرا[٥] :

(١ ، ٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٤١٧.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ١، ص ٤١٨.

(٤) السمهودى : كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ، القاهرة ١٣٢٦هـ، جـ١، ص ١٥٢.

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٤١٩.

ويوم بعاث أسلمتنا سيوفنا إلى حسب في جذم[1] غسان ثاقب
قتلناكمو يوم الفجار وقبله ويوم بعاث كان يوم التغالب

ولما عاد أبو قيس بن الأسلت وهو رئيس الأوس في يوم بعاث وأحد شعراء العرب المشهورين إلى امرأته سالماً من تلك الحرب التى مكث فيها أشهرا حتى شحب لونه وتغير، دفعته وأنكرته، فقال :

استنكرت لونا له شاحبا والحرب غول ذات أوجاع
من يذق الحرب يجد طعمها مرا وتتركه بجعجاع[2]
قد حصت البيضة[3] رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع[4]

ب) أيام العدنانيين فيما بينهم :

كانت حرب البسوس التى دارت بين بكر وتغلب ابنى وائل من أشهر أيام العدنانيين، التى يزعم المؤرخون أنها استمرت أربعين سنة بينما لم تقع فيها سوى عدة أيام، هى يوم النهى – ماء لبنى شيبان – (لتغلب على بكر)، ويوم الذنائب موضع على طريق البصرة إلى مكة، (لتغلب على بكر)، ويوم واردات – موضع عن يسار طريق مكة إلى البصرة – (لتغلب على بكر)، ويوم عنيزة – موضع في اليمامة – (لتغلب على بكر)، ويوم تحلاق اللمم، سمى بذلك لأن بنى بكر حلقوا فيه جميعاً رؤوسهم (لبكر على تغلب).

يرجع سبب تلك الحرب إلى اعتداء كليب بن ربيعه، – سيد تغلب – على ناقة للبسوس خالة جساس بن مرة سيد بنى بكر وما ترتب على ذلك من نهوض جساس للثأر لكرامته وقتله كليبا، وتبادل الحيان الأخذ بالثأر فدارت بينهم حرب طاحنة أنهكتهم جميعا.

---

(١) يريد أنهم حققوا فخر انتسابهم إلى غسان.

(٢) الجعجاع : المكان الغليظ.

(٣) البيضة : ما يلبس فى الرأس عند الحرب، يريد أنها ألالت شعر رأسه من طول لبسها.

(٤) تهجاع : النومة الخفيفة.

كان وائل بن ربيعة الملقب بكليب قد تولى رئاسة الجيش فى بكر وتغلب، بعد أن قاد قومه إلى النصر على اليمن فى يوم خزاز[١]، جبل يقع فيما بين البصرة إلى مكة، فاجتمعت تحت رايته قبائل معد وألبسته تاجا وجعلته فى مقام الملوك، ثم ما لبث أن طغى واشتد بغيه وأصابه زهو شديد لما هو فيه من عزة، وانقياد معد له، حتى بلغ منه بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه، وإذا جلس لا يمر أحد بين يدهى إجلالا له، ولا يغير إلا بإذنه، ولا توقد نار مع ناره، ولم يكن بكرى ولا تغلبى يجير رجلا ولا بعيرا أو يحمى حمى إلا بأمره، وكان هو الذى ينزل القوم منازلهم ويرحلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره، وكان لا يرد حياض الماء أحد إلا بإذنه أو من إذن بحرب، وكان يحمى الصيد فيقول : «صيد ناحية كذا وكذا فى جوارى فلا يصيد أحد منه شيئا»، فضرب به المثل فى العز فقيل : «أعز من كليب بن وائل»[٢].

لماأراد كليب بن وائل الزواج عقد على إحدى فضليات النساء فى عصرها، جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان بن بكر، ولها أخ شهم فارس شديد الاعتداد بنفسه. وكان يلقب الحامى الجار. فحدث ذات يوم أن قال كليب لامرأته هل تعلمين على الأرض أمنع منى ذمة؟ فسكتت، ثم أعاد عليها الثانية والثالثة، فقالت : نعم. أخى جساس وندمائه (رفاقه على الشراب)، فسكت كليب، وبينما هى تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم إذ قال لها : من أعز وائل؟. قالت : أخواى جساس وهمام فنزع رأسه من يدها وخرج غاضبا. وكانت لجساس خالة اسمها البسوس بنت منقذ - من بنى تميم - وكان يضرب بها المثل فيقال : «أشأم من البسوس»، جاءت ونزلت على ابن أختها جساس ولها ناقة خوارة وهى الناقة الرقيقة الحسنة، ومعها فصيل لها، فلما خرج كليب غاضبا من قول زوجه جليلة رأى فصيل الناقة فرماه بقوسه فقتله.

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٣١٠.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٤٨.

ظل كليب بن ربيعة ينقم على أخوى زوجته حتى إذا مرت به إبل جساس وفيها ناقة البسوس رمى ضرعها بسهم. فاختلط دمها بلبنها وولت الناقة ولها عجيج حتى بركت بفناء البسوس، فلما رأتها صاحت : واذلاه.. فقال لها جساس : اسكتى لا تراعى، إنى سأقتل جملا أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالا[1].

لم يكتف كليب بن ربيعة بقتل ناقة البسوس، بل صار يتربص بأهل زوجته ويتعرض لهم، فلما مرت بعض قبائل بكر على نهى (غدير ماء) يقال له شبيث، منعهم كليب من الاقتراب منه، وقال : لا يذوقون منه قطرة، ثم مروا على نهى آخر يقال له الأحص فقال قولته السابقة، وكلما مروا بمواطن للمياه تصدى لهم ومنعهم الاقتراب منها، فساء ذلك جساسا وقال لكليب : طردت أهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشا.. فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون، فقال له : هذا كفعلك بناقة خالتى، فقال له : أو قد ذكرتها.. فعطف عليه جساس فطعنه برمح أرداه عن فرسه، فلما تداءمه الموت (أقبل عليه)، قال : يا جساس اسقنى من الماء فلم يأته بشيء، فالتفت إلى عمرو بن الحارث وهو ابن عم لجساس وقال له : يا عمرو، أغثنى بشربة ماء، فنزل إليه وأجهز عليه[2]، فضرب بذلك المثل فقيل :

المستجير بعمرو عند كربه . كالمستجير من الرمضاء بالنار

انصرف جساس إلى أهله راكبا فرسه وقد بدت ركبتاه فقال له أبوه : ما وراءك يا بنى؟ قال : ورائى أنى قد طعنت طعنة لتشغلن بها شيوخ وائل زمنا. قال : وما هى؟ أقتلت كليبا؟ قال : نعم، فقال له أبوه : إذن نسلمك بجريرتك ونريق دمك فى صلاح العشيرة.. والله لبئس ما فعلت، فرقت جماعتك، وأطلت حربها، وقتلت سيدها فى شارف[3] من الإبل، والله لا تجتمع وائل بعدها، ولا يقوم لها عماد فى العرب، ولقد وددت أنك وأخوتك كنتم متم قبل هذا، ما بى إلا أن تتشاءم بى أبناء وائل : فقال جساس :

---

(١) كان غلال فحل إبل كليب، لم ير فى زمانه مثله، وإنما أراد جساس بمقالته، التوعد بكليب.

(٢) الأصفهانى : الأغانى، جـ٥، ص ٣٧.

(٣) الشارف من النوق : المسنة الهرمة.

تأهب مثل أهبة ذى كفاح … فإن الأمر جل عن التلاحى

وأنى قد جنيت عليك حربا … تغص الشيخ بالماء القراح

مذكرة متى ما يصح منها … فتى نشبت بآخر غير صاح

تعدت تغلب ظلما علينا … بلا جرم يعد ولا جناح

فلما أن رأينا واستبنا … عقاب البغى رافعة الجناح[١].

فرد عليه أبوه قائلا :

فإن تك قد نيت على حربا … تغص الشيخ بالماء القراح

جمعت بها يديك على كليب … فلا كل ولا رث السلاح[٢]

لما علم مهلهل بقتل أخيه كليب، رجع إلى قومه فرآهم يعقرون خيولهم، ويكسرون رماحهم وسيوفهم، فقال : لقد ذهبتم شر مذهب، أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها، وتكسرون سلاحكم حين افتقرتم إليه، فانتهوا عن ذلك، وذهب إلى النساء فنهاهن عن البكاء وقال : استبقين للبكاء عيونا تبكى إلى آخر الأبد. ولماأصبح غدا إلى أخيه فدفنه. وقام على قبره يبكيه ويندبه، وهو يقسم بالوعيد لبنى مرج، حتى يئس قومه وقالوا : إنه زير نساء[٣]، وسخرت منه بكر، وبلغ ذلك المهلهل فانتبه للحرب، وشمر ذراعيه وجمع أطراف قومه ثم جز شعره وقصر ثوبه وتعهد على نفسه ألا يهتم بلهو، ولا يشم طيبا ولا يشرب خمرا ولا يتدهن حتى يقتل بكل عضو من كليب رجلا من بنى بكر بن وائل، وأقسم أمام قبر أخيه قائلا :

---

(١) التلاحى : المخاصمة، مذكرة : شديدة.

(٢) كَلّ : عاجز، كلّ السيف : لم يقطع. أنظر المعجم الوجيز : ص ٥٣٩.

(٣) زير النساء : الذى يكثر زيارة النساء ويحب مجالستهن، يريدون بها أنه لا طاقة له بالحرب.

خذ العهد الأكيد على عمرى   بتركى كل ما حوت الديار

وهجرى الغانيات وشرب كأسى   ولبسى جبة لا تستعار

ولست بخالع درعى وسيفى   إلى أن يخلع الليل النهار

وإلا أن تبيد سراة بكر   فلا يبقى لها أبدا آثار

لما تجهز مهلهل للحرب حث بنى تغلب على الأخذ بالثأر، وانطلق رهط من أشراف قومه حتى أتوا مرة والد جساس فقالوا له : إنكم أتيتم أمرا عظيما بقتلكم كليبا بناقة، وقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة ونحن نكره العجلة عليكم دون الإعذار. وأننا نعرض عليكم خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مرضاة : إما أن تحيى كليبا. أو تدفع إلينا قاتله جساسا فنقتله به، أو هماما فإنه كفء له، أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء لدمه»[1]، فقال لهم مرة : «أما إحيائى كليبا فلست قادرا عليه، وأما دفعى جساسا إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسا ولا أدرى أى بلاد قصد، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وكلهم فرسان قومهم، فلن يسلموه بجريرة غيره، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل فما أتعجل الموت، ولكن لكم عندى خصلتان، أما إحداهما فهؤلاء أبنائى الباقون، فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم. وأما الأخرى فإنى أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر الوبر»[2]. فغضب القوم من إجابته وقالوا : إنا لم نأتك لترزل لنا بنيك، ولا لتسومنا اللبن (يقصدون الدية) ورجعوا فاخبروا المهلهل فقال : والله ما كان كليب بجزور نأكل له ثمنا.

وقعت الحرب بين الحيين، وكانت وقعات مزاحفات يتخللها مغاورات، وكان الرجل يلقى الرجل والرجلان الرجلين، وأول وقعة كانت لهم على ماء يقال له النهى كانت بنو شيبان نازلة عليه، ورئيس تغلب المهلهل ورئيس شيبان الحارث بن مرة فكانت الدائرة على تغلب، ثم التقوا بالذنائب فظفرت

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ٥، ص ٤٣.

(٢) الأصفهانى : المصدر السابق، جـ٥، ص٥٢.

بنو تغلب ومنيب بكر بخسائر عظيمة ثم التقوا بواردات فظفرت بنو تغلب أيضاً، ثم التقوا بعنيزة فتكافأ الحيان، ثم التقوا بالقصيبات وكانت الدائرة على بكر وقتل في ذلك اليوم همام بن مرة أخو جساس، ثم أن تغلب جعلت تطلب جساسا أشد الطلب، فقال له أبوه : الحق بأخوالك بالشام فامتنع، فسيره سرا في خمسة نفر، وبلغ الخبر مهلهلا فندب ثلاثين رجلا من شجعان أصحابه فساروا مجدين فأدركوا جساسا فقاتلهم فقتل منهم خمسة عشر رجلا، وجرح جساس جرحا شديدا ومات متأثرا بجراحه، فلما قتل جساس أرسل أبوه مرة إلى مهلهل : إنك قد أدركت ثأرك وقتلت جساسا[١]، فاكفف عن الحرب، فلم يجب إلى ذلك غير أن مهلهلا عدل عن رأيه في آخر الأمر، بعد أن أنهكت الحروب القبيلتين فوجه إلى قومه وصية ضمنها رغبته في الإبقاء عليهم بعد ما فقدوه من الأموال والأنفس من جراء القتال الدائر بينهم وبين بني بكر فقال : «قد رأيت أن تبقوا على قومكم، فإنهم يحبون صلاحكم وقد أتت على حربكم سنون طويلة وما لمتكم فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها فكيف وقد فنى الحيان، وثكلت الأمهات، ويتم الأولاد، ورب نائحة لاتزال تصرخ في النواحي، ودموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن، وسيوف مشهورة، ورماح مشرعة، وأن القوم سيرجعون إليكم غدا بمودتهم ومواصلتهم، وتنعطف الأرحام حتى تتواصلوا أما أنا فما تطيب نفسي أن أقيم فيكم وأخاف أن أحملكم على الاستئصال وأنا سائر عنكم إلى اليمن»[٢]. ثم خرج حتى لحق بأرض اليمن. وملت جموع تغلب الحرب فصالحوا بكرا، ورجعوا إلى بلادهم وتركوا الفتنة ولم يحضر المهلهل صلحهم[٣].

على الرغم من الحروب الطويلة التي دارت بين قبائل ربيعة فيما بينها واستغرقت سنين طويلة، إلا أن ذلك لم يحل دون دخولها في حروب أخرى مع

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص ٣٢١.

(٢) ابن الأثير : المرجع السابق، جـ١، ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٤٨.

القبائل المجاورة ومن أشهرها يوم النباج وثيتل[١]، الذى دار بين بكر بن وائل من ربيعة وبين تميم، وسببه حب الغزو والإغارة، فقد خرج قيس بن عاصم المنقرى زعيم تميم على رأس بعض بطون تميم للإغارة على بكر بن وائل، وكان معه سلامة بن ظرب فى الأجارب - وهم مجموعة بطون فى تميم تتألف من مالك والأعرج بنو كعب بن سعد - فلما وصلوا إلى المواضع التى تنزل فيها بكر وجدوهم فى النباج وثيتل، وكانت بطون بكر فى ذلك اليوم هم قيم الله بن ثعلبة الملقب باللهازم، وذهل بن ثعلبة وعجل بن لجيم وعنزة بن أسد، فتنازع قيس وسلامة فى الإغارة ثم اتفقا على أن يغير قيس على أهل النباج، ويغير سلامه على أهل ثيتل، فلما وصل قيس إلى النباج سقى خيله ثم أراق ما مع رجاله من الماء وقال لهم : قاتلوا فالموت بين أيديكم والفلاة من ورائكم فأغاروا على أهل النباج من بكر، ودار القتال بين الفريقين فحلت الهزيمة ببكر، وغنم قيس غنائم كثيرة، ثم قال قيس لأصحابه : لا نقبل دون إخواننا بثيتل. وعاد مسرعاً إلى سلامة ومن معه فأدركهم ولم يغز بعد، فاغار قيس عليهم فقاتلهم وهزمهم وأصاب منهم إبلا كثيرة وجاء سلامة فقال : أغرتم على ما كان إلى.. فتخاصموا واختلفوا ثم اتفقوا على أن سلموا لسلامة غنائم ثيتل. وفى ذلك يقول ربيعة بن طريف بن تميم فى مدح زعيم تميم :

فلا يبعدنك الله قيس بن عاصم ... فأنت لنا عز عزيز ومعقل

وأنت الذى حربت بكر بن وائل ... وقد عضلت منها النباج وثيتل[٢]

ومن بين الوقائع التى حدثت بين قبيلة تميم من مضر وبين تغلب بن وائل من ربيعة، يوم زرود، وسببه إغارة تغلب على تميم، ذلك أن حزيمة بن طارق التغلبى أغار على بنى يربوع من تميم وهم بزرود واستاق إبلهم، فأتى الصريخ (المستغيث) بنى يربوع فركبوا فى أثره وهزموه واستنقذوا ما كان قد

---

(١) النباج : ماء على عشر مراحل من البصرة؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص ٢٥٥؛ ثيتل : ماء قرب النباج.

(٢) حربت : سلبت ماله، عضّلت الأرض : ضاقت بأهلها لكثرتهم.

أخذ وأسروا حزيمة بن طارق، وقال أنيف بن جبلة الضبى الذى اشترك فى هذه الواقعة :

أخذنتك قسرا يا حزيم بن طارق　　ولاقيت منى الموت يوم زرود
وعانقته والخيل تدمى نحورها　　فأنزلته بالقاع غير حميد(١)

وكان يوم الغبيط من بين الأيام التى حدثت بين بنى شيبان من ربيعة وبنى يربوع من تميم، ويعرف أيضاً بيوم أعشاش ويوم الثعالب. فقد قام بسطام بن قيس الشيبانى على رأس جمع من بنى شيبان بغزو بلاد تميم. وأغاروا على بنى ثعلبة بن يربوع وثعلبة بن سعد بن ضبة وثعلبة بن عدى بن فزارة وثعلبة بن سعد بن ذبيان الذين كانوا ينزلون بصحراء فلج (واد لبنى العنبر بن عمرو بن تميم ويقع أول الدهناء). ولما دار القتال بين الطرفين هزمت الثعالب وقتل منهم عدد كبير، وغنم بنو شيبان منهم مغانم كثيرة، ثم مروا على بنى مالك بن حنظلة من تميم فى طريقهم وهم بين صحراء فلج وغبيط المدرة، فأخذوا إبلهم، ولما بلغ الخبر بنى يربوع أكبروا هذا التعدى، وساروا بقيادة عتيبة بن الحرث اليربوعى فى أثر بنى شيبان، فلحقوا بهم بغبيط المدرة وقاتلوهم فانهزمت شيبان واستعاد بنو تميم أموالهم. ولحق عتيبة ببسطام وأشار عليه اليربوعيون بقتله، لكنه أبى وسار به إلى بنى عامر بن صعصعة لحمايته من القتل، فلما توغل عتيبة فى بيوت بنى عامر، صاح بسطام : واشيباناه ولا شيبان لى اليوم، فبعث إليه عامر بن الطفيل، إن استطعت أن تلجأ إلى قبتى فافعل، فإنى سأمنعك، وإن لم تستطع فاقذف بنفسك إلى الركى (جمع ركى وهى البئر) التى خلف بيوتنا ولما علم عتيبة بالخبر، أتى ابن الطفيل وقال له : قد بلغنى الذى أرسلت به إلى بسطام، فأنا مخيرك فيه خصالا ثلاثا، إن شئت فأعطنى خلعتك وخلعة أهل بيتك حتى أطلقه لك، فقال عامر : هذا ما لا سبيل إليه، فقال عتيبة : فضع رحلك محل رحله فلست عندى بشر منه، فلم يقبل، فقال عتيبة : تتبعنى إذا جاورت هذه الرابية

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٢٣.

فتقارعني عنه عل الموت، فإما لي وإما عليّ، فقال عامر : هذه أبغضهم إلى فانصرف عتيبة ببسطام. ولما شاهد بسطام ركب أم عتيبة قال : يا عتيبة أهذا رحل أمك؟ قال : نعم، قال : ما رأيت رحل أم سيد قط مثل هذا، إن ركب أمك لرث، فقال عتيبة : لا أطلقك حتى تأتيني أمك بهودجها (وكان ذا قيمة كبيرة) فأرسل بسطام وأحضر هودج أمه وفدى نفسه بأربعمائة بعير، وقيل بألف بعير وثلاثين فرسا وهودج أمه على أن يعاهده ألا يغزو بني شهاب - قوم عتيبة - وبذلك نجا من الأسر[١].

ومن الأيام التي أحرزت فيها بكر بن وائل من ربيعة النصر على تميم من مضر يوم مبايض (ماء من مياه بني تميم)، ذلك أنه لما قتل رجل من بني مرة بن ذهل بن شيبان على أيدى رجلين من بني عائده حلفاء بني ربيعة، ثارت مرة يريدون قتلهما، فأبى بنو ربيعة عليهم ذلك، فقال هانئ بن مسعود رئيس ربيعة لقومه : يا بني ربيعة إن إخوتكم قد أرادوا ظلمكم، فانفصلوا عنهم، وإني أكره أن يتفاقم الشر بينا ثم ارتحل بهم ونزلوا على ماء يقال له مبايض.

أخبر عبد لرجل من بني ربيعة، بني تميم أن حيا جديدا من بني بكر بن وائل نزول على مبايض، فقال طريف العنبرى : هؤلاء ثأرى يا آل تميم، وما لبث أن اجتمع بنو تميم وساروا متجهين إلى مبايض، فلما قاربوا بني ربيعة بلغهم الخبر، فاستعدوا للقتال، وخطبهم هانئ بن مسعود وحثهم على القتال، فقال : إذا أتوكم فقاتلوهم شيئا من قتال ثم انحازوا عنهم، فإذا اشتغلوا بالنهب فعودوا إليهم فإنكم تصيبون منهم حاجتكم. فلما اشتد القتال بين الطرفين ترك بنو ربيعة الأموال والمتاع وانحازوا عنه قليلا، ولحقت تميم بالبغال، فأغاروا عليها وبقيت تميم مع الغنيمة والسبى فعادت شيبان عليهم فهزموهم وقتلوهم وأسروهم كيف شاءوا ولم يفلت منهم إلا القليل، وانهزم

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٤٤؛ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص ٣٦٧-٣٦٨.

طريف فاتبعه حصيصة بن شراحبيل فقتله واستردت شيبان الأهل والأموال، وغنموا ما كان لبنى تميم[١].

وكان يوم الزروين[٢]، من بين الأيام التى حدثت بين بكر بن وائل وتميم بسبب النزاع على الماء والكلأ، ذلك أن بكر بن وائل كانت تنتجع أرض تميم، ترعى بها إذا أجدبوا وكانوا يكتسحون كل ما يقع تحت أيديهم فى طريق عودتهم، ثم تفاقم الشر بينهما وعظم حتى صار لا يلقى بكرى تميميا إلا قتله ولا يلقى تميمى بكريا إلا قتله. فقالت بنو تميم، امنعوا هؤلاء القوم عن الرعى فى أرضكم، فحشدت تميم وحشدت بكر واجتمعت، ولم يتخلف منهم إلا الحوفزان بن شريك فى أناس من بنى ذهل بن شيبان وكان غازيا فى بنى دارم. فقدمت بكر وعليهم عمرو بن قيس بن مسعود الشيبانى وكان يكنى بأبى مفروق ويلقب بالأصم فحسده سائر ربيعة على الرياسة وأتوه فقالوا : يا أبا مفروق، إنا قد زحفنا لتميم، وزحفوا لنا أكثر ما كنا وكانوا قط. قال : فما تريدون؟ قالوا : نريد أن نجعل كل حى على حياله ونجعل عليهم رجلا منهم، فنعرف بلاء كل قبيلة، فإنه أشد لاجتهاد الناس، قال : والله إنى لأبغض الخلاف عليكم، ولكن يأتى مفروق (ابنه) فينظر فيما قلتم. فلما جاء مفروق شاوره أبوه، فقال له : ليس هذا ما أرادوا، وإنما أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك. فقال عمرو : يا قوم، قد استشرت مفروقا، فرأيته مخالفا لكم، ولست مخالفا رأيه، وما أشار به.

وأقبلت تميم ببعيرين مجللين مقرونين مقيدين وجعلوا عندهما من يحفظهما وتركوهما بين الصفين معقولين، وسموهما زورين (الهين) وقالوا : لا نولى حتى يولى هذان البعيران، فأخبرت بكر، عمرو بن قيس بقولتهم، فقال : أنا زوركم، وبرك بين الصفين وقال : قاتلوا عنى ولا تفروا حتى أفر. والتقى القوم فاقتتلوا قتالا شديدا، وذبحت شيبان البعيرين، ولحقت الهزيمة ببنى تميم، واجترفت بكر أموالهم ونساءهم وأسروا كثيرا منهم[٣].

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص٣٤٢؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٣٦٨.

(٢) الزوران : بعيران مجللان.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٣٦٨.

كذلك دارت معارك بين قبائل قيس فيما بينهم. لعل من أهمها يوم داحس والغبراء بنى عبس وذبيان[١]، وكان السبب فى إشعال هذه الحرب رهاناً على سباق بين فرسين فسميت باسميهما، وكان المتراهنان قيس بن زهير بن جزيمة العبسى وحذيفة بن بدر سيدى عبس وذبيان، ذلك أن قيس بن زهير لما سار إلى المدينة ليتجهز لقتال بنى عامر ويأخذ بثأر أبيه الذى قتله خالد بن جعفر الكلابى العامرى، أتى أحيحة بن الجلاح – سيد الأوس قبل الإسلام – يشترى منه درعا موصوفة تسمى ذات الحواشى فقال له : لولا أن تذمنى بنو عامر لوهبتها لك، ثم باعه إياها، وفى أثناء عودته قابل قيس، الربيع بن زياد العبسى وهو أحد زعماء عبس فدعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأر أبيه، فأجابه إلى ذلك، ولما رأى الربيع الدرع التى يحملها قيس أعجبته ولبسها واحتفظ بها لنفسه وأبى أن يردها إليه، فحقد قيس على الربيع وعول على الانتقام منه، فأغار على إبله فى غفلة وأخذ منها أربعمائة بعير وسار بها إلى مكة، فباعها واشترى بثمنها خيلا كان من بينها فرسان أسماهما داحس والغبراء، وتبعه الربيع فلم يلحقه.

وكان أهل مكة يفاخرون قيسا أثناء وجوده بينهم باقامتهم بجوار البيت الحرام فقال لهم : «نحوا كعبتكم عنا وحرمكم وهاتوا ما شئتم». فقال له عبدالله بن جدعان القرشى «إذا لم نفاخر بالبيت المعمور والحرم الآمن فبم نفاخرك»[٢] ؟ فمل قيس مفاخرتهم وعزم على الرحيل عن مكة، فسر ذلك قريشا لكراهيتهم مفاخرته ولحق قيس ببنى بدر بن فزارة – إحدى بطون ذبيان – وأجاره حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر. فأقام فيهم وكان معهم أفراس له ولأخوته لم يكن فى العرب مثلها، وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها ويكتم ذلك فى نفسه. ثم أن حذيفة كره قيسا وأراد إخراجه عنهم فلم يجد حجة. وعزم قيس على العمرة، فقال لأصحابه : إنى قد عزمت على العمرة، فإياكم أن تلابسوا حذيفة بشئ واحتملوا كل ما يكون منه حتى أرجع، فإنى قد عرفت الشر فى وجهه.

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٨٢ ؛ الأصفهانى : الأغانى، جـ٨، ص ٢٤٠.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٣٤٥.

تفاخر فتى من عبس يقال له ورد بن مالك مع حذيفة بن بدر فى الخيل ثم تراهنا على فرسين من خيل قيس ومن خيل حذيفة، فلما عاد قيس من مكة وعلم الخبر، ركب حتى أتى حذيفة وقال له : علام تراهنني؟ فقال حذيفة : على فرسيك داحس والغبراء، وفرسى الخطار والحنفاء. فقادوا الخيل إلى الغابة وملئوا بركة بالماء فى طريق السباق وجعلوا السابق أول الخيل يكرع فيها، وأضمر حذيفة السوء بقيس فأقام رجلا من بنى أسد، وهم حلفاؤه، فى الطريق وأمره أن يرد داحسا عن الغابة إن جاء سابقا. فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقا بينا، فعارضه الأسدى وألقاه فى الماء وكاد يغرق هو وراكبه، ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل وأما راكب الغبراء، فقد خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ، ثم عاد إلى الطريق واجتمع مع فرسى حذيفة، ثم سقطت الحنفاء وبقى الخطار والغبراء.

لم يمض غير قليل حتى جاء الأسدى نادماً على فعلته، واعترف لقيس بما صنع وبما أمره به حذيفة، فرجع قيس وأصحابه إلى حذيفة وأصحابه وقال : «يا قوم إنه لا تأتى قوم إلى قومهم شراً من الظلم فأعطونا حقنا». فأبت بنو فزارة أن يعطوهم شيئا فقام رجل من بنى مازن بن فزارة فقال : يا قوم، إن قيسا كان كارها لأول هذا الرهان وقد أحسن فى آخره، وأن الظلم لا ينتهى إلا إلى شر، فأعطوه جزوراً من أنعامكم، فأبوا. ثم أن حذيفة لج فى ظلمه، وأرسل إلى قيس ابنه ندبة يطالبه بحقه المزعوم فى الرهان، فما لبث أن تناول قيس الرمح فطعنه[1]، ونادى قيس : يا بنى عبس، الرحيل فرحلوا كلهم ولما أتت الفرس حذيفة علم أن ولده قتل، فصاح فى الناس وركب فى من معه، وأتى منازل بنى عبس فرآها خالية، واجتمع الناس فاحتلموا دية ندبه مائة عشراء، فقبضها حذيفة وسكن الناس. وعاد حذيفة بن بدر فدس لمالك بن زهير - شقيق قيس - فرسانا وقال لهم : لا تنظروا مالكا أين وجدتموه أن تقتلوه، فانطلق القوم وقتلوه، فقال لهم حذيفة : أقدرتم على حماركم؟ - يقصد مالك بن زهير - قالوا : صدناه، فلما بلغ عبسا مقتل مالك بن زهير

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٣٤٨.

جزعت عليه وتجهزت للحرب. ومن ناحية أخرى قام سنان بن أبي حارثة فأوغر صدر حذيفة ابن بدر على الحرب وعدم المساومة فلما علم قيس بن زهير بذلك قال :

يود سنان لو يحارب قومنا ... وفي الحرب تفريق الجماعة والأزل[1]

يدب ولا يخفي ليفسد بيننا ... دبيبا كما دبت إلى جحرها النمل

فيا بني بغيض[2] راجعا السلم تسلما ... ولا تشمتنا الأعداء يفترق الشمل

وإن سبيل الحرب وعر مضلة ... وان سبيل السلم آمنة سهل

وكان الربيع بن زياد العبسي مجاورا لبني فزارة، ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته، وكان يقال لهم الكلمة. فلما علم بمقتل مالك بن زهير، قال لبني بدر : بئسما فعلتم بقومكم، وتركهم حتى لحق بقيس بن زهير فحالفه، ولما علم حذيفة أن الربيع وقيسا اتفقا، شق عليه ذلك واستعد للبلاء، ثم تلاقت جموع بني ذبيان وعبس واقتتلوا قتالا شديدا في عدة أيام، كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين واستمرت أمدا طويلا بسبب التحالفات التي عقدتها كل من القبيلتين مع القبائل الأخرى، فقد تحالف بنو عبس مع بني عامر وتحالفت ذبيان مع بني تميم وأسد، فلما طالت الحروب وفقد الفريقان كثيراً من رجالهم وأموالهم، جنحوا إلى السم فتدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان، والحارث بن عوف فتحملا ديات القتلى، وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين[3].

ومن بين الحروب التي دارت بين قبائل قيس، يوم حوزة الأول[4]، وقام بسبب امرأة، ذلك أن معاوية بن عمرو بن الشريد السلمي – من بني سليم –

---

(١) الأزل : الضيق والشدة.

(٢) يريد بهما عبس وذبيان ابني بغيض.

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣١٣.

(٤) الأصفهاني : الأغاني، جـ١٠، ص٢٨؛ حوزة : واد بالحجاز.

حضر سوق عكاظ فى موسم من مواسم العرب، فبينما هو يمشى بالسوق إذ لقى امرأة جميلة اسمها أسماء المرية، فدعاها لنفسه فامتنعت عليه وقالت : أما علمت أنى عند سيد العرب هاشم بن حرملة من بنى مرة، فأحفظته. فقال : أما والله لأقارعنه عنك، قالت : شأنك وشأنه، ورجعت إلى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له، فقال هاشم : فلعمرى لا تدخل بيوتنا حتى ننظر ما يكون من جهده.

فلما انصرم الشهر الحرام وتراجع الناس عن عكاظ، خرج معاوية غازيا فى فرسان قومه من بنى سليم، يريد هاشم بن حرملة فى قومه من بنى مرة وفزارة من ذبيان، فنادى هاشم فى قومه وخرج فى مثل عدته من بنى مرة ولم يشعر السلميون حتى طلعوا عليهم، فلما التقى معاوية وهاشم اختلفا طعنتين وأردى معاوية هاشما عن فرسه وأنقذ هاشم سنانه من معاوية. ثم جاء دريد بن حرملة فأجهز على معاوية وقتله. فقال صخر بن عمرو أخو معاوية يرثيه :

إذا ما امرؤ اهدى لميت تحية   فحيّاك رب الناس عنى معاويا

كذلك دارت رحى الحرب بين قبيلتى سليم وبنى مرة وكلاهما من قيس، فى يوم حوزة الثانى[١]، فلما تذكر صخر بن عمرو الشريد السلمى مقتل أخيه معاوية وهاجت به الذكرى خرج لقتال بنى مرة، فرأته بنت هاشم بن حرملة فذهبت إلى عمها دريد بن حرملة فأبلغته. غير أنه لم يشعر حتى طعنه صخر ونجا إلى قومه بعد أن أدرك ثأره[٢].

ومن الأيام التى دارت فيها الحرب بين قيس وتميم، يوم شعب جبلة[٣] ويرجع سببه إلى أن لقيط بن زرارة — سيد بنى تميم عزم على غزو بنى عامر بن صعصعة للأخذ بثأر أخيه معبد بن زرارة، الذى كان أسيراً عند بنى عامر فمنعوا عنه الماء حتى مات يوم رحرحان. وبينما هو يتجهز للحرب إذ أتاه خبر

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ١٣، ص ١٤٠.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٤٠.

(٣) جبلة : جبل طويل له شعب عظيم واسع.

الحلف بين بني عبس وعامر، وكان لقيط وجيها عند القوم، فذهب إلى النعمان بن المنذر يستنجده وأطمعه في الغنائم فأجابه، كما اجتمع إليه بنو ذبيان لعداوتهم لبني عبس بسبب حرب داحس والغبراء، وبني أسد لحلف كان بينهم وبين بني ذبيان.

أقبلت تميم وأسد وذبيان نحو جبلة، فلقوا كرب بن صفوان من أشراف سعد، فقالوا له : ما منعك أن تسير معنا في غزاتنا ؟ قال : أنا مشغول في طلب إبل لي : فقالوا : لا بل تريد أن تنذر بني عامر، ولا نتركك حتى تعطينا عهدا وموثقا ألا تفعل، فحلف لهم. ثم خرج عنهم حتى إذا نظر إلى موقع بني عامر نزل تحت الشجرة حيث يرونه، فأرسلوا إليه يدعونه، فقال لست فاعلا، ولكن إذا رحلت فائتوا منزلي فإن الخبر فيه. فلما جاءوا منزله، إذا تراب في صرة وشوك قد كسر رؤوسه، وحنظلة موضوعة، وخرقتين يمانيتين وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود. فأخذها معاوية بن قشير فأتى بها الأحوص بن جعفر سيد بني عامر وكان معه قيس بن زهير فقال : هذا من صنع الله لنا، هذا رجل قد أخذ عليه عهد ألا يكلمكم، فأخبركم أن أعداءكم قد غزوكم عدد التراب وأن شوكتهم شديدة، وأما الحنظلة فهي رؤساء القوم وأما الخرقتان اليمانيتان فهما حيان من اليمن معهم، وأما الخرقة الحمراء فهي حاجب بن زرارة وأما الأحجار فهي عشر ليال يأتيكم القوم إليها، قد أنذرتكم فكونوا أحرارا واصبروا كما يصبر الأحرار الكرام[1]، وقد أشار عليهم بقوله : «ادخلوا أنعامكم شعب جبلة، ثم اظمئوها هذه الأيام ولا توردوها الماء، فإذا جاء القوم فإن لقيطا فيه طيش وسيقتحم الجبل وحينئذ أخرجوا عليهم الإبل، وانخسوها بالسيوف والرماح فتخرج مزاعير عطاشا، فتشغلهم وتفرق جمعهم واخرجوا أنتم في آثارها، واشفوا نفوسكم»[2].

ولما وصل بنو تميم وأحلافهم إلى شعب جبلة حيث نزلت عامر وعبس. قال الناس للقيط : ما ترى؟ فقال : أرى أن تصعدوا إليهم، فأخذوا في

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص٣٥٦.

(٢) بن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣١٥.

الصعود حتى إذا انصفوا وانتشروا فيه قال الأحوص زعيم بنى عامر وأحلافهم : حلوا عقل الإبل ثم اتبعوا آثارهم وليتبع كل رجل منكم بعيره حجرين أو ثلاثة. ففعلوا، ثم صاحوا بها فخرجت تحطم كل شئ مرت به وخبطت تميما ومن معها، وهجم عليهم بنو عامر يقتلونهم ويصرعونهم بالسيوف فى آثارهم، وانهزموا شر هزيمة.

أما أشهر الحروب التى دارت بين قيس وكنانة فهى أيام الفجار[1] وسميت بذلك لوقوعها فى الأشهر الحرم، وكان سبب يوم الفجار الأول أن رجلا من بنى كنانة كان عليه دين لرجل من بنى نضر بن معاوية بن بكر بن هوازن، فقتل النضرى الكنانى وذهب إلى سوق عكاظ بقرد وجعل ينادى : من يبيعنى مثل هذا الربّاح بمالى على فلان بن فلان الكنانى رافعاً صوته بذلك، فلما طال نداؤه بذلك، مر به رجل من كنانة فضرب القرد بسيفه وقتله، فصرخ النضرى فى قيس وصرخ الكنانى فى كنانة، فاجتمع الحيان وتحاوروا وكادت الحرب تقع بينهم، غير أن عبدالله بن جدعان توسط وعقد الصلح بين الطرفين[2].

وكانت أيام الفجار الثانى بين قيس عيلان وكنانة أيضاً، وأولها يوم نخلة[3]، ذلك أن البراض بن قيس الكنانى كان سكيرا فاسقا، فخلعه قومه وتبرءوا منه فخرج حتى قدم على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وكان النعمان بن المنذر قد بعث إلى سوق عكاظ إذ ذاك بلطيمة. وهى العير تحمل الطيب وبز التجار، يجيزها له سيد مضر، فتباع ويشترى بثمنها الأدم والحرير والوكاء - رباط القربة - وغيره. فلما جهزها النعمان قال : من يجيزها ؟ فقال البراض : أنا أجيزها على بنى كنانة وهم أهل الحجاز. فقال النعمان : إنما أريد رجلا يجيزها على أهل نجد، فقال عروة الرحال وهو عروة بن عتيبة بن جعفر من بنى عامر بن صعصعة، ويقال له الرحال لرحلته إلى الملوك

(١) ابن نباتة المصرى :سرح العيون، دار الفكر العربى، ص ٥٨.

(٢) ابن قتيبة : المعارف، ص٢٦؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١ ، ص ٣٥٩.

(٣) نخلة محمود : موضع قرب مكة فيه نخل وكروم؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٧٧.

– وهو يومئذ رجل هوازن – أكلب خليع يجيزها لك؟ أنا أجيزها لك على أهل تهامة ونجد، فغضب البراض وقال : «وعلى كنانة تجيزها يا عروة»؟ فقال عروة : «وعلى الناس كلهم»[١]، فدفع النعمان بن المنذر اللطيمة إلى عروة وأمره بالمسير بها، وخرج البراض فى أثره، وعروة يرى مكانه ولا يخشاه. حتى إذا كان بين قومه أدركه البراض بنواحي فدك ووثب عليه بالسيف فقتله وأخذ العير إلى خيبر وتبعه رجلان من قيس فاحتال عليهما حتى قتلهما وسار بالعير إلى مكة، وبعث رسولا إلى حرب بن أمية – كبير قريش – يخبره أنه قتل عروة ويحذره من قيس.

وكانت العرب إذا قدمت عكاظ دفعت أسلحتها إلى عبدالله بن جدعان حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم، ثم يردها عليهم، وكان سيدا مثريا من المال، فجاءه حرب بن أمية وقال له : احتبس قبلك سلاح هوازن، فقال له ابن جدعان : أبا لغدر تأمرنى يا حرب، والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سيف إلا ضربت به، ولا رمح إلا طعنت به ما أمسكت منها شيئا، ولكن لكم مائة درع ومائة رمح ومائة سيف فى مالى تستعينون بها، ثم صاح ابن جدعان فى الناس : من كان له قبلى سلاح، فليأت وليأخذه فأخذ الناس أسلحتهم.

اجتمع أشراف قريش وتشاوروا فى الأمر وقالوا : نخشى أن تطلب قيس ثأر صاحبهم منساولا نرضى أن يقتل البراض به لأنه خليع، ثم قابلوا أبا براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب سيد قيس وتشاوروا معه فى الأمر. وكاد أن يتم الصلح بين الفريقين، إلا أن نفرا من قريش كانوا فى عكاظ بلغهم ما بدر من البراض، واعتقدوا أن قومهم فى ضيق فساروا إلى مكة لنصرتهم، فلما علم عامر بن مالك سيد قيس بأمرهم اعتبر ذلك غدرا وقال : غدرت قريش، وخدعنى حرب بن أمية وأقسم ألا ينزل عكاظا أبدا، ودار القتال بين القريشيين والقيسيين فى نخلة وكادت قريش أن تنهزم، فلجأت إلى الحرم وجن عليهم الليل فكفوا.

---

(١) ابن نباتة المصرى : سرح العيون، ص٥٨.

لما كان العام التالى على يوم النخلة، تجمعت قريش وكنانة بأسرها والأحابيش[١]، ومن لحق بهم من بنى أسد بن خزيمة، وجمعت سليم وهوازن جموعها وأحلافها وتلاقى الطرفان في يوم شمطة، وزحف بعضهم إلى بعض فكانت الدائرة في أول النهار على هوازن، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت واشتد القتل في قريش، ثم ما لبث قريش وكنانة أن حملوا على قيس من كل وجه حتى انهزمت في يوم عكاظ. أما في يوم الحريرة فقد انهزمت كنانة[٢]، وكان الرجل يلقى الرجل والرجلان يلقيان الرجلين، فيقتل بعضهم بعضا.

لما رأى بنو قيس وكنانة أن الحروب قد أنهكت كلا الطرفين، تداعوا إلى الصلح على أن يعدوا القتلى، فإذا زاد عدد قتلى فريق عن الآخر، أخذ دية العدد الزائد من هذا الفريق، ثم ما لبثوا أن تنازلوا عن ذلك وانصرف الناس بعضهم عن بعض، ووضعت الحرب أوزارها[٣].

جـ) الأيام التى دارت بين القحطانيين والعدنانيين :

كان من أشهر الأيام التى دارت بين القحطانيين والعدنانيين يوم خزاز[٤]، الذى يعتبر من أعظم أيام العرب قبل الإسلام، وكانت معد لا تستنصف من اليمن، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى كان هذا اليوم فانتصرت معد، ولم تزل فيها المنعة حتى جاء الإسلام. ويرجع سبب ذلك اليوم إلى أن قبائل بكر وتغلب كانت تدفع الإتاوة لدولة حمير اليمنية، فلما أصابهم الضيق وأجدبت أرضهم، تأخروا في دفعها، فجاءهم زهير بن جناب الكلابى - الذى كان يلى رئاسة بدو الشمال من قبل دولة حمير - وألح فى مطالبتهم بها فشكوا إليه

(١) الأحابيش : أحلاف قريش الذين تحالفوا بالله، أنهم ليد على غيرهم ما سجى ليل وما وضح نهار وما رسى حبشى (جبل بأسفل مكة).

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٣٥٩.

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٧٣.

(٤) خزاز : جبل ما بين البصرة إلى مكة؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص ٣٦٥.

عجزهم، غير أنه لم يصغ لشكواهم فنقموا عليه، ثم ما لبث أن أعد جيشا من أهل اليمن غزا به بكراً وتغلباً، وقاتلهم قتالا شديدا، فهزمهم وأسر كليبا ومهلهلا ابن أبي ربيعة، كما أسر جماعة من زعماء بني تغلب وقضاعة، فعظم ذلك على قبائل ربيعة وولوا عليهم ربيعة والد كليب، وخرجوا على سلطة زهير، وأنقذوا كليبا ومهلهلا[١].

لما توفى ربيعة رئيس وائل خلفه ابنه كليب فجمع تحت لوائه ربيعة وقضاعة ومضر وإياد ونزار، وسار بهم نحو اليمنيين، وعلى مقدمته سلمة بن خالد المعروف بالسفاح التغلبي، وأمرهم أن يوقدوا على خزاز نارا ليهتدوا بها، فبلغ مذحجا اجتماع ربيعة ومسيرها، فأقبلوا بجموعهم، واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن، وساروا إليهم، فلما سمع أهل تهامة بمسير مذحج انضموا إلى ربيعة، ووصلت مذحج إلى خزاز ليلا، وكان كليب قد قال لسلمة : إن غشيك العدو فاوقد نارين، فلما رأى جموع مذحج أوقد نارين، فأقبل كليب بالجموع واقتتلوا قتالا شديدا أكثروا فيه القتل وانهزمت مذحج[٢].

وكذلك انهزمت قبائل مذحج القحانية في يوم الكلاب الثاني[٣] على أيدى بني تميم العدنانية، وسببه أن رجلا من بني قيس بن ثعلبة قدم نجران على بني الحارث بن كعب وهم أخواله، وحدثهم بما أصاب بن تميم، وأن أموالهم وذراريهم في مساكنهم لا مدافع عنها، فاجتمعت بنو الحرث من مذحج وأحلافها في جند كثيف، ثم ساروا يريدون بني التميم فحذرهم كاهن لهم بالعدول عن ذلك. ولما بلغ الخبر تميما أوصاهم أكثم بن صيفي الأسدى بأن ينزل حنظلة بن مالك بالدهناء، وينزل سعد بن زيد مناة والرباب من تميم، الكلاب وأوصاهم بترك نسائهم، وحذرهم الخلاف قائلا : «احفظوا وصيتي، أملوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل،

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٣٠٠.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٦٤.

(٣) ابن عبد ربه : المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٥٤.

يا قوم تثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين (الرزين)»[١]. أقبلت مذحج ومن معها من قضاعة فقصدوا الكلاب، واقتتل الفريقان قتالا شديدا وحمل بنو تميم على أهل اليمن حملة صادقة، فهزموهم وتمت الغلبة للعدنانيين على القحطانيين.

ومن بين الوقائع التى دارت بين القحطانيين والعدنانيين يوم ظهر الدهناء[٢] الذى انتصرت فيه قبائل طيئ على بنى أسد، وسببه أن شاعرا من بني أسد هجا أوس بن حارثة. أحد أشراف قبيلة طيئ، فقد كان أوس بن حارثة سيدا مطاعا في قومه، وجوادا مقداما، حضر مع وفود العرب عند النعمان بن المنذر، فدعا بحلة من حلل الملوك وقال للوفود احضروا في غد فإني ملبس هذه الحلة أكرمكم، فلما حضر القوم في اليوم التالي، لم يجدوا أوسا، فقيل له : لم تتخلف؟ فقال : إن كان المراد غيرى فأجمل الأشياء بى ألا أكون حاضراً، وإن كنت المراد فسأطلب. فلما جلس النعمان، ولم ير أوسا قال : اذهبوا إلى أوس فقولوا له : احضر آمنا مما خفت، فحضر فألبس الحلة. فحسده قوم من أهله وعرضوا ثلاثمائة ناقة لمن ينجح في هجائه، فقال لهم بشر بن أبي خازم وهو من بني أسد : أنا أهجوه لكم، فأعطوه النوق، وهجاه فأحسن في هجائه، وذكر أمه سعدى، فلما علم أوس ذلك، أغار على النوق فاكتسحها بينما التجأ بشر إلى بني أسد عشيرته.

جمع أوس قومه من طيئ، وسار بهم إلى أسد فالتقوا بظهر الدهناء فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزمت أسد وقتلوا قتلا ذريعا، وهرب بشر، إلا أن أوسا تمكن من أسره، ودخل به على أمه قائلا : قد أتيتك بالشاعر الذى هجاك وقد آليت لأقتلنه قتلة تحيين بها.. قالت : يا بني إنا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس، فبحقى عليك إلا أطلقته ورددت عليه إبله وأعطيته من

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١ ، ص٣٧٩.

(٢) الدهناء : واد يشتمل على سبعة أجبل من الرمل يمر ببلاد بنى أسد.

ياقوت : معجم البلدان، جـ٢ ، ص ٤٩٣.

مالك مثل ذلك، ومن مالي مثله وارجعه إلى أهله سالما، فقبل ما أشارت به وأخبر به بشر، فقال بشر بن أبي خازم : اللهم أنت الشاهد على ألا أعود إلى شعر إلا أن يكون مدحا في أوس بن حارثة وقال :

فدى لابن سعدى اليوم كل عشيرتي

بني أسد أقصاهم والأقارب

تداركني أوس بن سعدى بنعمة

وقد أمكنته من يدى العواقب[1]

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص ٣٨٣.

الفصل الرابع

الحياة السياسية فى ممالك الحيرة والغساسنة وكندة

١ - مملكة الحيرة.

٢ - مملكة الغساسنة.

٣ - مملكة كندة.



الحياة السياسية فى

ممالك الحيرة والغساسنة وكندة

١ - مملكة الحـيرة

الحيرة مدينة قديمة تقع على بعد ثلاثة أميال جنوبى الكوفة[١] ويرى كثير من مؤرخى العرب أن اسم الحيرة يرجع إلى تبان أسعد أب كرب - أحد ملوك اليمن - الذى كان قد خرج من بلاده يريد الأنبار، فلما انتهى إلى موضع الحيرة ليلا تحير، فأقام مكانه. فسمى ذلك الموضع الحيرة[٢]. بينما يميل بعض المؤرخين المحدثين إلى أن التسمية ترجع فى أصلها إلى الاشتقاق من كلمة Herta السريانية ومعناها الخيم أو المعسكر، التى تقابل عند المسلمين كلمة العسكر[٣].

كان سكان الحيرة الأصليون يتألفون من قبائل عربية اعتنقوا النصرانية على مذهب الكنيسة السـورية. وتعرف هذه القبائل باسم العباد، ذلك أنهم اتخذوا شعارا لهم «يا آل عباد الله»، حين حاربهم سابور الأكبر كسرى فارس[٤].

وفى أوائل القرن الثالث الميلادى، قدمت قبائل تنوخ اليمنية إلى منطقة الحيرة، فأقامت مع أبناء جنسهم من العرب القدماء. وكان جذيمة الأبرش

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص ٣٢٨.

(٢) البكرى : معجم ما استعجم، جـ٢، ص ٤٧٩؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٧٦.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص٦.

(٤) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية، ص ٣١.

المعروف بجذيمة الوضاح[١]، هو أول ملوك العرب الجنوبيين الذين اتخذوا من الحيرة مقاما لهم، ويصفه الطبرى بأنه : «من أفضل ملوك العرب رأيا، وأبعدهم منارا، وأشدهم نكاية وأظهرهم حزما، وأول من استجمع له الملك بأرض العراق، وضم إليه العرب وغزا بالجيوش»[٢]. وكان جذيمة قد ادعى النبوة وألبس نفسه ثوب الكهانة بعد أن دان له الملك في الحيرة، مما أدى إلى ارتفاع شأنه وعلو مكانته بين أهالى المدينة.

لما توفى جذيمة الأبرش، خلفه ابن أخته عمرو بن عدى اللخمى، المؤسس الحقيقى لمملكة اللخميين فى الحيرة[٣]، وإليه ينسب ملوك العرب فى العـراق.

ولما كانت العلاقة بين دولة الفرس ومملكة الحيرة قائمة على أساس أن يقدم عرب الحيرة الطاعة لكسرى فارس، وهو يولى عليهم أميرا من بينهم[٤]، فكان الملك الساسانى سابور (٢٤١-٢٧٢م) هو الذى نصب عمرو بن عدى على مملكة الحيرة سنة ٢٦٨م، وذلك للاستفادة من اللخميين فى التصدى للمغيرين على بلاد الفرس من ناحيتهم فى مقابل إعفائهم من دفع الإتاوة.

ولى امرؤ القيس الحكم فى مملكة الحيرة بعد وفاة أبيه عمرو بن عدى[٥]، وقد بلغت المملكة فى عهده أقصى اتساع لها من السلطان والنفوذ، بعد أن دانت له القبائل بالولاء والطاعة. كما استطاع أن يحقق مكانة كبيرة عند الفرس والروم على السواء. ذلك أن نقش النمارة الذى يعد أقدم وثيقة كتبت باللغة العربية، تتضمن أهم الأعمال التى قام بها امرؤ القيس فى سبيل توطيد

---

(١) هو جذيمة بن مالك بن فهم بن دوس بن الأزد بن الغـوث بن نبت بن مالك بن زيـد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

أنظر : المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص ٣٥٣.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ١، ص ٦١٧.

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص ٢٠٩.

(٤) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية، ص ٣٢.

(٥) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص ٣٥٩.

أركان مملكته، يشير إلى أن امرأ القيس أخضع قبيلتي أسد ونزار وهزم مذحجا ومعدا، وأنه نصب أبناءه على القبائل بعد أن بلغت فتوحاته أسوار نجران - مدينة شمر، وأنه لقب نفسه «ملك العرب كلهم»[١].

لما توفي امرؤ القيس سنة ٣٢٨م، خلفه ابنه عمرو بن امرئ القيس، الذي حكم المملكة مدة خمسة وثلاثين عاما (٣٢٨-٣٦٣م)، قامت على أثرها فترة اضطرابات وقلاقل بسبب تنافس أبنائه على العرش، فانتهز أوس بن قلام[٢] - أحد أشراف الحيرة من خارج البيت اللخمي - الفرصة ونصب نفسه ملكا على المدينة. غير أنه ما لبث أن قتل على يد أحد أبناء عمرو بن امرئ القيس وعادت السلطة إلى البيت اللخمي حيث ولي أمر الحيرة الملك امرؤ القيس الثاني بن عمرو بن امرئ القيس سنة ٣٦٨م[٣].

ولي النعمان الأول مملكة الحيرة بعد وفاة أبيه امرئ القيس الثاني، وتلقب بالسائح[٤]، وازدهرت المملكة في عهده وبلغت شأواً بعيداً. فلما استتب له الملك قام ببناء قصر الخورنق[٥]، وأقام جيشا عظيما، اشتهر منه كتيبتا الخيالة الدوسر ورجالها من تنوخ، والشهباء ورجالها من الفرس، وقد غزا بهما بلاد الشام أكثر من مرة[٦].

وكان لعلو المكانة التي بلغها النعمان الأول عند الفرس، أن أرسل الملك الساساني يزدجرد الأول (٣٩٩-٤٢٠م)، ابنه الأكبر بهرام جور - وهو ما زال

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص٣٢-٣٤.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٦١.

(٣) جورجي زيدان : العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨، ص٢١٣.

(٤) تلقب بالسائح لأنه زهد أواخر أيامه وعكف على البر والتقوى فانقلب سائحا زاهدا حين أدرك أن حطام الدنيا لا محالة زائل.

أنظر، ابن قتيبة : المعارف، ص ٢٨٢.

(٥) الخورنق :كلمة فارسية تعني الحصن المنيع.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص ٢٣٣.

صبيا إلى مملكة الحيرة لينشأ ويتربى فى كنف النعمان الأول ويتعلم الفروسية والصيد[(١)]. وفضلا عن ذلك لما توفى يزدجرد وأراد الفرس إقصاء ابنه بهرام جور عن العرش، أمده النعمان بجيش ساعده على استرداد عرشه، مما زاد من هيبته وعلو شأنه.

كذلك اشترك المنذر بن النعمان الأول - الذى خلف أباه فى مملكة الحيرة إلى جانب بهرام جور - فى حروبه ضد الروم ومن والاهم من الغساسنة.

سار ملوك الحيرة على نهج أسلافهم فى مساعدة أكاسرة فارس والوقوف إلى جانبهم فى حروبهم ضد الروم، فلبى المنذر الثالث بن امرئ القيس الملقب بابن ماء السماء (٥٠٨-٥٥٤م)[(٢)] دعوة كسرى الفرس، وقام بغزو حدود الدولة الرومانية سنة ٥١٩م وتمكن من أسر قائدين من قواد الروم بعد أن أوقع بهم الهزيمة، فاضطر القيصر جستنين الأول (٥١٨-٥٢٧م) إلى إرسال وفد لملك الحيرة من أجل عقد الصلح وإطلاق سراح الأسيرين[(٣)]. فتم له ما أراد على أن يدفع الروم مبلغا من المال لملك الفرس والمنذر.

لما ساءت العلاقات بين الفرس والروم واشتعلت الحرب بينهم سنة ٥٢٨م، انضم المنذر بن ماء السماء إلى الفرس فى حروبهم ضد الروم، وسار على رأس جيشه إلى بلاد الشام وتوغل فيها، وغنم منها مغانم كثيرة وعاد إلى مملكته، ثم ما لبث أن عاد إليها فى العام التالى وتوغل فيها مرة أخرى حتى وصل إلى حدود أنطاكية. فلم يجد الامبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) قيصر الروم الذى خلف جستنين الأول، بدا من طلب المساعدة من الحارث بن جبلة

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ١ ، ص ٢٣٣؛ النويرى : نهاية الأرب، جـ١ ، ص ٢١٣-٢١٤.

(٢) ماء السماء : لقب أمه مارية بنت عوف من بنى نمر بن قاسط كما كان يلقب بذى القرنين، لوجود ضفيرتين فى رأسه.

أنظر، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢ ، ص ٢٦٥؛ المسعودى : مروج الذهب، جـ١ ، ص ٣٦٠.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤ ، ص٥٣.

– أمير الغساسنة – وزج به فى الحرب بعد أن منحه لقب فيلارخ (أى شيخ العرب)(١).

على الرغم من انتهاء الحرب بين الفرس والروم وعقد الصلح سنة ٥٣٢م، إلا أن عدوى الحروب، انتقلت من الامبراطورتين الكبيرتين إلى المملكتين العربيتين. فدارت بين المناذرة والغاسنة عدة حروب وأيام، لم تنته إلا بمقتل المنذر بن ماء السماء وابنه المنذر بن المنذر (الثانى) فى واقعتى عين آباغ ومرج حلمية(٢) سنة ٥٥٤م.

ولى عمرو بن هند(٣) مملكة الحيرة بعد مقتل أبيه المنذر الثانى سنة ٥٥٤م، وكان عمرو كريما مع الشعراء يجزل لهم العطاء، فصارت الحيرة فى عهده ذات مركز أدبى مرموق يفد إليها الشعراء من مختلف الجهات، ومنهم طرفة بن العبد والحارث بن حلزه وعمرو بن كلثوم التغلبى. وهم من أصحاب المعلقات المشهورة(٤).

على الرغم من المكانة العالية التى صارت للحيرة فى عهد عمرو بن هند، إلا أن غروره وجبروته، جر عليه سوء العاقبة، فلقى مصرعه على يدى عمرو بن كلثوم التغلبى سنة ٥٦٩م. ذلك أن عمرا قال لجلسائه ذات يوم : هل تعرفون أحدا من العرب من أهل مملكتى يأنف أن تخدم أمه أمى. فقالوا : ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبى، فإن أمه «ليلى» بنت «المهلهل بن ربيعة» وعمها «كليب» سيد القوم وزوجها «كلثوم» وولدها «عمرو». فلما سمع بقولهم أمر بإحضار عمرو بن كلثوم وأمه، وأمر عمرو أمه هند أن

---

(١) Hitti : History of the Arabs, p. 76.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٣٢٦؛ النويرى : نهاية الأرب، جـ١٥، ص٤٣٠.

(٣) ينسب إلى أمه، هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار وكان يعرف بالمحرق لأنه قام بحرق نخل اليمامة.

أنظر، ابن قتيبة : المعارف، ص ٢٨٣؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٦٥.

(٤) كان العرب يعلقون قصائد الشعر العظيمة على الكعبة فاجتمع من ذلك المعلقات المشهورة.

أنظر، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص ٢١٨-٢٢٠.

تصرف الخدم وتطلب من ليلى - أم عمرو بن كلثوم - أن تقوم بالخدمة بدلا منهم. غير أن ليلى رفضت ذلك فى إباء وشمم وصاحت : «واذلاه يا آل تغلب»، فثار ابنها عمرو بن كلثوم، وقام فاستل سيفا وأطاح برأس ملك الحيرة[١].

ضعف أمر المناذرة بعد مقتل عمرو بن هند، بسبب الخلاف بين أمرائهم على ولاية عرش المملكة، وتدخل الفرس فى اختيار حكام المملكة بعد أن صارت تخضع للوساطة. فاختار الفرس، النعمان بن المنذر بن المنذر - المعروف باسم أبى قابوس - ملكا على الحيرة سنة ٥٨٠م، بعد أن توسط أحد رجال بلاط كسرى أنو شروان - وهو عدى بن زيد العبادى - لدى سيده فى توليته[٢].

لم يستتب الأمر للنعمان بن المنذر فى مملكة الحيرة، ذلك أن الأسود بن المنذر لم يرض عن تولية أخيه مقاليد الأمور فى المملكة. ولما كان الأسود يعتبر أن عدى بن زيد هو سبب ضياع عرش المملكة من يده، أخذ يكيد لعدى ويشى به إلى النعمان، ويدفع المقربين إلى أخيه للسعى سرا به، حتى حقد عليه النعمان وقرر التخلص منه، فكتب إلى عدى يدعوه لزيارته فى الحيرة قائلا : «عزمت عليك إلا زرتنى، فإنى قد اشتقت إلى رؤيتك». فلما وصلت الرسالة عديا، استأذن كسرى أنو شروان فى زيارة النعمان، فأذن له. فسار عدى إلى منيته وهو لا يدرى ما يخبئه له القدر. فما إن وصل إلى الحيرة حتى أمر به النعمان فالقى به فى غياهب السجون. وفى الحبس أخذ عدى ينظم أشعارا يتضرع فيها إلى النعمان أن يفك أسره، واعظا إياه فيها بالموت، وبمن هلك قبله من الملوك. ولما لم يجد عدى استجابة من النعمان كتب إلى أخيه أبى بن زيد فى بلاط كسرى فارس، يستجير به أن يرسل إلى النعمان يأمره بإطلاق سراحه. ولما بلغ النعمان أن كسرى أنو شروان أنفذ إليه رسالة تتضمن ذلك وأنها فى الطريق إليه، بعث إلى عدى بجماعة قتلوه خنقا

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ٩، ص ١٧٥؛ الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص١٤٢.

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص ٢١٢-٢١٣؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص ١٩٤.

قبل وصول الرسالة. ولما جاء رسول كسرى فارس، قدم له النعمان الهدايا النفيسة: فعاد إلى سيده يخبره أن عديا مات فى سجنه قبل وصوله إلى الحيرة بعدة أيام[1]

ندم النعمان على قتل عدى بن زيد، ورأى أن يكفر عن إساءته، فأحضر زيد بن عدى – أحد أبنائه – وقربه إليه وشمله برعايته. ثم ما لبث أن أرسل إلى كسرى أبرويز (٥٩٠–٦٢٨م) يرجوه أن يجعل زيدا فى مكان أبيه، فلبى أبرويز رغبته. وبذلك علت مكانة زيد عند كسرى فارس. وصار له ما كان لأبيه من المناصب فى البلاط الفارسى[2].

لما اطمأن زيد بن عدى إلى مركزه وعلو نفوذه، أخذ يدبر المكائد للايقاع بالنعمان والانتقام منه، وبات يترقب الفرصة للأخذ بثأر أبيه. لم يمض غير قليل من الزمن حتى سنحت له تلك الفرصة عندما رغب كسرى فارس فى انتقاء أفضل النساء زوجات لأولاده، فأشار عليه زيد، أن يطلبهن من النعمان، قائلا : «ففى بناته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة رائعات الجمال»، فاستحسن كسرى الرأس وأنفذ إلى النعمان فى طلبهن. استاء النعمان من هذا المطلب ورد على رسول أبرويز قائلا : «أما فى مها السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا». ورد على كتاب كسرى : «إن الذى طلب الملك ليس عندى»[3]

غضب كسرى فارس من رد النعمان، وبعث إليه يستدعيه إلى فارس بغية القضاء عليه. فلما أدرك النعمان ذلك حمل متاعه وسار إلى أصهاره فى طيئ ملتمسا حمايتهم له، لكن قومه رفضوا أن يجيروه خوفاً من بطش أبرويز[4]. فأخذ النعمان يطوف على قبائل العرب، حتى نزل على بنى شيبان

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص ١٩٦ ؛ الأصفهانى : الأغانى، جـ٦، ص٦٥.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص ٢٨٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٨٨.

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص ٣٧٤.

بذى قار[١]، حيث لقى هانئ بن مسعود الشيبانى، فاستجار به فأجاره. فلما اطمأن إلى هانئ ترك عنده أهله وماله وتوجه إلى كسرى فارس. فلما وصل إلى البلاط، أمر به فحبسه فى أحد السجون وظل فى سجنه حتى وفاته[٢].

ولى إياس بن قبيصة الطائى عرش الحيرة بعد وفاة النعمان، وعين معه كسرى، النخير جان[٣] أحد رجاله كحاكم فارسى.

لم يمض غير قليل على ولاية إياس بن قبيصة، حتى أنفذ إليه كسرى أن يجمع ما خلفه النعمان من الأموال والمتاع ويرسل به إلى فارس. فبعث إياس إلى هانئ بن مسعود يأمره بأن يرسل ما استودعه النعمان من الدروع والأموال وغيرها مهدداً إياه : «لا تكلفنى أن أبعث إليك ولا إلى قومك بالجنود تقتل المقاتلة، وتسبى الذرية». فرد عليه هانئ : «إن الذى بلغك باطل، وما عندى قليل ولا كثير»[٤].

فلما امتنع هانئ عن إرسال ودائع النعمان، غضب كسرى فارس وأرسل إلى بنى شيبان يخيرهم بين خصال ثلاث : «إما أن يعطوا بأيديهم فيحكم فيهم الملك بما شاء (الاستسلام)، وإما أن يعّروا الديار (الرحيل عن الديار)، وإما أن يأذنوا بحرب»[٥]. فاختاروا الحرب قائلين : إن السيف هو الحكم. فدارت بين العرب والفرس معركة شديدة، حلت فيها الهزيمة بالفرس[٦]. بينما انتصر العرب انتصارا مؤزرا بفضل الله تبارك وتعالى. فلما سمع رسول الله ﷺ بخبر انتصار العرب على الفرس قال : «هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى انتصروا»[٧].

---

(١) ذى قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص٢٩٣.

(٢) ابن قتيبة : المعارف، ص٢٨٤؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٦٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٩٣.

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص ٢٠٦.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ١، ص٢٩٠.

(٦) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، جـ١، ص١٠١؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص٢٩٣-٢٩٤.

(٧) الطبرى : المصدر السابق، جـ٢، ص٢١٠.

لما حلت الهزيمة بالفرس في واقعة ذى قار، رأى كسرى فارس أن يوطد سلطانه بمملكة الحيرة، فولى عليها رجلا فارسياً من قبله يقال له أذاذبة، غير أن المناذرة ما لبثوا أن استعادوا سلطانهم على الحيرة، فولى أمرها المنذر بن النعمانى أبو قابوس الملقب بالمغرور[١] سنة ٦٢٨م، وقد أراد المنذر استعادة سلطان أسلافه إلا أن الأمور ظلت مضطربة في مملكة الحيرة حتى تم فتحها سنة ١٣هـ/٦٣٣م على يد خالد بن الوليد[٢]، وضمها إلى حظيرة الإسلام.

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٩٣.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص٣٤٦؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، جـ١، ص١٥٨.

٢ – مملكة الغساسنة

يرجع أصل الغساسنة إلى قبائل الأزد التى هاجرت من جنوب بلاد العرب بعد حدوث سيل العرم وانهيار سد مأرب. فلما استقرت إحدى تلك القبائل إلى جوار ماء اسمه غسان فى تهامة، نسبت إليه بعد أن أقاموا عليه وشربوا منه[١]. ويطلق على الغساسنة عدة أسماء لعل أهمها، أزد غسان[٢]، وآل ثعلبة نسبة إلى جد لهم اسمه ثلعبة بن مازن[٣]، وآل جفنة وأولاد جفنة نسبة إلى جدهم الأكبر جفنة بن عمرو بن مزيقياء بن عامر[٤].

بدأ الغساسنة عهدهم فى بلاد الشام بالاصطدام بالضجاعمة من قبائل سليح بن عمرو بن حلوان بن قضاعة. وكان النصر حليف الغساسنة الذى قوى أمرهم، بينما ضعف بنو سليح وتفرقوا فى نواحى بلاد الشام[٥].

لما تم للغساسنة التخلص من سطوة بنى سليح، أقاموا مملكة لهم فى أرض حوران المحيطة بجبل الدروز، والبلقاء والجولان[٦]. واتخذوا من بصرى عاصمة لهم – ثم ما لبثوا – أن تحالفوا مع الروم كما تحالف أبناء عمومتهم المناذرة مع الفرس.

اتخذ الروم من الغساسنة حراسا لحدودهم الشرقية ضد غارات البدو الذين كانوا ينزلون على أطراف الامبراطورية الرومانية. كما عقدوا معهم اتفاقا يقضى بإمداد الروم، الغساسنة بأربعين ألف محارب، مقابل أن يمدهم الغساسنة بعشرين ألفا إذا حاربهم الفرس[٧].

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص٣٦٦.

(٣) تيودور نولدكه : أمراء غسان من آل جفنه (مترجم)، بيروت ١٩٣٣، ص٤.

(٤) المسعودى : التنبيه والأشراف، ص١٥٨.

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٧٨.

(٦) ياقوت : المصدر السابق، جـ٢، ص٩١، ص١٥٥.

(٧) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية، ص٣٦.

كان للغموض الذى أحاط بتاريخ سنى حكم ملوك الغساسنة وترتيب توليهم المملكة، أن اختلف المؤرخون فى عدد ملوك هذه الدولة وفى مدة حكمها، فذكر حمزة الأصفهانى[١] أن ملوك غسان كانوا إثنين وثلاثين ملكا، حكموا نحو ستمائة عام، وذكر أبو الفدا[٢] أنهم كانوا ثلاثين ملكا، بينما يرى كل من المسعودى[٣] وابن قتيبة[٤] أنهم كانوا أحد عشر ملكا فقط.

كان أول ملوك الغساسنة، جفنة بن عمرو بن مزيقياء فلما توفى، خلفه ابنه عمرو بن جفنة، ثم ولى من بعده ثعلبة ابن عمرو بن جفنة الذى ينسب إليه بناء صرح السدير فى أطراف حوران مما يلى البلقاء. ولما توفى ثعلبة ولى بعده ابنه الحارث ثم حفيده جبلة[٥] الذى قام بغزو فلسطين سنة ٥٠٠م[٦].

يعد الحارث الثانى بن جبلة (٥٢٨-٥٦٩م) الذى خلف أباه فى مملكة الغساسنة، أعظم ملوكهم، فقد ولى عرش المملكة أكثر من أربعين سنة. وأقام علاقات وطيدة مع امبراطورية الروم واشترك معها فى حروبها ضد الفرس وأبلى بلاء حسنا، فأنعم عليه الامبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) بأعلى الألقاب الإمبراطورية فأنعم عليه بالإكليل ومنحه لقب Phylarch (شيخ القبائل)، ولقبه أيضاً بلقب (Patricius)[٧]، وهو أعظم لقب بعد الإمبراطور الذى كان يعد مقصوراً على أباطرة الروم، وعلى ذلك يعتبر الحارث الثانى أول ملوك الغساسنة الذى تلقب بلقبين كبيرين هما فيلارخ وبطريق.

---

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء، برلين، ١٣٤٠هـ، ص٩٩.

(٢) المختصر فى أخبار البشر، جـ١، ص٧٢-٧٣.

(٣) مروج الذهب، جـ١، ص٣٦٥.

(٤) المعارف، ص٦٤٢.

(٥) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض، ص ٧٧.

(٦) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 164.

(٧) Hitti : History of the Arabs, p. 76.

كان لتشجيع أباطرة الروم، للحارث بن جبلة والإغداق عليه بالألقاب، أن تفانى فى خدمة الإمبراطورية وصار لها حليفاً مخلصاً، فاشترك مع الجيش البيزنطى فى إخماد ثورة السامريين فى فلسطين سنة ٥٢٩م[١]، كما تصدى للفرس والمناذرة وأوقف تقدمهم بعد أن كانوا قد توغلوا فى أراضى سورية وآسيا الصغرى وأوشكوا على فتح القسطنطينية سنة ٥٣١م[٢]. بعد أن طلب منه ذلك الإمبراطور البيزنطى حين أشرف قائده بليزاريوس على الهزيمة.

على أن الغساسنة الذين كانوا يعاونون أباطرة الروم فى التصدى للفرس وحلفائهم المناذرة، ما لبثوا أن اشتبكوا مع أبناء عمومتهم المناذرة فى حروب طويلة ضارية. فلما ادعى ملك الحيرة أن القبائل العربية التى تنزل بين دمشق وتدمر تخضع لسلطانه وأن عليها دفع الإتاوة له، نازعه ملك الغساسنة هذا السلطان، واشتبك الطرفان فى عدة معارك انتهت بانتصار الغساسنة سنة ٥٢٨م[٣].

تجددت المعارك بين الغساسنة والمناذرة سنة ٥٤٤م فدارت الدائرة على الملك الغسانى، وأسر أحد أبنائه، فقدمه المنذر بن ماء السماء، ضحية وقربانا للصنم العزى. على أن الحارث بن جبلة الملك الغسانى ما لبث أن ثأر لابنه فى واقعتى عين أباغ ومرج حليمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤م، فهزم المناذرة وقتل ملكهم[٤].

لما استتب الأمر للحارث بن جبلة وأمن جانب أعدائه، قام بزيارة الإمبراطور جستنيان فى القسطنطينية سنة ٥٦٣م، وقد لقى الحارث حفاوة بالغة واستقبالا عظيماً، دهش فيه بمظاهر الفخامة التى يحياها أباطرة الروم ورجال البلاط البيزنطى. وقد انتهز الحارث فرصة زيارة الامبراطور، فى الاتفاق

---

(١) O'Leary : op. cit., p. 164.

(٢) Hitti : History of the Arabs, p 79.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص١٣٠.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٣٢٦.

على أن يخلفه ابنه المنذر فى مملكة الغساسنة من بعده[١]. كما سعى لدى الإمبراطورة ثيودوره - زوجة الإمبراطور - من أجل تعيين يعقوب البرادعى - مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية - ورفيقه ثيودوروس، أسقفين فى المقاطعات السورية وقد تم له ما أراد[٢].

على الرغم من معارضة الروم للمذهب اليعوقبى على اعتبار أنه مذهب مناهض لسياسة الإمبراطورية، إلا أن الحارث بن جبلة استطاع أن يقلل من غضب أساقفة الكنيسة الإمبراطورية والتقريب بين آراء رجال الكنيستين. مما كان له أبلغ الأثر فى بقاء المذهب اليعقوبى بل وانتشاره بين السريان والعرب فى بلاد الشام[٣].

لم يكد الأمر يستتب للمنذر بن الحارث بن جبلة فى مملكة الغساسنة، حتى بدأ عهده بمحاربة المناذرة الذين أغاروا على أراضيه سنة ٥٧٠م. إلا أنه تمكن من إيقاع الهزيمة بهم[٤].

سار المنذر بن الحارث على نهج أبيه فى تأييد المذهب المنوفستى المعارض للمذهب الملكانى - مذهب الإمبراطورية - مما قلل من عطف الأباطرة عليه. لكنهم على الرغم من ذلك اضطروا للاستعانة بالمنذر من التصدى لعرب الحيرة، الذين هددوا تخوم الإمبراطورية وأوقعوا الرعب فى نفوس سكان القرى المجاورة لها[٥].

كان لانتصار المنذر بن الحارث على عرب الحيرة ومنعهم من الغزو والإغارة على حدود الإمبراطورية، أن دعاه الإمبراطور البيزنطى تيبير يوس الثانى (٥٧٨-٥٨٢م) لزيارة القسطنطينية، فلما وصل عاصمة الإمبراطورية،

---

(١) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 165.

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 79

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص١٣٣.

(٤) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية، ص٣٩.

(٥) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص١٣٥.

استقبال استقبالا حافلا، وأنعم الإمبراطور عليه بالتاج فلقبه مؤرخو العرب بلقب المنذر ملك العرب. كما منح الإمبراطور ولدى المنذر بن الحارث، رتبا عسكرية[١].

لم يمض على زيارة المنذر بن الحارث للقسطنطينية زمن طويل حتى ساءت العلاقات بين الغساسنة والروم، بسبب ما أحاط بالمنذر من شبهات الخيانة وعدم الولاء. ذلك أن البطريق موريس - القائد البيزنطى لما حاول غزو حدود دولة الفرس فى النصف الثانى من عام ٥٨٠م، وجد الجسر المقام على نهر الفرات غير صالح للعبور، فتراجع وترك الغزو واتهم المنذر بأنه أوعز بهدم الجسر، وسعى لدى الإمبراطور للإيقاع به بدلا من الاعتراف بفشل حملته[٢]. فتنكر له الإمبراطور وقرر التخلص منه. فبعث القيصر برسالة إلى «ماكنوس»، حاكم بلاد الشام، صديق المنذر، يأمره فيها بالقبض على المنذر وإرساله إلى العاصمة الإمبراطورية.

انتهز البطريق «ماكنوس» فرصة الاحتفال بالانتهاء من بناء كُنيسة حوارين[٣]، فقبض على المنذر بن الحارث وأرسله إلى القسطنطينية مع إحدى نسائه وبعض أولاده، فبقى هناك إلى أن ولى البطريق «موريس» عدوه اللدود، عرش الإمبراطورية سنة ٥٨٢م، فأمر بنفيه إلى صقلية حيث توفى هناك فى نفس العام[٤].

لم يكتف الإمبراطور «موريس» بنفى ملك الغساسنة، بل أمر بقطع الإعانة التى كانت الإمبراطورية ترسلها إلى الغساسنة فى كل عام مما أثار أبناء المنذر، فتركوا ديارهم وتحصنوا بالبادية، وأخذوا فى شن الغارات على حدود الإمبراطورية بقيادة أخيهم الأكبر، النعمان بن المنذر، فألحقوا بها أذى شديدا.

---

(١) نولدكه : أمراء غسان، ص٢٦.

(٢) Hitti : History of the Arabs, P. 80.

(٣) حوارين : قرية من قرى حلب؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص٣١٥.

(٤) فيليب : تاريخ العرب، جـ١، ص١٠٥.

ولما كان من الصعوبة مهاجمة الأبناء فى البادية، لذلك عمدت الحكومة البيزنطية إلى المكيدة، فعهدت إلى ماكنوس بتدبير الأمر. فأرسل ماكنوس إلى النعمان بن المنذر يطلب منه اللقاء من أجل الاتفاق على عقد الصلح. فلما تلقى النعمان رسالة القائد البيزنطى، لم يفطن إلى تلك المكيدة وسار إلى ماكنوس، الذى خدع أباه من قبل. وما أن وصل إلى مقر الحاكم البيزنطى لبلاد الشام حتى تم القبض عليه وإرساله أسيرا إلى عاصمة الإمبراطورية سنة ٥٨٤م[١].

أدى القبض على النعمان بن المنذر وأسره، إلى تصدع ملك الغساسنة، وانقسام أمرائهم على أنفسهم، فتمزقت وحدتهم وسادت الفوضى أرجاء بادية الشام. وصارت كل قبيلة تختار زعيما لها من بين أبنائها. فظهر من بينهم الحارث الأصغر بن أبى شمر الغسانى، الذى استعاد ملك الغساسنة، فقام بغزو قبيلة عوف بن مرة فى أعالى الحجاز، كما حارب قبيلتى أسد وفزارة وأسر كثيراً من رجالهم وعاد إلى عاصمة المملكة بعد أن دانت له بالطاعة والولاء. كما تمكن ابناه النعمان وعمرو من توطيد سلطان الغساسنة فى نجد والنواحى الشمالية من بلاد الحجاز[٢]. فلما زارهم الشاعر حسان بن ثابت مدحهم قائلا :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم   قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم   شمّ الأنوف من الطراز الأول

لما توفى الحارث الأصغر خلفه ابنه النعمان، الذى سار على نهج أبيه فى العمل على استعادة النفوذ الغسانى وتوطيد سلطانهم على القبائل العربية، فقام النعمان بن الحارث الأصغر بغزو بكر وتميم وألحق بهم خسائر كبيرة،

---

(١) نولدكه : أمراء غسان، ص٣٢-٣٣.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص١٥٢.

كما غزا مملكة الحيرة حوالى سنة ٦٠٠م[١]، وأحرز انتصارات عظيمة، فمدحه النابغة الذبياني[٢]، بقوله :

أن يرجع النعمان نفرح ونبتهج ... ويأت معدا ملكها وربيعها

ويرجع إلى غسان ملك وسؤدد ... وتلك التي لو أننا نستطيعها

على الرغم من محاولة بعض الأمراء الغساسنة استعادة ملكهم إلا أن قصر مدد حكمهم، وافتقادهم للزعامة والوحدة السياسية، أدى إلى قيام كسرى أبرويز بمهاجمة بلاد الشام واستيلائه على بيت المقدس ودمشق (٦١٤-٦٢٣م) دون أن يجد من يقف في وجهه أو يعترض طريق تقدمه من جراء الفوضى السائدة في بلاد الشام.

كان جبلة بن الأيهم هو آخر ملوك البيت الغساني الذي استعان به الروم بعد استردادهم السيطرة على بلاد الشام[٣]. وقد اشترك جبلة بن الأيهم مع الروم في واقعة اليرموك[٤]، سنة ١٣هـ/ ٦٣٦م. التي أحرز فيها المسلمون نصراً مؤزراً[٥].

---

(١) نولدكه : أمراء غسان، ص٤٢.

(٢) النابغة الذبياني : هو زياد بن معاوية بن ضباب، من قبيلة ذبيان الغطفانية القيسية (قيس عيلان). واشتهر بلقب النابغة لأنه قال الشعر بعد أن كبر سنه ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله.
أنظر، الأصفهاني : كتاب الأغاني، جـ١١، ص٤.

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 80.

(٤) اليرموك : وادي بناحية الشام يصب في نهر الأردن. ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٤٣٤.

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص١٧٨.

٣ - مملكة كندة

كانت كندة إحدى القبائل القحطانية التى تنسب إلى ثور بن عفير بن عدى بن الحارث بن مرة، وثور هو الملقب بكندة من نسل كهلان[١].

كانت مساكن قبيلة كندة تقع فى جبال اليمن الشرقية مما يلى حضرموت، وقد اتخذت فى مدينة «دمون»[٢] حاضرة لهم. مما يدل على أن كندة كانت مملكة مستقلة، فكان ربيعة من بنى ثور ملكا على قبيلتى كندة وقحطن (قحطان) المتحالفة مع كندة، منذ أواخر القرن الثانى قبل الميلاد. غير أن مملكة كندة ما لبثت أن فقدت استقلالها بسبب الحروب التى دارت بينها وبين مملكة حضرموت[٣]، وأصبحت تابعة لدولة «ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت»[٤]، وكان يلى أمرها حاكم من قبل ملك سبأ.

لم ترض بعض بطون وعشائر قبيلة كندة بالخضوع والتبعية لملك اليمن، وقررت الهجرة من مواطنها الأصلية، فاتجهت شمالا شأنها فى ذلك شأن القبائل العربية الأخرى التى هاجرت من الجنوب إلى الشمال. فنزلت فى شمالى نجد فى موضع أطلق عليه فيما بعد «غمر كندة»[٥].

كان قيام مملكة كندة على يد ملك حضرموت. ذلك أن حسان بن تبع، قام بعدة حملات فى بلاد العرب وأخضع القبائل العربية التى تنزل فى وسط الجزيرة العربية، ثم ولى أخاه لأمه «حجر بن عمرو آكل المرار»[٦] على تلك

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٤١٩، ٤٨٥؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٧٦.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص٤٧٢.

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢١٦.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٣، ص٢١٨-٢١٩.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص٢١٢.

(٦) كان حجر بن عمرو يعرف بآكل المرار، لأنه أكل المرار فى أحد أسفاره بعد أن تضور جوعاً ولم يجد ما يقات به؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، جـ١، ص٧٤.

القبائل بعد أن قام حجر وقومه من عشائر كندة المهاجرة بمساعدة الملك الحضرمى فى حملاته[١]. وبذلك قامت مملكة كندة فى وسط الجزيرة العربية فى القرن الخامس الميلادى متأخرة عن مملكتى الحيرة والغساسنة، ودانت بالتبعية لملوك اليمن[٢]، مثلما كان من أمر المملكتين الشماليتين وتبعيتهما للفرس والروم.

كان حجر بن عمرو آكل المرار – أول ملوك كندة – الذى وحد صفوف المملكة ووسع رقعة أراضيها بعد أن تغلب على القبائل الشمالية المجاورة فى كل من نجد وبلاد بكر بن وائل وصارت له السيطرة الكاملة على وادى الرمة فيما بين مكة والبصرة[٣].

لما توفى حجر بن عمرو فى الربع الأخير من القرن الخامس الميلادى، خلفه ابنه عمرو بن حجر[٤] فى حكم المملكة. وولى أخاه معاوية بن حجر المعروف بالجون، أمر اليمامة.

سادت العلاقات الطيبة بين مملكة كندة وبين ملوك اليمن فتزوج عمرو المقصور بإحدى بنات حسان بن تبع، أحد ملوك بلاد اليمن. كما أقام ملك كندة علاقات مماثلة مع جيرانه المناذرة ملوك الحيرة. أما علاقاته مع كل من الغساسنة وقبائل ربيعة فكانت على النقيض من ذلك. ويرجع السبب فى ذلك إلى قيام ربيعة بثورة كبيرة بزعامة وائل بن ربيعة للتخلص من التبعية لملوك كندة.

لما رأى المقصور من خروج قبائل ربيعة على طاعته، استنجد بالملك الحميرى «مرشد بن عبد ينكف»، الذى أمده بجيش كبير حارب به وائل بن ربيعة.

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٧٣.

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 85-86.

(٣) Olinder : The kings of kindah, of the family of Akil - Al-Mirar, London, 1927, p. 42.

(٤) كان عمرو بن حجر يعرف بالمقصور لأن ربيعة قصرته على ملك أبيه؛ حمزة الأصفهانى تاريخ سنى ملوك الأرض، ص٩٢.

غير أن عمرا المقصور لقى حتفه فى القتال الذى دار بين الطرفين فى ديار بنى أسد على مقربة من جبل القنان[١].

ولى الحارث بن عمرو المقصور عرش مملكة كندة بعد مقتل أبيه، وساعده على ذلك خاله تبع بن حسان بن تبع[٢]. ويعد الحارث بن عمرو أقوى ملوك كندة وأشدهم بأسا وأعظمهم شأنا، فقد استطاع أن يعيد الهيبة إلى مملكته وأن يوطد نفوذه على قبائل ربيعة، التى لجأت إليه أثر حرب البسوس التى دامت سنين طويلة بين قبيلتى بكر وتغلب من ربيعة[٣]. كما دانت له قبيلة أسد بالطاعة. وفضلا عن ذلك تمكن الحارث من التوغل داخل مملكة الحيرة والجلوس على عرش المناذرة سنة ٥٢٥م[٤].

كان من أهم العوامل التى ساعدت الحارث بن عمرو على تحقيق انتصاراته وتوطيد نفوذه، تلك الظروف التى كانت تمر بها امبراطوريتا الفرس والروم. ففى بلاد الفرس انتشرت الثورات وعمت الاضطرابات أرجاء الإمبراطورية على عهد قباذ (٤٨٨-٥٣١م) بعد أن انتقلت السلطة هناك إلى أيدى الموابذة (رجال الدين) والأغنياء والإقطاعيين. وتظالم الناس فى الأموال والأرزاق، فاغتصب الأغنياء أرزاق الفقراء، وشاع الفساد بين العباد فى كافة أنحاء البلاد. فرأى قباذ أن ينشر مبادئ «المزدكية»، التى تدعو إلى نوع من الاشتراكية البدائية فى الأموال والنساء. يقول الطبرى : «يأخذون للفقراء من الأغنياء، ويردون من المكثرين على المقلين، وأن من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره»[٥]، وكان قباذ قد دعا المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة إلى المزدكية فامتنع عن إجابته طلبه. فلما

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص٤٠١.

(٢) Olinder : The kings of kindah, p. 56.

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢٢٥.

(٤) Olinder : The kings of kindah, p. 65.

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٩٢-٩٣.

عرضها على الحارث بن عمرو ملك كندة، أسرع بتلبيته فعزل المنذر وأقام الحارث بن عمرو مكانه، فدخل مملكة الحيرة وولى أمرها بعد أن طرد منها المناذرة.

أما الروم فكانوا يعانون من إغارات قبائل البلغار والصقالبة على حدودهم الشمالية. فاغتنم الحارث بن عمرو هذه الفرصة وقام من جانبه بشن غارات مستمرة على بلاد الشام. مما اضطر الإمبراطور البيزنطى انسطاسيوس (٤٩١-٥١٨م) إلى عقد معاهدة مع ملك كندة[١]. تنص على أن يوقف آل كندة غاراتهم على بلاد الشام فى مقابل أن يتعاونوا سويا فى التصدى للفرس، وتوطيد سلطان آل كندة فى مملكة الحيرة.

لما استتب الأمر للحارث بن عمرو - ملك كندة - أقام أبناءه ملوكا على القبائل العربية التى تم له إخضاعها، فجعل حجرا على بنى أسد وغطفان، وشرحبيل على بكر بن وائل كلها، ومعد يكرب على قيس عيلان، وسلمة على بنى تغلب والنمر بن قاسط وبنى سعد بن زيد مناة من تميم[٢].

لم يستمر الحارث بن عمرو فى حكم الحيرة طويلا، ذلك أن كسرى أنوشروان، لما اعتلى عرش الإمبراطورية الفارسية خلفا لقباذ سنة ٥٣١م، تنكر للمزدكية وأتباعها واستأصل شأفتهم، ثم ما لبث أن طرد ال كندة من الحيرة وأعاد المناذرة إليها، وولى أمرها المنذر الثالث بن امرئ القيس الملقب بابن ماء السماء[٣].

لما عاد المنذر الثالث إلى مملكة الحيرة واستقرت له الأمور، قام بالإغارة على مملكة كندة حيث أوقع بأهلها هزيمة نكراء، قتل فيها الحارث بن عمرو وأكثر من أربعين أميرا من البيت الكندى[٤].

(١) Olinder : The kings of kindah, p. 74.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص٤٧٢-٤٧٣؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٧٤.

(٣) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض، ص٧١.

(٤) Hitti : History of the Arabs, p. 85.

سادت الفوضى مملكة كندة وتشتت شمل أمرائها وانفصمت عرى وحدتهم، ودب الشقاق بينهم، وجمع كل واحد منهم لأخيه وزحف إليه، فحارب شرحبيل أخاه سلمة في يوم الكلاب الأول(١)، الذى انتهى بمقتل شرحبيل. أما سلمة فقد تعرض للطرد من جانب بنى تغلب بعد انضمامهم إلى ملك الحيرة. ولما أجارته قبيلة بكر بن الحارث، فقد هلك حزناً بعد أن حاصرته الهموم مما تعرض له ملك آبائه(٢)، ولما حاول أخوهم حجر بن الحارث الإغارة على بنى أسد لامتناعهم عن أداء الإتاوة المفروضة عليهم من قبل ملوك كندة، تصدوا له وتخلصوا منه(٣).

وكان حجر بن الحارث قد ترك وصية قبل قيامه بالإغارة على أسد، يوصى فيها أن يلى الحكم فى مملكة كندة أقوى أبنائه وأكثرهم صلابة. فلما لقى مصيره على يد بنى أسد بدأ حامل الوصية يتنقل بين أبنائه ويخبرهم بالأمر، وكلما رأى منهم من يجزع للأمر ويبكى تركه وانتقل لغيره، حتى وصل آخر الأمر عند امرئ القيس الشاعر، أصغر أبناء حجر بن الحارث فلما أخبره بالأمر، ثار وأقسم على الأخذ بثأر أبيه قائلا : «الخمر والنساء على حرام، حتى أقتل من بنى أسد مائة.. وقال : ضيعنى صغيرا، وحملنى دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر»(٤). ثم شرب سبعا، فلما صحا آلى، ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن (طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك ثأره. لما علم بنو أسد بما عزم عليه امرؤ القيس أرسلوا إليه وفدا من قبلهم للمفاوضة، فعرض عليه إحدى ثلاث : القصاص أو الفداء أو النظرة (الإمهال) حتى تضع الحوامل. فتعقد الرايات وتكون الحرب. فرد عليهم بقوله : «لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر فى دم، وإنى لن أعتاض به جملا أو ناقة، فاكتسب بذلك سبّة الأبد، وفتّ العضد، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنّة فى بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١ ، ص٢٢٥؛ النويرى : نهاية الأرب، جـ١ ، ص٤٠٦.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢ ، ص٢٧٤.

(٣) الأصفهانى : الأغانى، جـ٩، ص٨٢.

(٤) النويرى : نهاية الأرب، جـ٣، ص٢٦.

سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقا وفوق الأسنة علقا (دما) ورويدا ينكشف لكم دجاها عن فرسان كندة»[١].

ارتحل امرؤ القيس بعد أن هجر ملذات الحياة الدنيا، وظل يتنقل بين القبائل العربية حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم نصرته على بنى أسد للأخذ بثأر أبيه، ثم ما لبث أن أقبل على رأس القبيلتين حتى انتهى إلى بنى أسد وقاتلهم، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم، وحجز الليل بينهم، فهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم، وقالوا له : قد أصبت ثأرك وانصرفوا عنه[٢].

لما كان المنذر الثالث بن ماء السماء يسعى للتخلص من امرئ القيس، لذلك رأى أن يلجأ إلى قيصر الروم، فتوجه إلى القسطنطينية، حيث استقبله الإمبراطور جستنيان، استقبالا حافلا وأكرم ضيافته. ويروى الإخباريون أنه كان لامرئ القيس مراسلات عاطفية مع ابنة القيصر، فلما علم بنو أسد بذلك، أرسلوا رجلا من قبلهم يدعى «الطماح» إلى القسطنطينية للوشاية به عند الامبراطور. فبعث القيصر إلى امرئ القيس بحلة مسمومة، ما أن لبسها حتى أسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمى «ذا القروح»، ثم ما لبث أن مات ودفن في سفح جبل عسيب ببلدة أنقرة من بلاد الروم[٣].

أدى فشل امرئ القيس وعجزه عن استرداد ملك آبائه ومقتله فى نهاية الأمر، إلى أن هاجرت العشائر والبطون الكندية إلى الجنوب، فعادت إلى أوطانها الأصلية. وكونوا لهم إمارة فى حضرموت بزعامة قيس بن معد يكرب.

ولى إمارة كندة بعد قيس بن معد يكرب ابنه الأشعث بن قيس الذى سار على رأس وفد يتألف من ستين رجلا من أشراف كندة إلى المدينة المنورة، حيث التقى وأصحابه برسول الله ﷺ وأعلنوا إسلامهم[٤].

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ٩، ص١٠٣.

(٢) النويرى : نهاية الأرب، جـ٣، ص٢٥.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص ١٢٤-١٢٥؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٧٦.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ٢، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٧٦.

الفصل الخامس

الحياة السياسية فى الدويلات العربية الجنوبية

١ - دولــة معــين.

٢ - دولــة حضرموت.

٣ - ممــلكة قتبــان.

٤ - دولــة ســبأ.

٥ - دولــة حمــير.



الحياة السياسية فى الدويلات العربية الجنوبية

١ - دولـة معـين
(١٣٠٠ ق.م - ٦٥٠ ق.م)

يرجع أصل المعينيين إلى عمالقة العراق، الذين عاشوا فيما بين النهرين، واختلطـوا بجيرانهم السومريين أو الأكاديين من سكان أعالى جزيرة العرب، ولما ضاقت بهم سبل العيش بظهور دولة حمورابى فى بابل هاجروا مع غيرهم إلى جزيرة العرب[١]، وظلوا يتنقلون فى أرجائها حتى استقر بهم المقام فى منطقة الجوف الجنوبية بين نجران وحضرموت واتخذوا من مدينة قرناو عاصمة لهم[٢].

قامت دولة المعينيين فى (معين)[٣] التى ينتسبون إليها منذ الألف الثانى قبل الميلاد، فنشأت لهم حضارة راقية هناك اعتمدت على الزراعة والتجارة، حيث كانت تلك المنطقة تتمتع بمناخ معتدل ملائم لازدهار الزراعة، وتتمتع بموقع هام على طرق التجارة المعروفة وقتذاك.

عثر الأثريون على أسماء ستة وعشرين ملكا من ملوك معين خلال استكشافاتهم وحفرياتهم فى منطقة خرائب معين. وهم يرون أن الحكم فى تلك الدولة كان وراثيا ينتقل فى داخل الأسرة الواحدة من الأب إلى الابن أو إلى الأخ وربما حكم الاثنان معاً فى وقت واحد[٤].

---

(١) Guidi : L'Arabie Antéislamique, Paris, 1921, p. 64.

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 54.

(٣) معين : اسم حصن باليمن؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص١٦٠.

(٤) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 95.

كان نظام الحكم فى الدولة المعينية لا مركزيا، فكان يمثل الملك فى كل مقاطعة نائب له يلقب (كبير)، يتبعه مجلس نيابى يعرف باسم (سـور)، يجتمع فيه الأشراف للحكم بين الناس، وتقرير الضرائب وإعلان الحرب، وإلى جانب ذلك كانت هناك حامية عسكرية تتبع نائب الملك، ولعـل من أهم المقاطعات المعينية التى قامت خارج قرناو، مقاطعة واحة ديدان (العلا) فى الناحية الشمالية الغربية من الجزيرة العربية. ومقاطعـة واحـة معـان، فتم تعـيين نائب للملك (كبير) .فى كل منهما، كان يقـوم بجمع الضرائب وإرسالها إلى قرناو.

تدل النقوش المصرية القديمة والكتابات اليونانية على وجود علاقات تجارية كبيرة بين الدولة المعينية وبين كل من مصر الفرعونية واليونان، فكانت القوافل التجارية تحمل البخور والمر إلى تلك البلاد، إلى جانب ما يرد إليها من منتجات من الشرق الأقصى عبر المحيط الهندى. وفضلا عن ذلك كان هناك جالية معينية تقيم فى مصر من أيام بطليموس الثانى حيث تقوم بالإشراف على تزويد معابد مصر بالبخور[١].

قام ملوك الدولة المعينية ببناء عدة قصور والتى كانت تعرف وقتذاك بالمحافد وهى تتألف من بناء ضخم تحيط به الأسوار العظيمة، فكان يشبه الحصن أو القلعة ومن أشهر محافد دولة معين، براقش ومعين، ويعرف صاحب المحفد بلفظ (ذو) الذى يضاف إلى اسم المحفد فيقال (ذو براقش) أى صاحب براقش، وكان يطلق اسم مخلاف على المحافد التى كان يلحق بها بعض القرى والمزارع[٢].

---

(١) جـواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص ٣٩٧-٣٩٨.

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية، ص٢٥.

٢ - دولة حضرموت

(١٠٢٠ ق.م - ٢٩٠م)

قامت دولة حضرموت[١] في جنوب بلاد العرب إلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب في منطقة واسعة في شرق عدن قرب البحر، وتحيط بها رمال كثيفة تعرف بالأحقاف والتي يوجد بها قبر هود عليه السلام[٢]. وتشتهر حضرموت بوجود مدينتي تريم وشبام وحولهما أقيمت عدة قلاع وقرى[٣]. ويرجع اسم حضرموت إلى «حضرموت بن قحطان» الذى نزل هذا المكان فسمي به فهو إذن اسم موضع واسم قبيلة.

وتدل النقوش التي خلفها «شكم سلحان بن رضوان»، أحد كبار موظفي دولة حضرموت أن الملك «يشكر ايل يهرعش بن أبيع» أمر بإقامة التحصينات اللازمة لقلعة «قلت» التي كانت تشرف على واد بين مدينة «حجر» وميناء «قنا» وذلك لحماية منطقة حجر من الغزو الخارجي، وبخاصة إغارات الحميريين، الذين طالما هددوا حضرموت وتدخلوا في شئونها، وفضلا عن ذلك فقد تم إقامة حصون أخرى على لسانين بارزين في البحر لحماية الخليج الواصل بينهما، كما أمر حضرموت ببناء الأسوار القوية والأبراج العالية حول مدينة «ميفعة» للدفاع عنها. ومما يجدر ذكره أن تلك النقوش تعتبر من أقدم النقوش التي كتبت عن دولة حضرموت وهي ترجع إلى القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد[٤].

قامت علاقات ودية بين دولة حضرموت ومملكة سبأ على النقيض من العلاقة مع جيرانهم الحميريين، فأرسل ملك سبأ وفدا من قبله للمشاركة في

(١) Philby : The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 141.

(٢) ياقوت : معجم البلدان : جـ٢، ص٢٧٠.

(٣) البكرى : معجم ما استعجم، جـ٢، ص٤٥٥.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص١٣٢-١٣٥.

الاحتفال الخاص بتتويج الملك الحضرمى (العزيلط) الذى قام بتعمير مدينة شبوة[١] عاصمة الدولة، وأقام بها معبدا من الحجارة بعد الخراب الذى حل بها، وقد أمر الملك العزيلط بتقديم القرابين فى حصن أنود للآلهة شكرا واحتفالا بهذه المناسبة، فذبح ٣٥ ثورا، ٨٢ خروفا، ٢٥ غزالا، ٨ فهود[٢].

تدل الآثار المكتشفة فى مدينة شبوة، على ازدهار الحياة الزراعية فى حضرموت، فوجدت بقايا السدود التى كانت مقامة على وادى شبوة لحجز مياه الأمطار والإفادة منها فى رى المناطق المزروعة، كما اكتشفت هناك بقايا سدود وقنوات كانت تحمل المياه إلى المناطق البعيدة الصالحة للزراعة والمراعى.

كانت مدينة قنا التى تقع إلى الشرق من عدن تمثل الميناء التجارى الرئيسى لمملكة حضرموت حيث يتم تصدير اللبان والبخور والمر منها برا وبحرا، وقد اهتم بها ملوك حضرموت اهتماماً كبيراً. حيث أقيم فيها حصن كبير بنى حوله سور من الحجارة والصخر والخشب وقد اكتشف هذا الحصن على يد الضابط الإنجليزى «جيمس لستد» عام ١٨٣٤م، وهو المعروف باسم حصن الغراب[٣].

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب، ص٩٨.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص١٤٧.

(٣) جواد على : المرجع السابق، جـ٢، ص١٦٢.

٣ - مملكة قتبان

كانت مملكة قتبان تقع فى النواحى الغربية من بلاد اليمن، وكانت تقوم بينها وبين البحر مملكة أوسان الصغيرة، وأهم مدنها شقرة على ساحل المحيط الهندى[١]. وتدل النصوص لتى اكتشفها العلماء على أن الملك (يدع اب ذبيان)، أراد حمل لقب ملك مع لقب مكرب، يعنى أنه كان ملكا كاهنا وان اقتصر فى الفترة الأخيرة من حكمه على لقب «ملك».

قام الملك يدع اب ذبيان بأعمال انشائية كثيرة لعل من أهمها بناء المدخل الجنوبى لمدينة (تمنع) وتجديد بيت (ود وعشتر)، وإنشاء طريق عبر الجبال الوعرة يصل بين تمنع (تمنا) عاصمة قتبان وبين أطراف المملكة. كما أمر هذا الملك بوضع أصول التشريعات القانونية لرعايا مملكته، فقام مجلس الملكة المعروف باسم (المزود) والذى يتألف من رؤساء المدن والقبائل، بوضع القوانين وتجهيز مسودات اللوائح، ثم عرضها على الملك لإقرارها والأمر بتنفيذها، فالملك وحده هو الذى يملك حق إصدار القوانين ونشرها[٢].

كانت العلاقة بين ملوك قتبان وبين كهان المعابد قوية لدرجة أن الدولة منحت إدارة المعابد حق استغلال أراضى الدولة، وفرضت على القبائل ضريبة بلغت عشر دخلها تقدم للمعابد كهبة، ذلك أن كهنة المعابد كانوا يسمون «المطعمون من الله» و«المطعمون على يد عم»، وعم هو كبير آلهة قتبان وذلك لاعتقادهم أن الله قد فوضهم فى إدارة أراضيه الدنيوية، وأن الضرائب التى يحصلون عليها من القبائل إنما هى دخل لله سيد الأرض[٣].

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص١٧١-١٧٢.

(٢) جواد على : المرجع السابق، جـ٢، ص١٨٩-١٩٣.

(٣) ديتلف نلسن : التاريخ العربى القديم (مترجم)، ص١٤٩.

ومن أهم النصوص التى عثر عليها مكتوبة على نقوش مدينة تمنع (تمنا) عاصمة دولة قتبان، هو ما جاء فيه ذكر اسم الملك شهر هلال بن ذر اكرب - من ملوك قتبان المتأخرين، ويقول النص : «قانون أصدره شهر هلال بن ذر اكرب ملك قتبان، لشعب قتبان، وذى علش ومعين وذى عثتم أصحاب أرض شدو»، وقد نظم هذا القانون واجبات هذه الشعوب نحو ملك قتبان وقواعد استغلال الأراضى، وتعيين العمال عليها، فضلا عن الإشارة إلى العقوبات التى توقع على المخالفين[١].

كذلك تدل الآثار التى خلفتها لنا دولة قتبان واكتشفت فى منطقة تمنع (تمنا) العاصمة التى تقع فى وادى بيحان على مدى الاهتمام الذى حظيت به الزراعة على يد حكام تلك المملكة فقد كشفت الحفائر عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوفير المياه لرقعة واسعة من الأراضى[٢]، مما جعل منها منطقة خصبة كثيرة المياه يانعة البساتين، وفضلا عن ذلك فقد أقام ملوك دولة قتبان نحو ٦٥ معبدا فى العاصمة تمنا التى كانت من أكبر المدن العربية فى الجنوب[٣].

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص٢١٣.

(٢) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة (مترجم)، ص١٩٩.

(٣) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 97.

٤ – دولة سبأ

كانت دولة سبأ تقع بين معين فى شمال اليمن وقتبان فى الجنوب[١]، وكان لفظ «سبئ» يطلق بصفة عامة على جميع تجار العرب[٢] لما كان لرعايا تلك الدولة من شهرة عظيمة وقتذاك.

قامت دولة سبأ مجاورة ومعاصرة للدولة المعينية، ولما قويت شوكة السبئيين واشتد أمرهم انتزعوا سلطان معين، وأسسوا دولتهم فى الجزء الجنوبى من جزيرة العرب واتخذوا من قلعة صرواح عاصمة لدولتهم[٣].

تنسب دولة سبأ إلى «عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، الملقب باسم سبأ[٤]، لأنه كان أول من سبى من العرب[٥]، كما قتل من الأمم وسبى من الذرارى والعيال الكثير[٦]، وكان من أشهر أبنائه حمير وكهلان اللذان يرجع إليهما نسب القبائل العربية الجنوبية.

كان هناك مملكة قوية على درجة عالية من الرقى والازدهار فى سبأ منذ القرن العاشر قبل الميلاد، ترأسها ملكة، وكان لهذه الملكة نفوذ كبير على الجهات الشمالية المتاخمة لحدودها فى تيماء ومعان وديدان (العلا)، كما كانت لها السيادة على الطرق التجارية التى تربط جنوب غرب جزيرة العرب ببادية الشام وبادية سيناء ومصر[٧]. وليس أدل على ما بلغته هذه المملكة من الحضارة والقوة والازدهار أن ذكرت فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

---

(١) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 93.

(٢) O'leary : Op. Cit., p. 86.

(٣) صرواح : هو كل بناء مرتفع؛ ياقوت : معجم البلدان، جـ٣، ص٤٠٢.

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ١، ص٢١١.

(٥) ابن قتيبة : المعارف، ص ٢٧١.

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص١٥٨.

(٧) الويس موسل : شمال الحجاز (مترجم)، الاسكندرية، ١٩٥٢، ص ٩٦-٩٧.

﴿قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين. قالت يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾[١].

تشير الآيات المباركات إلى أن هذه المملكة كان لها حكومة قوية، ومجلس شورى يعرف باسم مجلس الملأ ترجع إليه الملكة فى الأمور المصيرية، فلما قرأت رسالة سليمان، جمعت وزراءها وأكابر دولتها لمشورتهم. فأشاروا عليها بالحرب والمدافعة قائلين نحن أبناء حرب وجلاد ومنعة، غير أنهم طبقاً للقواعد المنظمة لطريقة الحكم فى مملكة سبأ، تركوا لها تدبير الأمر واتخاذ ما تراه وعليهم الطاعة والتنفيذ[٢].

يتفق المؤرخون على تقسيم العصر السبئى إلى حقبتين تاريخيتين طبقاً للألقاب التى اتخذها ملوك هذه الدولة ووجدت على النقوش الأثرية المكتشفة فى المنطقة الجنوبية الغربية من جزيرة العرب.

امتدت الفترة الأولى فى حياة دولة سبأ من (٩٥٠-٦٥٠ ق.م) وكان لقب الملك فى تلك الحقبة «مكرب سبأ» وهو لقب تغلب عليه الصبغة الدينية. وتدل على مدى القداسة التى اعتمد عليها الملوك فى حكم دولتهم، فقد كان ملك سبأ آنذاك ملكا وكاهنا فى آن واحد[٣]، وقد عثر فى النصوص على نحو سبعة عشر ملكا لقبوا بهذا اللقب[٤]، ومنهم ملكة سبأ المشهورة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم. وكانت عاصمة الدولة فى الفترة الأولى مدينة صرواح التى تقع غربى مأرب وقد عثر فيها على نقش طويل مكتوب

---

(١) سورة النمل : الآيات (٢٩-٣٣).

(٢) محمد أحمد جاد المولى : قصص القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٧٨، ص١٩٩.

(٣) Nicholson : A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1962, p. 10.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص٣٠٧.

على الجدار الخارجي لمعبد صرواح الذى بناه المكرب «يدع ايل ذريح» فى القرن الثامن قبل الميلاد[١].

ومن أشهر مكاربة تلك الحقبة المكرب «سمه على ينوف» صاحب فكرة ومنفذ أكبر مشروع للرى فى جزيرة العرب فقد شيد «سد رحب» للسيطرة على مياه الأمطار والإفادة من السيول وقام ابنه المكرب «يثع أمر وتر» بإدخال التحسينات على «سد رحب» وتعليته وتقويته، وبناء «سد هباذ» على الجانب الأيسر، واكتمل نظام الرى ببناء سد حبابض الذى أفاد فى زراعة أراضى شاسعة لم ترو بالمياه من قبل، وبذلك يعتبر «يقع أمر وتر» وأبوه «سمه على ينوف»[٢] قد وضعا الأسس التى بنى عليها سد مأرب، أشهر السدود التى عرفت فى بلاد العرب قبل الإسلام، ولعل هذا السد هو السبب فى إطلاق المؤرخين على الجهات الجنوبية القريبة من جزيرة العرب اسم بلاد العرب السعيدة.

يعد عهد المكرب «كرب ايل وتار» من أهم فترات العصر السبئى، ذلك أنه كان آخر المكربين، فقد خلع لقب مكرب (الملك الكاهن) وتلقب بلقب «ملك» وبذلك تحولت الدولة الثيوقراطية إلى حكومة دنيوية. ومن ناحية أخرى خلف لنا هذا الملك العظيم نقشا هاما عثر عليه فى صرواح اعتمد عليه المؤرخون فى محاولتهم تدوين تاريخ دولة سبأ، فقد ضمنه «كرب ايل وتار» كل أعماله الحربية وجهوده الدينية والدنيوية.

يبدأ النص[٣] بتوجيه الشكر للألهة (الموقاه والعثر وهوابس) التى أنعمت على المكرب «كرب ايل وتار» صاحب هذا النقش، فوحدت صفوفه وباركت أرضه ووهبتها الأمطار، وساعدته على بناء السدود وحفر القنوات، وعلى ذلك فقد نحر لها الذبائح وقدم لها القرابين.

---

(١) أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٦٢.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص١٨٢.

(٣) جواد على : المرجع السابق، جـ٢، ص٢٨٦-٢٨٨.

يتحدث النص، بعد شكر الألهة عن أهم الأعمال الحربية التى قام بها صاحبه، الذى أغار على كثير من البلاد المجاورة. وانتصر على «سأد» و«نقبه» وأحرق جميع مدن «معافر» وقهر «ضبر» و«ظلم» و«أروى» وأحرق منهم وقتل منهم ثلاثة آلاف وأسر ثمانية، وضاعف عليهم الجزية التى يدفعونها ومن بينها البقر والماعز كما انتصر المكرب على «ذبحان ذوقشر» وعلى «شرجب» وأحرق مدنهم، كما استولى على جبل «مة» و«وادى صبر» وجعلهما وقفا للإله «الموقاه»، ولبنى قومه من السبئيين.

أما فى مجال العلاقات الخارجية، فيروى لنا النص أن مملكتى حضرموت وقتبان، كانتا حليفتين لدولة سبأ، فلما تقدم ملك دويلة أوسان واستولى عليهما، اضطر «كرب ايل وتار» إلى الانضمام إلى حلفائه ومساعدتهم، فقامت الحرب بين سبأ وأوسان وقد استطاع مكرب سبأ إخضاع أوسان وهزيمتها بعد أن قتل من رعاياها ألفا وأسر خمسة آلاف وأحرق كثيراً من مدنها، ثم ضمها إلى سبأ، وأعاد إلى مملكتى حضرموت وقتبان ما كان لهما من أملاك فى أوسان.

لم يكتف «كرب ايل وتار» بما أحرزه من انتصارات فى معاركه السابقة فأرسل عدة حملات إلى كل من «نشان»، و«سبل» و«هرم» و«فنن» وإلى «نجران» فكتب لها نصرا مؤزرا، وغنمت جيوشه مغانم كثيرة من بينها أكثر من ستين ألف رأس من الماشية.

يتحدث الوجه الآخر من النقش عن أهم التحصينات التى أقامها «كرب ايل وتار» للدفاع عن مدن مملكته، وعن خزانات المياه التى أصلحها أو شيدها، فضلا عن حدائق النخيل التى غرسها[١].

تميزت فترة العصر السبئى الثانى (٦٥٠-١١٥ ق.م) باتخاذ ملوك سبأ لقب «ملك» والتجرد من الصفة الدينية، وقد حدث هذا التحول فى عهد «كرب ايل وتار» الذى تخلى عن لقب مكرب فى أواخر عهده واتخذ لقب

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص٢٨٩-٢٩٥.

«ملك سبأ» بعد أن نقل عاصمة ملكة من صرواح إلى مدينة مأرب[١] واتخذ من «قصر سلحين» داراً للمملكة[٢].

كما قام الملك «كرب ايل وتار» بتنظيم طريقة جمع الضرائب فجعل تحصيلها من أهم الواجبات التى كانت تناط برؤساء القبائل، فضلا عن مسئوليتهم عن بناء السدود وحفر القنوات وكل ما من شأنه الارتقاء بالنواحى الزراعية[٣].

اهتم خلفاء الملك «كرب ايل وتار» بتحصين مدينة مأرب العاصمة الجديدة لمملكة سبأ، وإنشاء المعابد الدينية فيها فقام «سمه على ذريح» الذى خلف «كرب ايل وتار» بإقامة وتعلية جدار معبد الإله «الموقاه» فى محرم بلقيس فى مأرب وأمر بترميم أبراجه[٤].

أما الملك «يكرب ملك وتار» فوجه اهتمامه نحو إصدار القوانين الضريبية التى ترجع إلى عهد «يكرب ملك وتارش وهى عبارة عن وثيقة تبيح لشعب سبأ وقبيلة «بهبلج» حق استغلال أرض زراعية فى مقابل ضريبة معينة تدفع للدولة، إلى جانب واجبات عسكرية تفرض عليهم فى أيام السلم والحرب.

على الرغم من تخلى ملوك سبأ عن الألقاب ذات الصبغة الدينية، إلاأن علاقاتهم بالإله كانت على جانب من التوقير والاحترام، فيحدثنا النقش الذى

---

(١) مأرب : كلمة أرامية الأصل مركبة من لفظين هما، ماء وراب أى الماء الكثير أو السيل الكبير. وتقع مأرب على بعد مائة كيلو متر شرقى صنعاء فى العصر الحاضر. وكان يحيط بالمدينة كما يروى ياقوت سور قوى له أبراج حصينة.

أنظر، ياقوت : معجم البلدان، جـ٣، ص١٨١.

جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، ص١٤٨؛ أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 54-55.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص٣٢٢.

(٤) Philby : The Background of Islam, p. 142.

سجله «يثع كرب» كاهن الآلهة عن شروط الصلح التى وضعت بين سبأ وقتبان على عهد الملك «يثع أمربين» فى وثيقة دونت فى مأرب، ثم وضعت فى معبد الإله «الموقاه» تمجيداً لإله سبأ الكبير[١].

كذلك اهتم الملك «نشأ كرب يهأمن» بترميم تماثيل الآلهة «عشتر ذى ذب» بعد أن أصابها بعض التلف، كما خصص لآلهة الشمس الفائقة التى عرفت باسم «تنف ربه ذى غفران» أربعة وعشرين وثنا، ملتمسا منها إبعاد الضر عنه وعن أهل بيته ومملكته.

وقدم الملك «أبو كرب بن أسلم» تمثالين من البرونز للإله الموقاه تعبيراً عن شكره العميق لمساعدة الإله فى التصدى لهجمات الأعراب الذين أغاروا على جماعة من السبئيين ونجاحه فى استرداد ما غنموه من أسلاب وأسرى، وذلك طبقاً للنقش الذى عثر عليه فى منطقة مأرب ويعد من أقدم النصوص التى تشير إلى غارات الأعراب على أهل سبأ وعلى قوافلهم التجارية[٢].

كان من أهم أسباب زوال مملكة سبأ، تصدع سد مأرب الذى كان يعتبر السبب الرئيسى فى رخائهم وتقدم بلادهم، ذلك أنهم بغوا فى الأرض وأكثروا فيها الفساد من كثرة النعم ونسوا أن الله عز وجل واهب النعم والخير الكثير فأراد الله أن يذيقهم وبال أمرهم ليكونوا عبرة لغيرهم. ومثلا لمن يأتى من بعدهم، فتهدم السد بأمر الله وفاض السيل العرم وحل الخراب بأراضى المملكة، قال الله تبارك وتعالى فى محكم آياته : ﴿لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾[٣].

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص٣٢٠.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص٣٢٧-٣٢٩.

(٣) سورة سبأ : الآيات ١٥-١٧.

٥ - دولة حمـير

كانت بلاد حمير تقع بين منطقة نفوذ مملكة سبأ وبحر القلزم[١]. فيما يسمى بريدان، ولم تلبث دولة حمير أن ازدهرت وقويت شوكتها فتغلب الحميريون على السبئيين وصار ملوك حمير يلقبون «ملك سبأ وذو ريدان»[٢] أى ملك سبأ وصاحب ريدان وبذلك قامت دولة حمير سنة ١١٥ق.م واتخذ ملوكها من (ظفار)[٣] عاصمة لدولتهم. وتنتسب دولة حمير إلى «حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان» أول من توج بالذهب[٤].

يتـفق المؤرخـون علي تقسيم تاريخ دولة حمير إلى حقبتين زمنيتين، طبقاً للقب ملوك هذه الدولة وقد امتدت فترة حكم دولة حمير الأولى من سـنة ١١٥ق.م إلى سنة ٣٠٠م واتخذ ملوكها لقب «ملك سبأ وذو ريدان». أما دولة حمير الثانية فبدأت حوالى ٣٠٠م، وتلقب ملوكها «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات»[٥]، وذلك بعد أن تغلبت حمير على حضرموت وضمتها إلى ملكها.

كان «الشرح يحصب» من أشهر ملوك العصر الحميرى الأول، الذى تحدثت عنه المصادر العربية كثيراً، وقد نسبت إليه خطأ بلقيس. فزعمت

---

(١) O'Leary : Arabia Before Mohammad, p. 96.

(٢) ذو ريدان : صاحب ريدان، وكان أمراء اليمن وشيوخها قبل الإسلام يتخذون القصور التى كانت كالحصن أو القلعة تحيط بها الأسوار ويقيم فيها الأمير أو الشيخ، وكان القصر يسمى مخفد وعرف صاحب المخفد أو القصر بلفظ «ذو» فيقال ذو سلحين وذو ريدان، ومن أشهر المحافد : غمدان وناعط وصرواح وسلحين. غير أن قصرى غمدان وسلحين كانا من أشهر المحافد ذكرا عند مؤرخى العرب.
أنظر، جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية، ص٢٥.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص١٠٠-١٠١.

(٤) ابن قتيبة : المعارف، ص٢٧١؛ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٣٢٩.

(٥) Hitti : Hitory of the Arabs, p. 60 .

بعضها[١] أنها كانت ابنته، والأخرى أنها كانت حفيدته[٢]، على أن حقيقة الأمر هو عدم انتماء بلقيس التى عاصرت سليمان بن داود عليهما السلام إلى «الشرح يحصب» ملك سبأ وذو ريدان، ذلك أن بلقيس عاشت فى القرن العاشر قبل الميلاد، بينما العصر الحميرى يبدأ فى القرن الثانى قبل الميلاد. كان من أهم الأعمال الحربية التى قام بها «الشرح يحصب» غزوه حضرموت وانتصاره عليهم وعودته بالكثير من الغنائم والأسرى[٣]. كما اشترك «الشرح يحصب» مع أخيه «يأزل بين» فى حربه ضد الأحباش فى وادى سهام ووادى سرود على بعد حوالى أربعين كيلو مترا شمالى الحديدة[٤].

ومما تجدر الإشارة إليه أن اسم صنعاء (صنعو) ظهر على عهد الملك «الشرح يحصب»، فقد تردد اسمها فى النصوص التى تحدث عن أعمال هذا الملك، الذى كان يقيم فى قصرى غمدان (غندان) وقصر سلحين مقر الملوك أى فى صنعاء ومأرب، وعلى ذلك يرجع الفضل فى ظهور صنعاء إلى عهد «الشرح يحصب»، وقد ازدادت مكانتها على مر الأيام حتى صارت عاصمة اليمن ومقر الحكام حتى وقتنا الحاضر.

كذلك كان «ياسر يهنعم» وابنه «شهر يهرعش» من أعظم ملوك دولة حمير، فقاد «ياسر يهنعم» الحملات الحربية فى فتوحات عظيمة، فوطئ من الأرض موطئا عظيما، ودوخ الشام ومصر وقبض أقواتهما، كما امتدت فتوحاته إلى الحبشة وإلى بلاد الروم والترك، فلما حقق هذا الملك انتصاراته الباهرة أمر بوضع تمثال من نحاس كتب عليه النقش التالى : «أنا الملك الحميرى ياسر يهنعم اليعفرى، ليس وراء ما بلغته مذهب»[٥].

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ١، ص٤٨٩؛ الهمدانى : الإكليل، العراق سنة ١٩٣١، جـ٢، ص٨٦.

(٢) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض، ص٨٣.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص٤٢٣.

(٤) Philby : The Background of Islam, p. 94

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٥٢.

أما الملك «شمرير عش» فقد غزا أرض العراق وفارس وخراسان وفتح مدائنها وخرب مدينة الصغد وراء نهر جيجون أصبحت تعرف بسمرقند[١].

ومن ناحية أخرى وضع «شمر يرعش» التشريعات الخاصة برعاياه فيما يتصل ببيع وشراء المواشي والرقيق، وقد حددت تلك التشريعات فترة شهر يصبح بعدهاالبيع نهائياً، كما حددت فترة التراجع بين البائع والمشترى فيما يتراوح بين عشرة أيام وعشرين يوماً، وأكدت أيضاً على أن فترة الضمان للحيوان المشترى هي سبعة أيام فإذا هلك بعدها، وجب على المشترى دفع ثمنه كاملا[٢].

ولعل من أشهر أعمال «شمر يرعش أنه اتخذ لقب ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات فى النصف الثانى من عهده وذلك بعد أن تمكن من الاستيلاء على حضرموت وعلى السواحل الجنوبية التى عرفت باسم يمنات[٣]. وبذلك يمثل عهده فترة الانتقال من العصر الحميرى الأول إلى العصر الثانى.

كان لمكانة «شمر يرعش» عند مؤرخى العرب أن قالوا بأنه «تبع» الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم : (أهم خير أم قوم تبع)[٤]، «وأصحاب الأيكة وقوم تبع)[٥] وذلك لأنه : «لم يقم للعرب قائم قط أحفظ لهم منه، فكان العرب جميعاً بنو قحطان وبنوعدنان شاكرين لأيامه، وكان أعقل من رأوه من الملوك وأعلاهم همة وأبصرهم غورا، وأشدهم مكرا لمن حارب فضربت به العرب الأمثال[٦].

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٣، ص٢٤٧.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص ٥٤٠-٥٤١.

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 60 .

(٤) سورة الدخان : آية (٣٧).

(٥) سورة ق : آية (١٤).

(٦) وهب بن منبه : كتاب التيجان فى ملوك حمير، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ، ص٢٢٢.

لما اعتلى الملك «أب كرب أسعد» عرش دولة حمير فى أوائل القرن الخامس الميلادى[1]، أحدث تطوراً جديداً فى الألقاب التى اتخذها ملوك هذه الدولة فأضاف إلى لقبه «ملك سبأ وذوريد أن وحضرموت ويمنات» جملة «وإعرابها فى الجبال والتهائم». ويرجع السبب فى ذلك إلى قيام هذا الملك بإخضاع الأعراب الضاربين فى الهضاب وجنوب نجد وتهامة وفرض سيطرته عليهم، وبذلك يكون «أب كرب أسعد» قد سار على نهج أسلافه فى اتخاذ الألقاب التى تدل على امتداد النفوذ وحدود الدولة.

وفضلا عن ذلك قام «أب كرب أسعد» بعدة فتوحات شملت الحيرة التى نزل بها قوم من الأزد لخم وجذام وعاملة وقضاعة فبنوا وأقاموا فيها، والموصل وأذربيجان فلقى الترك فهزمهم ثم عاد إلى اليمن فهابته الملوك وبعثوا إليه بالهدايا الثمينة[2].

كذلك قام «أب كرب أسعد» ببناء حصن فى وادى مأسل الجمح (على الطريق بين مكة والرياض) ليكون معقلا لقواته التى تقوم على خدمة وحماية الطريق الذى يربط اليمن بنجد وشرق الجزيرة العربية من هجوم القبائل التى كانت تغير على القوافل التجارية. كما ينسب إلى أب كرب أسعد، أهم الطرق البرية التى تربط المناطق الزراعية الجنوبية بالمناطق الشمالية وهو «درب أسعد كامل» الذى يمتد من الجنوب حتى يصل الطائف متصلا بطريق الحجاز[3].

وتذكر بعض المصادر العربية أن «حسان بن عبد كلال» كان من أشهر ملوك دولة حمير، ذلك أنه أراد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن ليجعل حج البيت عنده وإلى بلاده، فسار فى حمير وقبائل من اليمن عظيمة متجهاً إلى مكة، حتى نزل «نخله» فخرجت إليه قريش بقيادة فهد بن مالك

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٢، ص٥٧١.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ١، ص١٥٦٧؛ البكرى : معجم ما استعجم، جـ٢، ص٤٧٩.

(٣) جواد على : المرجع السابق، جـ٢، ص ٥٧٣-٥٧٧.

وهزمته شر هزيمة، وأسر حسان بن عبد كلال[١]. ويرى المؤرخون أن حكم حسان بن عبد كلال كان فى منتصف القرن الخامس الميلادى ٤٥٥-٤٦٠م[٢].

اعتلى عرش دولة حمير بعد حسان بن عبد كلال عدة ملوك، كان آخرهم «زرعة ذو نواس بن تبان أسعد أب كرب (٥١٥-٥٢٥م) وقد اشتهر فى التاريخ بذى نواس، كما اشتهر عهده بالاحتلال الحبشى لليمن.

كان للموقع الجغرافى المتميز لبلاد اليمن فى الركن الجنوبى الغربى لجزيرة العرب، أثر كبير فى توجيه أنظار أباطرة الفرس والروم، وطمعهم فى الاستيلاء عليها من أجل السيطرة على أهم مراكز التجارة البرية والبحرية فى العالم المعروف وقتذاك.

اتخذ الرومان من نشر المسيحية وسيلة لتحقيق أغراضهم فى مد النفوذ الرومانى على بلاد العرب الجنوبية، فأرسلوا رهبانهم فى بعثات تبشيرية إلى تلك البلاد لبث تعاليمهم بين سكان الحضر والبادية وتهيئتهم لقبول السيادة الرومانية[٣].

وكانت اليهودية قد بدأت تعرف طريقها إلى بلاد اليمن منذ تدمير القدس على عهد «تيتوس» سنة ٧٠م، وازداد انتشارها خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وبلغت أقصى مدى لها فى أوائل القرن السادس الميلادى ذلك أن آخر ملوك دولة حمير كان يهوديا وهو ذو نواس، الذى وقف فى وجه رهبان المسيحية وتصدى لمحاولاتهم الرامية إلى نشرها بين رعايا الدولة.

لما رأى الأحباش الذين كانوا يدينون بالمسيحية وصارت بلادهم ولاية رومانية مسيحية، أن حركات التبشير لم تؤت ثمارها فى بلاد اليمن، عمدوا

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٢٦٣.

(٢) Philby : The Background of Islam, p. 143.

(٣) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب، ص٣٦.

إلى التدخل العسكرى، فأغاروا على اليمن، واستطاعت جيوشهم الانتصار على ذى نواس فى بادئ الأمر واضطرته إلى الالتجاء إلى الهضاب والجبال. غير أنه ما لبث أن أعاد ترتيب قواته وتنظيم جنده وهاجم الأحباش وانتصر عليهم، ولم يكتف بذلك، فأغار على نجران معقل المسيحية فى بلاد العرب الجنوبية واستولى عليها بعد حصار دام سبعة أشهر، وانتقم من أهلها شر انتقام[١]، ذلك أنه جمع سادة أهل نجران، وأصحاب الزعامة فيهم وقال : إنى رأيت - كرما وتفضلا - قبل أن يستحر فيكم القتل، وينالكم الأذى أن أخيركم بين اليهودية دينى ودين أسلافى وبن ما اعتنقتموه من دين جديد، ولست بصانع لكم العذاب حتى تفكروا، ولا بمعمل فيكم السيف حتى تتدبروا. فقالوا : إنما النصرانية دين أشربته نفوسنا.. ودخل فيما بين شغاف قلوبنا، وما لنا عنه محيص ولامعدل. فلما رأى إصراراً وعناداً وتمسكاً بالنصرانية واعتصاماً، أمر بشق أخدود فى الأرض، وأحضر وقوداً وحطبا، ثم أشعلوا النار وأخذوا النصارى مقيدين يلقونهم فى لهيبها، لم يعفوا شيخا ولا امرأة عجوزا ولا طفلا رضيعاً، حتى خلت نجران من النصارى، ولم يبق بها غير اليهود[٢]. قال تعالى : ﴿قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾[٣].

أما عن موقف الفرس فإنهم لما أدركوا أغراض الرومان السياسية والاقتصادية من وراء نشر المسيحية فى اليمن، وجهوا جل اهتمامهم إلى اعتراض تجارة الروم أثناء اجتيازهم اليمن لتجارتهم إلى بلاد الهند بإرسال جنودهم إلى شواطئ الخليج الفارسى من ناحية حدود بلاد العرب، وصارت لهم حاميات عسكرية فى البحرين[٤]، فضلا عن تشجيع الحميرين على

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص١٩٩-٢٠٠؛ ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص١٢٩-١٣١.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٥٢.

(٣) سورة البروج : الآيات (٤-٨).

(٤) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب، ص٤٨.

اعتنـق الديـانة اليهودية ونشرها فيما بينهـم، حتى تصبح عقبة كؤودا فى وجه المسـيحية.

لما رأى امبراطور الروم من عدم تحقيق أغراضهم فى بلاد العرب الجنوبية وتعطل تجارتهم المتجهة إلى الشرق، اتخذ من حادثة التنكيل بأهل نجران ذريعة للتدخل فى بلاد اليمن، وكانت وسيلة تنفيذ ذلك، ولاية الحبشة المسيحية، خاصة أن آثار الهزيمة التى منى بها الأحباش على يد ذى نواس لم تكن قد نسيت بعد، فكتب الإمبراطور جستنين الأول (٥١٨-٥٢٧م) إلى نجاشى الحبشى يطلب منه غزو اليمن والقضاء على ذى نواس عدو المسيحية الأول، فأنفذ النجاشى حملة تتألف من سبعين ألف حبشى بقيادة أرياط لغزو بلاد اليمن، استطاعت أن تهزم الحميريين وتقضى على استقلال اليمن سنة ٥٢٥م[١]، وفى هذا الصدد يشير نقش حصن غراب إلى أن الأحباش استولوا على اليمن وقتلوا الملك ذا نواس وأقياله[٢].

ظل أرياط يحكم بلاد اليمن من قبل نجاشى الحبشة حتى نازعه الملك أبرهة - أحد قواده - واستطاع أن يقضى عليه بمعاونة جنده. ثم ما لبث أن قبض على زمام الأمور فى اليمن[٣]. ولقب نفسه «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها فى الجبال والتهائم». بينما كان من الناحية الرسمية يحكم بلاد اليمن نائبًا عن ملك الحبشة[٤].

لما استتب الأمر لأبرهة وفرض سيادته على بلاد اليمن انصرف إلى نشر المسيحية فى بلاد العرب الجنوبية متخذًا من نجران مركزًا للرهبنة ومعقلا للمسيحية هناك وفضلا عن ذلك اهتم ببناء الكنائس فى الجهات الجنوبية من جزيرة العرب، بعد أن أمده قيصر الروم بالصناع وبكل ما يحتاج إليه لإنشاء

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٢٥.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٥٩.

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢٠٠.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٣، ص٤٨٤.

الكنائس التى كان من أعظمها بناء وأشهرها ذكراً كنيسة «القليس» التى أقامها فى صنعاء وأعدها لاستقبال وفود الحج من كل مكان وقد بالغ أبرهة فى الانفاق على إنشاء هذه الكنيسة حتى يصرف الحجاج عن البيت العتيق بمكة ويجتذبهم إلى كنيسته، فاستعمل فى بنائها طبقات من حجر ذى ألوان مختلفة لها بريق، ونقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر، كما أمر برش حوائطها بالمسك وتزويدها بالصلبان المذهبة والمفضضة[١].

غير أن أبرهة رأى أن العرب لا تقبل على كنيسته، وأنهم لا يتجهون إلا إلى البيت العتيق ورأى أهل اليمن أنفسهم يدعون البيت الذى بناه وينصرفون إلى مكة، فاشتد غيظه واشتعلت نيران الحقد فى نفسه، وأقسم ليهد من الكعبة وليزيلن بيت إبراهيم وإسماعيل، حتى يصرف العرب عن كعبتهم ويولوا وجوههم شطر كنيسته.

لما تهيأ أبرهة للحرب سار على رأس جيش عظيم من الأحباش متجهاً إلى مكة لهدم الكعبة المشرفة، وجعل فى مقدمته الفيلة فلما اقترب من أم القرى عسكر فى المغمس على نحو فرسخين منها، وأنفذ من هناك الأسود بن مقصود، أحد قواده على رأس فريق من الجند إلى مكة. فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتى بعير لعبدالمطلب بن هاشم سيد قريش ثم ما لبث أبرهة أن أرسل حناطة الحميرى إلى مكة ليخبر سيدها أنه لم يأت لقتال أهلها وإنما لهدم الكعبة، فلما أبلغ عبدالمطلب بالأمر، رد عليه قائلا : والله ما نريد حربه، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بيته، فوالله ما عندنا دفع عنه[٢].

وعندئذ طلب منه حناطة أن يصحبه إلى أبرهة فانطلق معه عبدالمطلب ومعه بعض بنيه فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه، ونزل عن سريره إليه، وجلس معه

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص٣٩٤-٣٩٥؛ النويرى : نهاية الأرب، جـ١، ص١٨٢-١٨٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٦٠.

على بساط، وقال لترجمانه قل له ما حاجتك، فقال عبدالمطلب : حاجتى أن ترد على مائتى بعير أصابها لى، فقال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى، أتكلمنى فى إبلك وتترك بيتا هو دين آبائك ودينك، قد جئت لهدمه. قال عبدالمطلب : أنا رب الإبل وللبيت رب يمنعه. قال أبرهه : ما كان ليمنع منى، وأمر برد إبله. وانصرف عبدالمطلب إلى قريش وأخبرهم بالأمر، وأمرهم بالخروج معه من مكة والتحرز فى رؤوس الجبال(١)، ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وأنشد عبد المطلب :

يارب لا أرجو لهم سواك   يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   امنعهم أن يخربوا فناكا(٢)

فلما تهيأ أبرهة لدخول مكة وعبى جيشه وهو مجمع لهدم البيت أرسل الله عز وجل عليهم أسرابا من الطير، تحمل فى مناقيرها حجارة محماة رمتهم بها، فهشمت رؤوسهم، ومزقت لحومهم، وجعلتهم جثثا هامدة وأشلاء ممزقة. قال الله تعالى : ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾(٣).

لم ينج من الهلاك سوى نفر قليل من جيش أبرهة الذى أمرهم بالعودة إلى اليمن، بعد أن فنى عدد عظيم من جنده وتشتت شمله وتفرق جمعه، وبلغ صنعاء وقد وهنت قوته ثم ما لبث أن هلك أثر وصوله اليمن(٤).

---

(١) ابن هشام : السير النبوية، جـ١، ص٥٢.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٦٠.

(٣) سورة الفيل.

(٤) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص٣٨٢.

ويعرف العام الذى منى فيه أبرهة وجيشه بالهزيمة النكراء، بعام الفيل نسبة إلى الفيلة التى استخدمها فى مقدمة قواته.

لما توفى أبرهة أثر حملته الفاشلة على البيت الحرام فى مكة. خلفه ابنه يكسوم الذى اشتدت وطأته على بلاد اليمن وعم أذاه سائر أهلها، ولم يكن خليفته مسروق أحسن منه حالا فقد اشتط فى جباية الضرائب من أهل اليمن وأذاق الناس ألوان العذاب. مما أدى إلى استياء اليمنيين من سطوة الأحباش، وقرروا التخلص منهم بعد أن تزعم حركتهم الوطنية سيف بن ذى يزن ويكنى بـ «أبى مرة»[١].

لما كان سيف بن ذى يزن لا يملك من القوة ما يكفى لتحقيق طموحه فى تخليص بلاد اليمن من الأحباش، فتوجه إلى القسطنطينية وطلب العون من قيصر الروم، غير أنه لم يجبه وقال له : «أنتم يهود، والحبشة نصارى وليست فى الديانة أن ننصر المخالف على الموافق»[٢] وفضلا عن ذلك كانت العلاقات الوطيدة التى تربط الروم بالأحباش تمثل عقبة كبيرة فى سبيل معاونة الروم لأهل اليمن.

استقر رأى سيف بن ذى يزن على طلب المعاونة العسكرية من الفرس، فاستنجد بملك الحيرة، النعمان بن المنذر ليتوسط له لدى كسرى أنوشروان الذى خشى على حياة رجاله من الفرس، وقال لسيف بن ذى يزن : «بعدت بلادك عنا وقل خيرها والمسلك إليها وعر، ولست أغرر بجيشى»[٣]، وأمر له بعشرة آلاف درهم فارسى، غير أن سيف بن ذى يزن ألقى الدراهم التى أخذها من كسرى للخدم، فلما علم كسرى بذلك استدعاه، فلما مثل بين يديه سأله عن فعلته فقال : «لم آتيك للمال، وإنما جئتك للرجال، ولتمنعنى من الذل

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٣٠.

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢٠٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٦٣.

والهوان، وأن جبال بلادى ذهب وفضة[١]، فأعجب كسرى بقوله وطمع فى بلاد اليمن، وبعد أن استشار أنوشروان وزراءه فى الأمر، أنفذ مع سيف بن ذى يزن جيشاً من المساجين تحت قيادة وهرز، مقابل إرسال خراج سنوى، من اليمن إلى فارس[٢].

لما وصل الجيش الفارسى إلى اليمن انضم إليه أتباع سيف بن ذى يزن، ودار قتال شديد بينهم وبين الأحباش بقيادة مسروق، غير أن الحرب ما لبثت أن انتهت بهزيمة الأحباش هزيمة نكراء ولقى مسروق حتفه، ودخل القائد الفارسى صنعاء، وبعد أن استقرت الأمور فى البلاد قلد ولايتها إلى سيف بن ذى يزن بصفة رسمية، بينما قلد وهرز نفسه منصب نائب ملك فى تلك البلاد التى أصبحت منذئذ ولاية فارسية، تؤدى الخراج إلى الإمبراطورية الفارسية فى كل عام[٣].

تعاقب على حكم اليمن أبناء وهرز من قبل كسرى، فولى الأمر من بعده ولده المرزبان، ثم توالى على حكم اليمن ولاة من الفرس كان آخرهم «باذان» الذى استمر فى حكمه حتى شهد عصره نزول الوحى والبعثة النبوية فاعتنق الإسلام واعترف بسيادة النبى محمد ﷺ[٤].

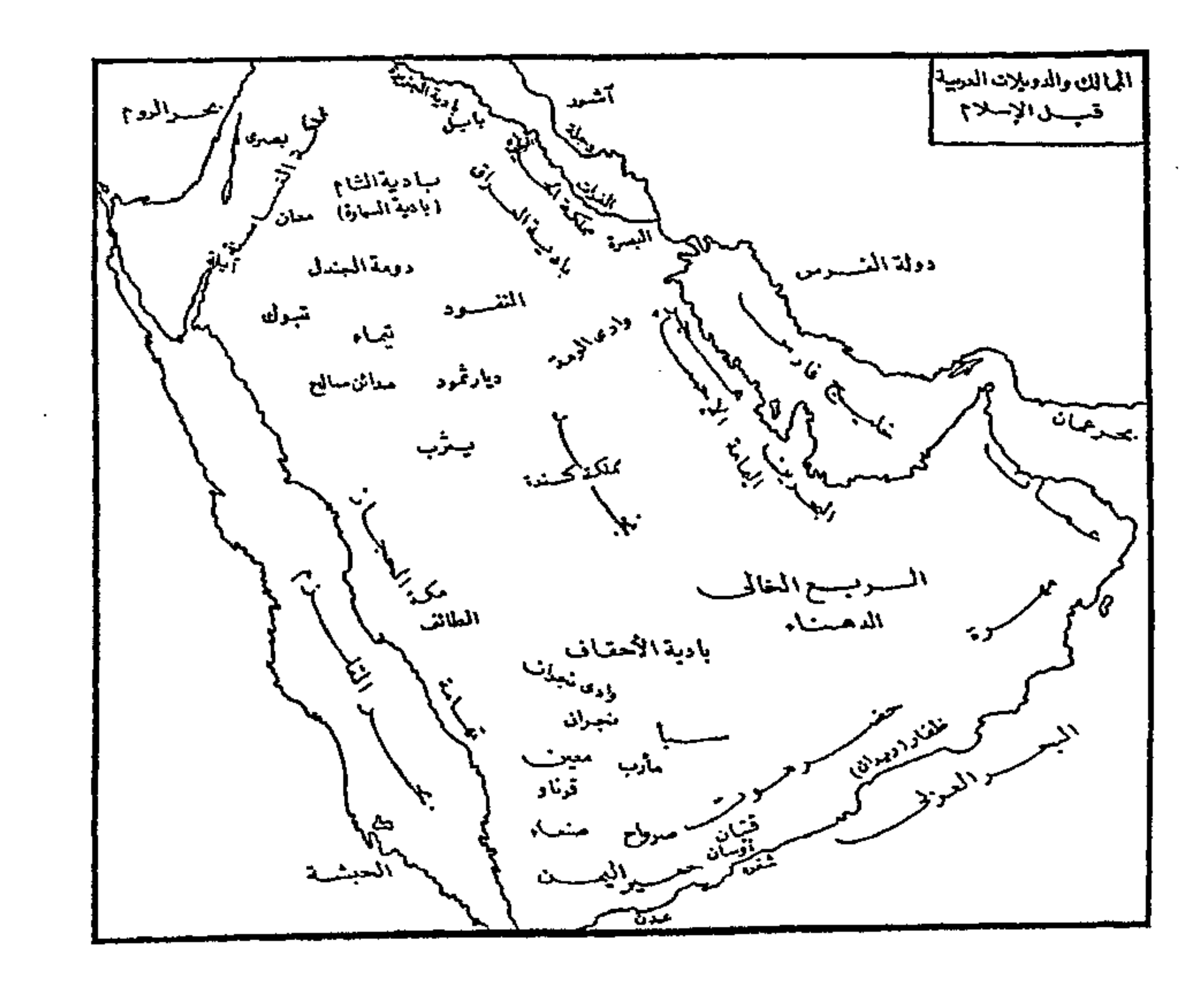
---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص ١٤٠-١٤٣.

(٢) ابن قتيبة : المعارف، ص٦٣٨.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص ١٧٧-١٧٨.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص٧١.


الممالك والدويلات العربية
قبل الإسلام
بحر الروم
بصرى
آشور
بابل
دجلة
بادية الشام
(بادية السماوة)
معان
البصرة
دولة الفرس
دومة الجندل
النفود
تبوك
تيماء
وادي الرمة
ديار ثمود
مدائن صالح
يثرب
مملكة كندة
بحر عمان
الربع الخالي
الدهناء
مكة
الطائف
بادية الأحقاف
وادي نجران
نجران
سبأ
مأرب
معين
قرناو
صنعاء
صرواح
قتبان
أوسان
شبوة
عدن
الحبشة
حضرموت
ظفار (ريدان)
البحر العربي

الفصل السادس

الحالة السياسية في مدن الحجاز

١ - مكـــة.

٢ - يثـــرب.

٣ - الطائــف.



الحالة السياسية فى مدن الحجاز

١ - مكة

تقع مدينة مكة على أهم طرق القوافل المعروفة عند العرب قبل الإسلام بين اليمن وبلاد الشام، فى واد غير ذى زرع يتفرع من جبال السراة.

يرى مؤرخو العرب أن تسمية المدينة بمكة إنما يرجع إلى أنها تمك الجبارين[١]، أى تذهب نخوتهم. وأن اسمها مشتق من لفظ «أمتك» من القول : «أمتك الفصيل ضرع أمه، إذا مصه مصا شديدا»، فكان لقداسة المدينة أن أمتكت الناس، أى جذبتهم من جميع الأطراف[٢]. بينما يرى بروكلمان أن الاسم مشتق من لغة الجنوب استناداً إلى هجرة الجنوبيين إلى مكة وسكناهم مع سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فيقول بأنها كلمة يمنية، مكونة من شقين : «ملك»، «رب». ولما كانت ملك تعنى بيت - فتكون مقرب أو مكرب بمعنى «بيت الرب»[٣].

تعرف مكة بعدة أسماء، سماها بها الله عز وجل، فمنها اسم بكة، لقوله تبارك وتعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين﴾[٤]. ويرى المفسرون[٥] أن اسم بكة يعنى ازدحام الناس وأن الأقدام

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص١٨١.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٢٥-١٢٦.

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية (مترجم)، بيروت، ١٩٦٥، جـ١، ص٣٣.

(٤) سورة آل عمران : آية (٩٦).

(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، القاهرة، ١٩٧١، جـ٢، ص٧٣-٧٤؛ النسفى : مدارك التنزيل وحقائق التأويل، المطبعة الحسينية بمصر ١٣٤٤هـ، جـ١، ص١٧١.

يبك بعضها بعضا. بينما يرى المؤرخون[١] أن بكة هي موضع البيت الحرام وأن مكة هي المدينة.

ومن أسماء مكة، أم القرى لقوله تعالى : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾[٢] . فجعلها الله العزيز الحكيم أهم مدن بلاد الحجاز وأعظم حواضرها وأقدس موضع على سطح الأرض تنطلق منه الدعوة إلى أن تصل إلى ما شاء الله أن تصل إليه.

كما سميت مكة في القرآن الكريم باسم، البلد لقوه تبارك وتعالى : ﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾[٣]، ولقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾[٤] ، وباسم البلد الأمين لقوله تعالى : ﴿والتين والزيتون وطور سنين. وهذا البلد الأمين﴾[٥] .

كما عرفت مكة عند المؤرخين باسم الحاطمة، لأنها تحطم من استخف بها، وباسم القادس لأنها تقدس (تطهر) من الذنوب، وباسم الباسة لأنها تبس (تحطم) الملحدين[٦] .

كانت مكة لقاحا أي لا تدين لدين لملوك. ولم يؤد أهلها إتاوة، ولا ملكها ملك قط بل كان يحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فضلا عن عظماء القبائل العربية وساداتها يقول ياقوت[٧] : «وأهلها آمنون، يغزون الناس ولا يغزون ويسبون ولا يسبون». قال ابن أم مكتوم في مدح مكة :

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، المطبعة الماجدية بمكة، جـ١ ، ص١٨٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٢٤٨.

(٢) سورة الأنعام : آية ٩٢.

(٣) سورة البلد : الآيات (١-٢).

(٤) سورة إبراهيم : آية (٣٥).

(٥) سورة التين : الآيات (١-٣).

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١ ، ص١٢٥-١٢٦ ؛ النويري : نهاية الأرب، جـ١ ، ص٣١٣-٣١٤.

(٧) ياقوت معجم البلدان، جـ٥ ، ص١٨٣.

يـا حـبـذا مـكـة مـن وادى أرض بـهـا أهـلـي وعـوادى
أرض تـرسـخ بـهـا أوتـادى أرض بها أمشى بلا هادى[١]

وقال رسول الله ﷺ فى حب مكة وشرف مكانتها : «إنى لأعلم أنك أحب البلاد إلىّ، وأنك أحب أرض الله إلى الله»[٢].

على الرغم من أن أقدم النصوص التى ذكرت بيت الله العتيق[٣] ترجع إلى القرن الثانى الميلادى طبقاً لرواية الجغرافى بطليموس، التى وصف فيها ماكورابا (Macoraba) مكة المكرمة. إلا أن بداية سكنى الوادى الذى كان يعد الموضع المفضل لدى القوافل العربية خلال رحلاتها التجارية القادمة من الشمال ومن الجنوب، أى من اليمن إلى فلسطين ومن فلسطين إلى اليمن[٤]، ووضع اللبنات الأولى لإقامة بيت الله الحرام، إنما يرجع إلى عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وولده إسماعيل، حينما قدم إبراهيم وبصحبته زوجه هاجر وولده إسماعيل من فلسطين إلى مكة وأسكنهما هناك فى البقعة المباركة. ثم ما لبث أن تركهما وعاد إلى فلسطين. فاتخذت هاجر لها عريشا إلى جوار ربوة حمراء بهذا الوادى آوت إليه هى وإبنها، فلما نفذ الماء الذى كان يملكانه وكادا يهلكان عطشا. منّ الله عليهما بعين زمزم[٥]. فأقامت وإبنها إلى جوار تلك العين للارتزاق من القوافل التجارية فى رحلاتها الشمالية والجنوبية. فقد استجاب الله تبارك وتعالى لدعوة سيدنا إبراهيم ﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا

---

(١) ياقوت معجم البلدان، جـ٥، ص١٨٣.

(٢) ياقوت : المصدر السابق، جـ٥، ص١٨٤.

(٣) البيت العتيق : سمى بذلك لأنه عتق من الجبابرة. أنظر ياقوت : المصدر السابق، جـ٥، ص١٨٢.

(٤) هيكل : حياة محمد، القاهرة، ١٣٥٨هـ، ص٨٤، كانت القوافل العربية وغير العربية من الفرس والبيزنطيين تدفع إتاوة مرورها ونزولها هناك.

أنظر : O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 184.

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٢٤.

الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكعبة البيت الحرام، لم تكن القبلة الوحيدة التي تتجه إليها القبائل العربية من أجل الحج في بلاد العرب قبل الإسلام. فقد كان هناك بيت الأقيصر[٢] المقام على مشارف الشام عند مدينة بصرى، وكانت قبائل قضاعة ولخم وجذام وعاملة تفد إليه وقد حلقوا رؤوسهم من أجل تأدية طقوسهم الدينية. كما كان هناك بيت ذى الخلصة[٣] أو كما كان يعرف بالكعبة السيمانية، الذى كانت قبائل خثعم وبجيلة ومن ينزل منها فيما بين مكة واليمن، تفد إليه من أجل الحج، وهو البيت الذى هدمه جرير بن عبدالله البجلي، بعد فتح مكة بأمر رسول الله ﷺ. وفضلا عن ذلك أقامت بعض القبائل بيوتا لها، خاصة بها ومنها بيت رئام[٤] بصنعاء، وبيت رضاء[٥]، الذى أقامه بنو ربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تميم.

ظلت هاجر وولدها إسماعيل يقيمان إلى جوار بيت الله المحرم، حتى قدمت قبيلة جرهم اليمنية مهاجرة من الجنوب، فنزلت مكة، وعاشت معهما في كنف بئر زمزم والبيت العتيق.

لما شب إسماعيل تزوج من قبيلة جرهم، فانجب من الولد اثنى عشر[٦]، وظل إسماعيل وبنوه يقومون على خدمة البيت الحرام، حتى إذا ما توفى إسماعيل وانتقل إلى جوار ربه، تولت جرهم مع أبنائه خدمة البيت العتيق[٧].

---

(١) سورة إبراهيم : آية (٣٧).

(٢) ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص٢٣٨.

(٣) ياقوت : المصدر السابق، جـ٣، ص٤٢٧.

(٤) ياقوت : المصدر السابق، جـ٣، ص٣٩٥.

(٥) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٤٩٣.

(٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ١، ص٣١٤؛ ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١، ص١٩٣.

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١، ص١٩٣.

قدمت قبيلة خزاعة، إحدى قبائل الأزد اليمنية التي هجرت بلادها أثر تهدم سد مأرب، إلى مكة فنزلت إلى جوار جرهم. ثم ما لبثت خزاعة أن تنازعت مع جرهم في خدمة البيت الحرام وسرعان ما نشب القتال بينهما. وانتهى بانتصار خزاعة واستيلائها على بيت الله العتيق[١].

لما ولى عمرو بن لحى، زعيم خزاعة زمام الأمور في مكة، عمل على اجتذاب الحجاج إلى الكعبة فأقام موائد الطعام في موسم الحج، ويسّر جلب الماءمن الآبار المحيطة بمكة، كما قام بجلب الأصنام من مختلف أنحاء الجزيرة العربيـة وأقامها حول الكعبة[٢]. من أجـل تنشـيط الحج والحركة التجارية. مما عاد عليه بالنفع والخير الوفير، إذ كان يأخذ العشور من جميع القوافل التجارية المارة بمكة، وفضلا عن ذلك نال منزلة كبيرة من قومه وبين القبائل والبطون والعشائر الضاربة حول البيت الحرام[٣].

كان زيد بن كلاب، المعروف بقصى وقتذاك بعيداً عن مكة موطنه وفيها أهل بيته من قبيلة قريش. إذ نشأ في كنف زوج أمه، ربيعة بن حرام من عذرة. فلما شب قصى[٤] بن كلاب وصار رجلا، عرف من أمه أصل نسبه ووطنه، التي قالت له : «أنت ابن كلاب بن مرة وقومك عند البيت الحرام وما حوله». فسار إلى مكة، وأقام بها وتزوج ابنة زعيم خزاعة حليل بن حبشية، وعاش مع صهره في أمن وسلام.

لما توفى حليل بن حبشية، تطلع قصى إلى الإشراف على شئون البيت الحرام، غير أن قبيلة خزاعة تصدت له، وحالت بينه وبين ما يصبو إليه واحتدم النزاع بين الطرفين، وتطور الأمر إلى قيام الحرب بينهما، بعد أن انضمت قريـش وكنانة إلى قصى وأخيـه لأمـه رزاح بن ربيـعة بن حرام ومن معهما من قضاعة.

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٢٥.

(٢) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص١٥٤؛ القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٦٢.

(٣) ابن كثير : المصدر السابق، جـ٢، ص٨٧.

(٤) سمى بذلك لأنه كان قصيا أى بعيداً عن بلده. أنظر : ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٢٣.

تداعى الفريقان إلى الصلح بعد قتال شديد، واتفقاعلى التحكيم. فقضى بينهم أحد حكماء العرب، بأن قصيا أولى بحجابة الكعبة وأمر مكة من قبيلة خزاعة، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبنى كنانة وقضاعة ففيه الدية[١]. وحكم لخزاعة بأن تظل فى مساكنها بمكة. فصار قصى ملكاً على قومه وأهل بيته[٢]، وعلا شأن قبيلته قريش فى مكة وبين سائر العرب.

بدأت مكة عهداً جديداً بزعامة قصى بن كلاب، الذى جمع قريشا من تهامة وشعاب مكة ووحد بين بطونها، وأنزلهم الأبطح - وادى مكة - وهم هاشم، وأمية، ومخزوم، وتيم، وعدى، وجمح، وسهم، وأسد، ونوفل، وزهرة، أصحاب النفوذ، فعرفوا بقريش البطاح أو قريش الضب لأنهم لزموا الحرم واستقروا فيه. يقول الطبرى : «فولى قصى البيت وأمر مكة والحكم بها، وجمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكة»[٣]. أما بنو بغيض بن عامر بن لؤى وبنو الأدرم بن غالب وبنو محارب بن فهر وبعض بطون من بنى الحارث بن فهر، فأنزلهم وراء قريش البطاح بظاهر مكة ومعهم أخلاص من صعاليك العرب والحلفاء والموالى والعبيد. فعرفوا بقريش الظواهر[٤]. وفى ذلك يقول ذكوان مولى عبدالدار بن قصى للضحاك بن قيس الفهرى[٥].

تطاولت للضحاك حتى رددته ... إلى نسب فى قومه متقاصر

فلو شاهدتنى من قريش عصابة ... قريش البطاح لا قريش الظواهر

لما استقرت الأمور لقصى فى مكة بنى داراً له ملاصقة للبيت الحرام فى الناحية الشمالية. ثم ما لبث أن اتخذ منها مقراً لندوة قريش، فعرفت

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص٥٧-٦٠.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص ٣٢٤.

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٦.

(٤) الأصفهانى : الأغانى، جـ١، ص٦٥.

(٥) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص٣٢٨.

بدار الندوة[١]. يجتمع فيها شيوخ القوم[٢] ورؤساء العشائر برئاسته للتشاور في الأمور الهامة[٣]، واتخاذ القرارات التى تمس حياة القوم والبلد، ففيها كانت قريش تعقد اللواء إذا ما خرجت للحرب، وتخرج منها وتعود إليها القوافل التجارية فى رحلتى الشتاء والصيف. كما كان يتم فيها التعريف بالبالغين من أبناء قريش، بأن يعذّر (يختن) فيها الغلام، وتدرع الفتاة (يشق صاحب الدار قميصها، ثم تدرع بقميص آخر، وتنقلب إلى أهلها ليحجبوها)[٤] وإلى جانب ذلك كانت مراسم الزواج لكل أبناء قريش من الذكور والإناث تتم فيها.

اهتم قصى بن كلاب بخدمة البيت الحرام وعمارته، فقام بترميم الكعبة وأقام لها سقفا من خشب الدوم وجريد النخيل وعين لخدمة البيت، الوظائف الكبيرة التى تتناسب وقدسيته فمنها الحجابة والسدانة والسقاية والرفادة[٥]. وقد جعل الحجابة من نصيبه، وهى أن تكون مفاتيح البيت عنده. ورتب سدنة البيت الحرام لرعايته والمحافظة عليه، وجلب الأصنام التى يستحسنها العرب وتجد فى نفوسهم هوى، وأقامها حول الكعبة تكريماً لهم. وكانت وظيفة السقاية ذات أهمية خاصة لندرة المياة فى مكة، فقد قامت قبيلة جرهم بطمر بئر زمزم بعد هزيمتهم من خزاعة. فقام قصى بحفر الآبار فى وادى الأبطح ومن أشهرها بئر العجول، وقد حذا حذوه شيوخ عشائر قريش وزعماء بطونها، وقاموا بحفر الآبار فى المناطق القريبة من مضارب خيام الحجيج[٦]. أما وظيفة

---

(١) سميت دار الندوة لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر ندوا إليها للتشاور، والندوة : الجماعة، دار الندوة : دار الجماعة. أنظر : الألوسى : بلوغ الأرب، جـ١، ص٣٤٨.

(٢) كان يشترط فيمن يحضر دار الندوة أن يكون قد بلغ الأربعين من عمره. فضلا عن المقدرة والكفاية ومهارة القيادة.

(٣) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 183.

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص١٨.

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٣١.

(٦) حفر عبد شمس بئر الطوى، وهاشم بئر بذر، والمطعم بن عدى بئر سجلة، وحفر بنو أسد بئر سقية، وبنو عبد الدار بئر أم أحراد، وبنو جمح بئر سنبلة، وبنو سهم بئر الغمر.
أنظر : ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٥٤-١٥٥.

الرفادة فهى قيام صاحبها بتجهيز الطعام اللازم للوافدين من أجل الحج لبيت الله الحرام، وكان قصى قد فرض على أبناء قريش خرجا يقدمونه من أموالهم، يصنع به الطعام قائلا : «إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم»[١]، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجا فيدفعونه إليه. فيصنعه طعاما للناس أيام منى. وكان قصى يهدف من وراء ذلك إلى تشجيع العرب على قدوم مكة والإقبال على الحج، ذلك أن حمل الزاد والمؤن مع السفر مشقة لا تحتمل مع طول الرحلة. كما أن إطعام فقراء الحجاج كان يعد منزلة عظيمة وفضيلة امتدح بها العربى فى جزيرة العرب. لذلك كانت الرفادة تعد من المناصب السامية، التى تضطلع بها أعرق البطون والعشائر القريشية.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن وظائف السدانة والسقاية والرفادة لم تكن مستحدثة على عهد قصى بن كلاب. إنما هى وظائف قديمة، قدم بناء البيت العتيق. فكانت هاجر وولدها إسماعيل يقومان على رعاية البيت وخدمة القبائل العربية المارة عليهما خلال رحلاتها التجارية. كما اهتمت قبيلة جرهم التى وليت أمر البيت الحرام مع إسماعيل وبنيه، بأمر سقاية الحجيج والقوافل التجارية ورفادتهم. ولما انتصرت قبيلة خزاعة على جرهم، وانتقل إليها زمام الأمور فى مكة، اهتم زعيمها عمرو بن لحى بإطعام الوافدين إلى بيت الله الحرام وسقايتهم. وفى ذلك يقول ابن كثير : «يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويلت لهم السويق»[٢].

وإلى جانب وظائف خدمة الكعبة والحجيج، كان هناك وظيفة اللواء والقيادة، وهى الراية التى تعقد ويتم تسليمها لمن يتولى القيادة أثناء الحرب[٣]. ووظيفة العمارة، وهى مراعاة الآداب والوقار فى البيت الحرام.

---

(١) ابن هشام : المصدر السابق، جـ١، ص١٣٦.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص١٨٧.

(٣) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص٦٢؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٣٥.

ووظيفة المشورة، التى يقوم صاحبها بتنظيم الأمور والمسائل قبل عرضها على مجلس دار الندوة. والأشناق، جمع الأموال الخاصة بالديات والمغارم وآدائها. ووظيفة السفارة، الاتصال بالقبائل الأخرى بشأن الخصومات والمفاوضات. وفضلا عن ذلك، كان هناك وظائف القيام على القبة، وهى الخيمة التى تجمع فيها الأسلحة، والأعنة وهى الاهتمام بالخيل وقيادتها. والأيسار وهى الأزلام التى يضرب بها عند هبل كبير الأصنام فى جوف الكعبة(١). وقد بقيت هذه الوظائف تتوارثها البطون والعشائر القرشية، وتوليها أكفأ رجالها، حتى فتح مكة، فألغاها رسول الله ﷺ، عدا وظيفتى السقاية والحجابة(٢).

لما تقدم العمر بقصى بن كلاب وشعر بدنو أجله، عهد بالأمر من بعده إلى ابنه الأكبر عبدالدار، وخضع بنو قصى لرغبته ولم يخالفوا رأى أبيهم. وظل عبدالدار يلى أمر مكة طيلة حياته(٣). فلما توفى، دب النزاع بين بنى عبد مناف وبين أبناء عمهم عبدالدار، مما أدى إلى انقسام قريش ببطونها وعشائرها إلى طائفتين كبيرتين، إحداهما تؤيد أبناء عبد مناف، وهذه الطائف تتألف من بنى أسد بن عبدالعزى، ،بنى زهرة بن كلاب، وبنى تيم بن مرة، وبنى الحارث بن فهر. بينما أيد كل من بنى مخزوم بن يقظة وبنى سهم بن عمرو بن هصيص وبنى جمح بن عمرو وبنى عدى بن كعب، أيدوا بنى عبدالدار ووقفوا إلى جانبهم. أما عامر بن لؤى ومحارب بن فهر، فلم ينضموا لأحد والتزموا جانب الحياد(٤).

عقد كل من الفريقين حلفاً خاصاً به، توكيداً للنزاع والفرقة والانقسام، فعقد بنو عبد الدار ومن انضم إلى جانبهم «حلف الأحلاف»، وعقد بنو عبد مناف حلفا مماثلا أطلقوا عليه «حلف المطيبين»، لأنهم أحضروا

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص٣١٣-٣١٥.

(٢) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص١١٠.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٣٥.

(٤) ابن هشام : المصدر السابق، جـ١، ص١٣٧.

طيبا فى جفنـة، وضعوها فى فناء الكعبة وغمسوا أيديهم فيها ومسحوها فى جدار الكعبة.

لم يستمر النزاع طويلا بين الأحلاف والمطيبين، فما لبث أن تم الصلح بينهم واتفقوا على أن يلى أبناء عبد مناف أمر السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة لبنى عبدالدار بن قصى بن كلاب[١].

لما تم الاتفاق بين بنى عبدالدار وبنى عبد مناف أبناء قصى بن كلاب، قسم بنو عبد مناف المناصب فيما بينهم فولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة، وولى عبد شمس القيادة هو وأبناؤه من بعده. وكان هاشم رجلا كريما يتولى إطعام الوافدين على بيت الله الحرام فى مواسم الحج وغيرها، ولما حدث جدب شديد فى مكة وكادت أن تحدث مجاعة خرج هاشم بن عبد مناف إلى فلسطين واشترى دقيقا أتى به إلى مكة، فذبح الذبائح وبذل الطعام لكل نازل بالبلد المقدس أو وافد عليه. وأخذ يدعو الجياع إلى قصاعه ويهشم لقومه الخبز، فسمى هاشما، وكان اسمه قبل ذلك عمرا وقد نسبت إليه المصادر العربية تنظيم رحلات القوافل التجارية وترتيب الحماية لها، فقيل أنه أول من قام بذلك[٢].

حقد أمية بن عبد شمس على عمه هاشم بن عبد مناف، بسبب علو مكانة هاشم بين القرشيين لعنايته بإطعام الحجاج وحمل الماء إليهم. ذلك أن أمية حاول منافسة عمه فى هذا الشرف، غير أنه عجز عن آداء العمل الذى كان يقوم به هاشم فنازع عمه وطلب التحكيم. وانتهى الأمر باحتفاظ هاشم بالرفادة والسقاية، وخروج أمية من مكة إلى بلاد الشام والبقاء فيها عشر سنين. فكان ذلك أول خلاف بين هاشم وبنى أمية[٣]. يقول ابن سعيد :

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١ ص ٢٤١.

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف، دار المعارف بمصر، جـ١ ، ص٥٨؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٣٣٧.

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١ ، ص٢٤٢.

«فحسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وكان ذا مال، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز عنه، فشمت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، فلم ترعه قريش واحفظوه، قال فإني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين. فرضي أمية بذلك، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية»[١].

ولي الرفادة والسقاية المطلب بن عبد مناف بعد أخيه هاشم، وقد تميزت أيامه بالسلام والسماحة، فكان المطلب يتمتع بمكانة خاصة وفضل وشرف في قريش[٢]. ثم وليهما من بعده ابن أخيه عبدالمطلب[٣] ابن هاشم، فعني بهما عناية كبيرة واشتهر بين قومه بإعادة حفر بئر زمزم، التي كانت طمست أواخر أيام جرهم. ذلك أن مكة لما تعرضت لجدب شديد في أيامه وندرت المياه، اشتد الأمر عليه لمسئوليته عن توفير المياه والسقاية. وبينما هو على هذه الحال إذ جاءه الفرج، قال عبدالمطلب : إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة. قال قلت : وما طيبة؟ قال : ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه فجاءني فقال : احفر بره فقلت : وما بره؟ قال : ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال : احفر المضنونة، قال : قلت : وما المضنونة[٤]؟ قال : ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال : احفر زمزم. قال قلت :

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى، جـ١، ص ٥٥-٥٦.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٤٣.

(٣) كان اسمه شيبة لشيبة كانت في رأسه، وذات يوم دخل به عمه المطلب مكة مردفه معه على بعيره فقالت قريش : المطلب ابتاعه. فقال عبد المطلب : ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم، قدمت به من المدينة.
أنظر : ابن هشام : المصدر السابق، جـ١، ص١٤٤.

(٤) المضنونة : قال له احفر المضنونة، ضننت بها على الناس إلا عليك. وقال وهب بن منبه : المضنونة لأنها ضن بها على غير المؤمنين.

وما زمزم؟ قال : لا تنزف أبدا ولا تذم[١]، تسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم[٢]، عند قرية النمل[٣] فلما بين له شأنها، ودل على موضعها، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبدالمطلب، فحفر فيها، فلما بدا لعبدالمطلب الطى[٤]، كبر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته.

هكذا أصبح عبدالمطلب بن هاشم سيدا فى قومه مهابا مطاعا، لما بذله فى سبيل سقاية الحجاج وقومه وإطعامهم فوصف بالأنفة والكرم. ومواجهة الغيب على ثقة وصبر واناة، والتضحية من أجل الأبناء، ففدى ابنه عبدالله بمائة من الإبل تركها فى الفضاء يتقاسمها الإنسان والطير والحيوان[٥]. كما كان لموقفه السديد من غزوة أبرهة الحبشى للكعبة أن علا شأنه وزادت هيبته حتى أطلق عليه القوم، عبدالمطلب إبراهيم الثانى، لأن النصر جاء من عند الله العزيز الحكيم فقضى بعزته وجلاله على الجيش الحبشى، وحفظ الكعبة البيت الحرام من المعتدين. وقالت العرب «أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم»[٦].

ولى العباس بن عبدالمطلب، أمر السقاية والرفادة بعد أبيه ولم يزل يتولاهما حتى دخل رسول الله ﷺ مكة سنة ٨هـ فأبقاهما فى يده[٧].

---

(١) لا تنزف ولا تذم، أى لا يفرغ ماؤها، ولا يلحق قعرها. ولا يذمها أحد، وماؤها مذموم عند المنافقين.

(٢) الفرث والدم : لأن ماؤها طعام وشفاء سقم. الغراب الأعصم : الأعصم من الغربان، الذى فى جناحيه بياض. والأعصم : متباعد الرجلين عند النقر.

(٣) قرية النمل : مكان بين الصنمين اساف ونائلة أى بين الصفا والمروة، أينما ينقر الغراب. ولذلك لما وجد عبدالمطلب وابنه الحارث قرية النمل هناك ووجد الغراب ينقر عندها، وقام ليحفر حيث أمر، قامت إليه قريش، وقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما. فقال عبدالمطلب لإبنه الحارث : زد عنى حتى أحفر، فوالله لأمضين لما أمرت به، فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه. أنظر، ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٤٩-١٥٢.

(٤) الطى : الحجارة التى طوى بها البئر.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص٥٩.

(٧) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية، ص٤٦.

أما بنو عبدالدار، فجعلوا الحجابة من نصيب عثمان بن عبدالدار، وتولى أخوه عبد مناف رئاسة دار الندوة، وجعلوا اللواء فيهم جميعاً. وظل الحال على ذلك حتى فتح مكة، فتولاها رسول الله ﷺ من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها. فلما خرج منها طلب منه العباس بن عبدالمطلب أن يضم إليه الحجابة مع السقاية. فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾[١] فأبقاها رسول الله ﷺ في يد عثمان بن طلحة من بنى عبدالدار وقال : «خذوها يا بنى أبى طلحة بأمانة الله سبحانه واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم»[٢].

لم تقتصر خدمات قريش على السقاية والرفادة للحجيج، وإنما قامت بإتخاذ الترتيبات اللازمة لتأمين القوافل التجارية المارة بمكة، وتوفير الحماية لها، حتى يطمئن الناس على حياتهم وأموالهم، فجعلت قريش من الأحابيش أحراسا للقوافل التجارية فى حلها وترحالها[٣]. كما عقدت الأحلاف من أجل إقرار الأمن والعدالة فى ربوع البلد الأمين التى كان من أعظمها حلف الفضول، وكان أهم ما اتفق عليه فى هذا الحلف، ألا يقع بمكة ظلم على أحد سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس[٤].

كان للخدمات الجليلة التى وفرتها قريش للحجاج، والإجراءات الأمنية الصارمة التى فرضتها فى مكة، أثر بعيد فى تنشيط الحركة التجارية وازدياد الحجيج عاما بعد عام. وقد أفاد ذلك القريشيين فزادت عائداتهم وتضخمت ثرواتهم وفاقت شهرتهم الآفاق. ونالت قريش سمعة ذائعة الصيت فى داخل وخارج الجزيرة العربية. وقد شرفها الله تبارك وتعالى بذكرها فى كتابه العزيز : ﴿لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[٥].

---

(١) سورة النساء : آية ٥٧.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٦٤-٢٦٥.

(٣) ابن قتيبة : المعارف، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ٢، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٥) سورة قريش.

٢ - يثرب

تقع مدينة يثرب على بعد نحو ثلاثمائة ميل شمال مكة. وأرضها خصبة تكثر فيها الآبار والعيون، وهى غنية بالنخيل والأشجار والزروع حتى كانت من أهم المراكز الزراعية فى بلاد العرب[١]، فضلا عن طيب جوها واعتدال مناخها إلا فى فترات قليلة خلال فصل الصيف.

تحيط الوديان والجبال بمدينة يثرب من جهاتها الأربع ففى أقصى الشمال يقوم جبل أحد ثم جبل سلع، كما يسير وادى بطحان ووادى رانوناء متجهين نحو الشمال، كما يوجد وادى مهزور ووادى مزينب في الجنوب الشرقي، وفى الجنوب الغربى يقع جبل عير ويمتد إلى يساره وادى[٢] العقيق، الذى كان يعرف بوادى النعمة والترف لأن الطبيعة قد حبته بجداول المياه والعيون والآبار فصار من أخصب الوديان فى جزيرة العرب وأشهرها ذكرا.

تعتبر يثرب من أقدم المدن التى عمرها الإنسان فقد ورد ذكرها فى النصوص البابلية التى ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد خلال الحملات التى قام بها الملك البابلى نبونيد (ت ٥٣٩ ق.م) فى شمال غرب جزيرة العرب واحتل فيها تيماء وريدان وخيبر ويثرب[٣].

كما ذكرها بطليموس فى جغرافيته باسم Lathrippa أما اصطفاينوس البيزنطى فأطلق عليها اسم Jathripa أى يثربة، كذلك عرفت عند قدماء المستشرقين اليهود المتأثرين بالثقافة الأرامية باسم ميدنتا Medinta[٤].

يرى المؤرخون أن الاسم يثرب ينسب إلى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن أرم بن عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهو أول من نزل المدينة من

---

(١) Hitti : History of the Arabs; p. 104.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٤٣؛ السمهودى : وفاء الوفا، جـ١ ، ص١١٢-١١٥.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٤، ص١٣٠.

(٤) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 17.

العماليق[١]. والتثريب فى اللغة معناه التعيير والمؤاخذة[٢]. قال الله تعالى: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾، ومعناه عند المفسرين وأهل اللغة لا تعيير عليكم بما صنعتم. وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم باسم يثرب قبل الهجرة النبوية لقوله تعالى : ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾[٣]، وذكرها الله تبارك وتعالى باسم المدينة بعد أن شرفها بهجرة المصطفى ﷺ، قال تعالى : ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾[٤] وقال : ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾[٥].

وكان النبى ﷺ لما هاجر قال : «اللهم إنك أخرجتنى من أحب أرضك إلىّ فأسكنى أحب أرضك إليك»[٦] فأسكنه المدينة.

كان العماليق أول من سكن يثرب، الذين يرجع نسبهم إلى عمليق بن أرفخشد بن سام بن نوح، وقد استغل العماليق اعتدال مناخ المدينة ووفرة المياه المتدفقة من الآبار والعيون فى الزراعة والاهتمام بالنخيل، وإلى جانب ذلك قاموا ببناء الدور والآطام[٧].

على الرغم من الغموض الذى يحيط بتاريخ يثرب خلال العصور الطويلة التى انقضت منذ نهاية العماليق وحتى قدوم الأوس والخزرج إليها مهاجرين من جنوب الجزيرة العربية، وتضارب أقوال المؤرخين القدامى منهم والمعاصرين

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٨٦.

(٢) المعجم الوجيز : ص٨٢-٨٣.

(٣) سورة الأحزاب : آية (١٣).

(٤) سورة التوبة : آية (١٠١).

(٥) سورة التوبة : آية (١٢٠).

(٦) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٤٣٠.

(٧) الآطام : مأخوذ من التطم إذا ارتفع وعلا. وهو الحصن.

إلى أنه كان هناك بعض القبائل والبطون العربية التى اتخذت من يثرب مقاما لهم : «كبنى الحرمان، من اليمن، وبنى مرثد من بلى، وبنى أنيف من بلى أتعبا، وبنى معاوية من سليم، وبنى الحارث بن بهته، وبنى الشظية من غسان»[١]. وظلت تلك القبائل والبطون تعيش فى أمن وسلام فيما بينهم حتى قدم عليهم اليهود خلال القرنين الأول والثانى الميلاديين مهاجرين هرباً من اضطهاد الرومان. الذين أذاقوهم ألوان العذاب بعد سيطرتهم على مصر وسوريا فى القرن الأول قبل الميلاد، ودولة الأنباط فى القرن الثانى بعد الميلاد مما أدى إلى تشتت اليهود وتفرقهم وهجرتهم إلى جزيرة العرب، التى لم تصل إليها يد الرومان، وأن بلاد الحجاز تعد أكثر الأماكن أمناً بعيداً عن الاضطهاد الرومانى[٢].

ففى القرن الأول الميلادى قام تيتوس، الإمبراطور الرومانى بإخماد الثورة اليهودية التى أشعلوها ضد الرومان سنة ٧٠م، ولم يكتف تيتوس بذلك بل قام بتدمير مدينة القدس تدميراً تاماً. وأحرق المعبد اليهودى الذى أقامه هيرودوس هناك، وأذاق اليهود أقصى أنواع العذاب والتشريد، فهاجرت مجموعات منهم إلى بلاد العرب حيث نزلت حول يثرب. ثم قام هادريان بالقضاء على البقية الباقية من اليهود فى فلسطين. فيما بين سنتى ١٣٢ ، ١٣٥م، وتبع ذلك تغيير اسم القدس إلى مدينة «إيليا كابيتولينا» وتحويل المعبد اليهودى الذى كان قد تم إعادة بنائه إلى معبد للإله سجوبيتر» وتم بيع النساء اليهوديات كإماء، وقد فر من نجا من اليهود إلى بلاد العرب المأمونة البعيدة عن غضب الرومان وبطشهم. فهاجرت مجموعات يهودية أخرى إلى شمال بلاد الحجاز حيث انضموا إلى زملائهم الناجين من البطش الرومانى السابق[٣].

تشير المصادر العربية إلى ذلك فتذكر أن الروم لما ظهروا على بنى إسرائيل جميعاً بالشام فوطئوهم ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير وبنو قريظة

---

(١) الأصفهانى : الأغانى، جـ١٩، ص٩٥.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٦، ص٥١٤.

(٣) O'Leary : Arabia Before Muhammad, p. 173.

وبنـو بهدل هاربين إلى الحجاز، فتبعهم الروم فأعجزوهم وهلك جند الروم فى المغاوير والصحارى الخالية من الماء، ثم أخذت جموع اليهود فى الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم، ثم قصد بنو النضير وقريظة منطقة يثرب وسكنوا هناك فى أغنى البقاع وأخصبها أرضا[١].

اختلط اليهود المهاجرون بالعرب المقيمين بيثرب وعاشوا معهم وتأثروا بهم حتى اتخذ كثير منهم أسماء عربية. بينما بقيت ألقابهم عبرية فمنهم عبدالله ابن صوريا، وكنانة بن حورياء ووهب بن يهوذا وزيد بن اللصيتى ونعمان بن آضا وثعلبة بن أشعيا والزبير بن باطا ورفاعة بن النابوت وسلسلة من برهام وغيرهم[٢]، وعلى ذلك فلا يصح الاعتماد على رأى المؤرخ اليعقوبى الذى يرى أن بنى النضير وبنى قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية وأنهم تهودوا فى أيام الشاعر المشهور السموءل بن عادياء وسموا بأسماء الأماكن التى نزلا فيها وهى جبلا النضير وقريظة فنسبوا إليها[٣]. ولو كان الأمر كذلك لما ورد ذكرهم فى كثير من آيات القرآن الكريم[٤] على أنهم عنصر قائم بذاته دخيل على جزيرة العرب مما يجزم بأنهم لم يكونوا قبائل عربية تهودت. بينما اعتنقت بعض البطون العربية التى كانت تقطن يثرب حين قدوم اليهود المهاجرين إليها، الدين اليهودى بعد مقام اليهود إلى جوارهم وقيامهم بنشر دينهم بينهم ومن تلك البطون بنى الحارث بن كعب، وقوم من غسان وقوم من جذام وقوم من بلى[٥].

أقامت القبائل اليهودية المهاجرة فى منطقة يثرب على هيئة جاليات كبيرة منفصلة فى أحياء خاصة، وكان أشهرهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وكان يعيش فى كنفها البطون والعشائر اليهودية الصغيرة[٦].

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٨٧؛ السمهودى : وفاء الوفا، جـ١، ص١١٢.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٢، ص١٣٦-١٣٨.

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، حـ٢، ص٣٦، ٣٩.

(٤) سورة البقرة : آية (٢١١)، سورة النساء : الآيات : (١٥٣-١٥٥)، سورة المائدة : الآيات : (٧٨-٨١).

(٥) اليعقوبى : المرجع السابق، جـ١، ص٢٥٧.

(٦) اسرائيل ولفنسون : اليهود فى بلاد العرب، ص١٤.

اتخذ اليهود من المناطق المتميزة في يثرب مقاما لهم، فسكن بنو قينقاع في وادى بطحان مما يلى العالية، وأقام بنو النضير بالعوالى جنوب شرقى يثرب على وادى مذينب، أما بنو قريظة فنزلوا وادى مهزوم وأقاموا هناك، وكلها من أطيب مناطق المدينة وأكثرها خصوبة[١].

قام اليهود ببناء الحصون والقلاع القوية فى يثرب لتأمين حياتهم وإقرار الهيبة فى نفوس جيرانهم، وبلغت من قوتها وكثرة عددها أنهم ظنوا أنها مانعتهم حصونهم فكانوا يتحصنون بتلك القلاع والقرى الحصينة خوفاً من هجمات الأعراب وغاراتهم وليؤكدوا عزلتهم وابتعادهم عن الاندماج فى القبائل والبطون العربية التى وفدوا عليها وأقاموا إلى جوارها. وإنما عقد اليهود مع تلك القبائل العربية تحالفاً يقضى بحسن الجوار وعدم التعرض لبعضهم البعض، حتى يتسنى لهم العمل على تقوية أمرهم وتثبيت أقدامهم فى تلك البقاع الخصيبة الغنية.

قويت شوكة اليهود فى يثرب وزاد عددهم وتضخمت ثرواتهم، فلما قدم الأوس والخزرج المهاجرين من بلاد اليمن[٢]، أثر حادث سيل العرم وانهيار سد مأرب، وجدوا اليهود هناك وقد سيطروا على كافة شئون المدينة فالثروات والخيرات بأيديهم والحصون والقلاع دورهم التى يقيمون فيها، فنزل الأوس والخزرج إلى جوارهم، وعاشوا معهم فى وفاق ووئام وتعاهدوا على الحماية المتبادلة والدفاع المشترك. يقول السمهودى[٣] : «أقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخيل فى أيدى اليهود ووجدوا العدد والقوه معهم فمكثوا، ما شاء الله، ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً، يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به من سواهم، فتعاقدوا وتحالفوا وتعاملوا».

---

(١) السمهودى :وفاء الوفا، جـ١، ص ١١٢-١١٦.

(٢) Margoliouth : The relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, London, 1924, p. 60.

(٣) السمهودى : المرجع السابق، جـ١ ، ص١١٦.

أقامت قبيلة الأوس ببطونها وعشائرها في المنطقة الجنوبية والشرقية من يثرب، بينما سكنت بطون الخزرج وعشائرها المنطقة الوسطى والشمالية من المدينة[١]. ولما كانت الثروات والخيرات والنفوذ في أيدى اليهود، فقد عاشت القبيلتان العربيتان في شظف من العيش مما اضطر أبناؤهما إلى العمل الشاق من أجل الحصول على لقمة العيش واستمرار الحياة. يقول الأصفهانى : «إن الأوس والخزرج توجهوا بعد هجرتهم إلى المدينة، وحين ورودها نزلوا في حرار، ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ إلى نمعاء الأرض لا ساكن فيها، ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها، فكانوا مع أهلها، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم التى نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش ليسوا بأصحاب نخل وزرع، وليس للرجل منهم إلا الأعزاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات، والأموال لليهود»[٢].

وظل الحال على ذلك إلى أن قوى أمر الأوس والخزرج وازدادت قوتهم وأموالهم، فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوا أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى كان بينهم، وأساءوا معاملتهم فلما استبدت القبائل اليهودية بالأوس والخزرج، استنجدوا بالغساسنة الذين يرتبطون بهم برابطة الخؤولة، فقدموا لنجدتهم من تسلط اليهود ثم رجعوا إلى الشام بعد أن صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة، فتفرقوا في عالية يثرب وسافلتها يتبوءون منها حيث شاءوا، واتخذوا الديار والأموال والآطام[٣].

كانت العلاقة بين الأوس والخزرج تقوم على الود والوفاق في بداية عهدهم، ثم وقعت بينهم حروب كثيرة استمرت زمناً طويلا، كان أولها حرب سمير، وآخرها حرب بعاث التى وقعت قبل الهجرة النبوية بخمس سنوات[٤]. وترجع أسباب تلك الحروب إلى التنافس القبلى بين الحيين على السيادة في يثرب، خاصة أن الخزرج كانوا يفتخرون بتحقيق النصر على اليهود وإعلاء شأن

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا، جـ١، ص١٣٦، ١٥٢.

(٢) الأصفهانى : الأغانى، جـ١٩، ص٩٦.

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٨٧-٢٨٩.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ١، ص٤٠٢-٤١٨؛ السمهودى : وفاء الوفا، جـ١، ص١٥٢.

العرب، بينما يرى الأوس فى ثرائهم وامتلاكهم الضياع فى المدينة أحقية أن تكون لهم المنزلة العليا والسيادة، فلما تغلغلت البغضاء فى النفوس وتمكنت العداوة منهم، تصارعوا وتحاربوا وكان النصر فى أغلب الأحيان حليفاً للخزرج، حتى اضطرت الأوس إلى أن تسعى إلى محالفة قريش لتكون عوناً لهم على الخزرج، لكن قريش كانت أحرص من التورط فى حروب قد تضر بمصالحها التجارية، فما كان من الأوس إلا أن اتجهت إلى جيرانها من القبائل اليهودية فتحالفت مع بنى قريظة وبنى النضير، غير أن الخزرج كانت من القوة بحيث أنذرت اليهود إن هم انحازوا إلى جانب الأوس، فأخبرهم اليهود أن هذا الحلف ليس موجهاً ضد أحد، إلا أنهم لعبوا دوراً كبيراً فى إذكاء روح التحاسد والتباغض بين الحيين العربيين حتى انتهى الأمر باشتعال الحروب بينهم عند بعاث، حصن بنى قريظة بعد أن انحاز اليهود إلى جانب الأوس مجددين تحالفهم ضد الخزرج، وانهزم الأوس فى بادئ الأمر، غير أن الموقف تبدل بعد مقتل عمر بن النعمان قائد الخزرج، مما شجع الأوس على إعادة الكرة على الخزرج فمالوا عليهم وألحقوا بهم خسائر كبيرة، وقام اليهود بنهب أموالهم ومتاعهم، ثم ما لبث الأوس أن كفت عن القتال خشية تحطيم قوة أبناء عمومتهم، فينقلب إليهم اليهود ويواجهونهم منفردين، فيتم بذلك القضاء على العرب جميعاً وتستعيد القبائل اليهودية سطوتها فى مدينة يثرب العربية. فصاح صوت العقل من الأوس قائل : «يا معشر الأوس، أحسنوا ولا تهلكوا أخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب»(١).

انتهى يوم بعاث بالتصالح بين الأوس والخزرج بعد أن ذاقوا مرارة الحرب وويلاتها، وأدركوا أن السلام هو الطريق الوحيد إلى الاستقرار والأمن، فاجتمع القوم وأعادوا الوفاق والوئام سيرته الأولى، وكانوا كلما سعى أحدهم فى إثارة الفتن وإيقاد نار العداوة تصدى له ذوو النفوذ ومنعوا تطور الأمور وإشعال الحروب، ثم ما لبث أن اجتمع الأوس والخزرج على اعتناق الدين الإسلامى، واتفقت الكلمة وكفى الله المؤمنين شر القتال وأصبح القوم بنعمته إخوانا متحدين متعاونين على نصرة الإسلام والمسلمين.

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١ ، ص٤١٨ .

٣ - الطائـف

تقع الطائف على مرتفع من الأرض يعرف بجبل غزوان شرقي مكة[١]، لذلك تميزت بطيب جوها في الصيف واعتدال مناخها وفضلا عن ذلك اشتهرت بكثرة شجرها وكثافة نخيلها وتنوع ثمارها، إلى جانب بساتينها[٢] التي كان يزرع بها كثير من الفواكه المعروفة في بلاد الشام[٣].

لما كانت الطائف تقع على مقربة من مكة، قامت بين أهالي المدينة صلات متينة وعلاقات تجارية، فكان المكيون يقرضون أهل الطائف ما يحتاجون إليه من الأموال، كما كان لطيب مناخها أن اتخذ منها أثرياء مكة مكاناً للراحة وملاذا يلجأون إليه هرباً من حرارة الصيف. فلما وصف محمد بن عبدالله النميرى، زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية قال :

تشـــتو بمـكة نعمـة ومصيفـــها بالطـائـــف[٤]

وكان للعباس بن عبدالمطلب كرم بالطائف وله مع أهل هذا البلد معاملات، فكان يداينهم ويأخذ منهم الزبيب ويسقيه الحجاج في موسم الحج[٥]. ونتيجة للعلاقات الوطيدة وأواصر الصداقة بين أهالي المدينتين أن أطلق عليهما المكتان والقريتان، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾[٦].

يرى المؤرخون القدامى أن الطائف كانت تسمى في الأزمان الغابرة «وجا» نسبة إلى وج بن عبدالحي شقيق أجأ الذى سمي به أحد جبلى طيء، وكانوا

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ٤، ص٩.

(٢) Lammens : Le Berceau de L'Islam, Rome, p. 93.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٤) ياقوت : المصدر السابق، جـ٤، ص١٢.

(٥) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص٦٥.

(٦) سورة الزخرف : آية (٣١).

من العماليق البائدة، أول من سكن تلك المدينة، ثم ما لبث أن غلبهم عليها بنو عدوان بن قيس بن عيلان، وجاءت بعدهم بنو عامر بن صعصعة فاستولت على المدينة، ثم أخذتها منهم قبيلة ثقيف[١]، ذلك أن قسي بن ضبه بن بكر ابن هوازن رحل من وادى القرى الذى كان ينزل فيه مع قبيلة قيم إلى «وج». وقابل زعيمها عامر بن الظرب العدوانى، وطلب منه أن يزوجه إحدى بناته، فتم له ما أراد ثم ما لبث أن تزوج أختها بعد وفاتها، وكانت قبله عند صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن فولدت له عامر بن صعصعة، واستقر مقامه هناك وغرس بأرضه بعض العيدان التى أخذها من عجوز يهودية، فلما أثمرت العيدان. قال أهل وج : «قاتله الله كيف ثقف عامرا حتى بلغ منه ما بلغ وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء، فسمى ثقيفا من يومئذ[٢] وتكاثر نسله وتضخمت قبيلته، لذلك رأت ثقيف أن تبنى سورا يكون حصنا لهم يطيف بهم، فسمى لذلك الطائف.

وصارت الطائف بعد وفاة عامر العدوانى بين ثقيف وولد عامر بن صعصعة الذين ما لبثت أن نشبت الحرب بينهم وانتهى الأمر بهزيمة عامر بن صعصعة وانفراد قبيلة ثقيف[٣] بالسلطة فى الطائف.

كانت ثقيف تتألف من بطنين كبيرين، الأحلاف وبنى مالك وكانت بين الطبقتين ضغائن، فلما قامت الحرب بين الأحلاف بقيادة مسعود بن معتب وبين بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وزعيمهم عفيف بن عوف بن عباد، بسبب اعتداء الأحلاف على جزء من أراضيهم، انتهز بنو مالك هذه الفرصة وانضموا إلى بنى نصر وقاتلوا الأحلاف، غير أن المعركة انتهت بانتصار الأحلاف مما ترتب عليه إخراج بنى مالك إلى واد وراء الطائف يعرف باسم لحب. ثم رأى بنو مالك إزاء قلة حيلتهم وضعف أمرهم أن يحالفوا بعض

---

(١) ابن قتيبة : المعارف، ص ٩١،١

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٢٤.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، جـ٤، ص١٣.

القبائل العربية، كما خرج مسعود بن معتب زعيم الأحلاف إلى المدينة يبغى الحلف مع الأوس، فالتقى هناك مع أحيحة بن الجلاح، أحد أشراف الأوس الذى نصحه بمصالحه بنى مالك وزوده بسلاح ومؤن وأعطاه غلاما كان يبنى الآطام بالمدينة فبنى لمسعود بن معتب أطما، فكان أول أطم بنى بالطائف. ثم بنيت آطام كثيرة بعد ذلك فى الطائف، وفى هذا الصدد يقول ربيعة بن سفيان، أحد بنى عوف بن عقدة من الأحلاف[١] :

وما كنت ممن أرث الشر بينهم ... ولكن مسعودا جناها وجندبا

قريعى ثقيف أنشبا الشر بينهم ... فلم يك عنها منزع حين أنشبا

عناقا ضروسا بين عوف ومالك ... شديدا لظاها مترك الطفل أشيبا

أصابت براء من طوائف مالك ... وعوفا بما جرا عليها وأجلبا

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٤٢١-٤٢٢.



الفصل السابع

الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام

تمهيـــد

١ – الديانات غير السماوية :

أ) الوثنيـــة.

ب) عبـادة الجن.

جـ) المجوسـية.

د) الصـابئـة.

٢ – الديـانـة اليهــوديـة.

٣ – الديـانـة النصــرانيـة.

٤ – الديـانـة الحنيفيـة.



الحياة الدينية عند العرب

قبل الإسلام

تمهيد :

ترجع أهمية دراسة الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام إلى محاولة فهم عقلية وطرق تفكير ومعتقدات القوم الذين نزل الوحى بينهم، والتعرف على وجهة نظرهم إلى الخالق والكون. فنقف على الأسباب التى دعت إلى نزول الوحى من الله عز وجل وظهور الدين الإسلامى.

الواقع أن أديان العرب فى داخل جزيرتهم كان بينها صلات ومؤثرات، فلم يكن هناك استقلال وانفصال بين الأديان التى اعتنقها عرب الشمال عن تلك التى آمن بها أولئك الذين استقروا فى الجهات الجنوبية من بلاد العرب. وقد كان للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية أثرها فى نمو الأفكار الدينية عند العربى قبل الإسلام. فعبادة السماء والنجوم والكواكب كانت ترجع إلى طبيعة حياته واعتقاده أن لها أثراً عميقاً فى مقدراته وأمور حياته ومعيشته اليومية، فإرضاؤها يجلب له الخير والسعادة وإغضابها يجر عليه الوبال والشقاء. كما أن عبادة الشمس والأمطار والأشجار والآبار وبخاصة عند عرب الجنوب كان مرجعها إلى العوامل الاقتصادية التى تفرق بين المجتمع البدوى الشمالى وبين المجتمع الجنوبى الزراعى، الذى تقوم حضارته على مياه الأمطار والشمس لما لهما من أثر بارز فى حياتهم فالمطر يعد من أهم وسائط الإسقاء والخصب والنماء فى جزيرة العرب، فكانوا يستمطرون السماء ويقدمون القرابين لها[1]، وكانوا يسجدون للشمس من دون الله كما جاء فى القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾[2].

---

(١) الجاحظ : الحيوان، القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، جـ٤، ص٤٦١.

(٢) سورة النمل : آية (٢٤).

كذلك كان للعوامل النفسية أثر كبير في المعتقد الديني وتصور الناس لآلهتهم، فانتصار القبيلة وهزيمتها في الحروب الكبيرة التي قامت بينها وبين جيرانها، كان له أثر مباشر على آلهتها، فقد تبقى تلك الآلهة ويعظم شأنها بانتصار القبيلة، وقد تموت وتنتهي لاعتقاد القبيلة أن هزيمتها التي نزلت بها إنما كانت بسبب ضعف ربها واستكانته وعدم مقدرته الدفاع عنها، ولذلك تقرر الاستغناء عنه والتوجه إلى رب جديد قوى، ويتم عبادة الهة القاهرين باعتبار أنها أقوى، وأعظم شأناً وسبباً في النصر.

كما كان للعامل النفسي أثره أيضاً في ظاهرتي التفاؤل والتشاؤم عندهم، فاعتقدواأن الأرواح لها قدرة على الظهور للإنسان بأشكال مختلفة وقد تحل في بعض الحيوانات. فكان هناك عدد من الحيوانات التي اعتقدوا أنها تجلب لهم الخير أو الشر مثل الغراب والديك والبومة والحيات والسحالي وذهبوا إلى أبعد من ذلك، باعتقادهم أن بعض تلك الحيوانات هي جن في هيئة حيوان ولاسيما الحيات. كما نظر العربي إلى بعض الأشجار نظرة تقديس وأعرض عن إيذائها خوفاً من انتقام الروح التي تحل بها[١]. ومما يدل على أن العربي لم يعبد الصنم معتقداً أنه خالقه، أنه كان تارة يستسقم عند الوثن، وتارة أخرى يسبه ويشتمه أو يأكله وقت المجاعة[٢].

وكان للقمر أثر نفسي في عبادتهم له، بما يبعثه فيهم من نور يهدى الناس في الليل وبما يؤثر في أحاسيس البشر وتنمية ملكاتهم، التي ظهرت بوضوح في أشعارهم.

ومهما يكن من أمر فقد انتشرت عبادة الظواهر الطبيعية المعروفة بالوثنية في بلاد العرب لتوهمهم أن وراءها قوى روحية كامنة تتحكم في تسيير حياتهم ومقدرات أمورهم. وكأنها كائنات حية ذات أثر وسلطان في مصير هذا الكون، الذى أحد كائناته الإنسان. وقد اتخذ العرب لهذه الظواهر الطبيعية

---

(١) محمد عبدالمعيد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام، القاهرة، ١٩٣٧، ص٥١.

(٢) محمد عبدالمعيد خان : المرجع السابق، ص١٠٧.

أشكالا مختلفة تتمثل فى أشياء مادية قريبة ملموسة هى رمز للآلهة المعبودة ومنها الأحجار الطبيعية والمصقولة التى هذبتها يد الإنسان، والأشجار والبيوت والحيوانات وغيرها، وصاروا ينظرون إليها على أنها المواضع التى تحل فيها القوى المؤثرة، ذلك أن الأشياء المادية لم تكن المقصودة بالعبادة، بل كانوا يتقربون إلى الأرواح التى تحل فيها، فأكثر العرب قبل الإسلام كانوا ماديين لا يؤمنون بقوة إلهية غيبية عظمى تتحكم فى هذا الكون، إنما كان لابد لهم من الملموس والمحسوس الذى يمكن إدراكه والتقرب إليه. فكان مالك بن حارثة يحمل اللبن ويذهب به إلى الصنم «ود» ليسقيه، غير أنه كان يبخل على صنمه ويشربه هو سراً[١]. كما كانوا يحملون التمائم والعوذ مثل كعب أرنب، أو سن ثعلب أو سن هرة، لاعتقادهم أن فيها قوة سحرية عجيبة تنفع حاملها وتجلب له السعد وتطرد عنه الأذى.

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢١٤.

١ – الديانات غير السماوية

أ) الوثنيــة :

تطورت عبادة قوى الطبيعة عند العرب قبل الإسلام فصارت عبادة للأصنام التى كانت تمثلها من قبل، فبعد أن اتخذوها صورا ورموزا للقوى الخفية التى تؤثر فى حياتهم، عبدوها على صورتها المادية بعد أن مضى زمن طويل تحولت فيه الصور والرموز إلى أصول تعبد من دون الله.

وصار الأساس في اعتقادهم أن الله قد اتخذ أولياءهم الآلهة ومنحهم فيضاً من قدراته على شفاء الناس والتوفيق فى الزواج والذرية الصالحة وإبعاد الشر وجلب السعادة. وهي ما لا يمكن أن يناله الإنسان إلا بإرضاء هذه الآلهة التى يعبــدونها وتقديم القرابين لها حتى تقربهم إلى الله زلفى. قال الله تبارك وتعالى : ﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾[١].

ويرى الأخباريون أن أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، واتخذ الأصنام هو عمرو بن لحى الخزاعي، الذى كانت له السيادة على الكعبة فى مكة. ذلك أنه لما مرض عمرو قيل له : إن بالبلقاء من الشام حمة –وهو مكان يستحم فيه – إن أتيتها برأت فأتاها، فاستحم بها، فبرئ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال لهم : ما هذه الأوثان التى أراكم تعبدون؟ قالوا نستسقى بها المطر، ونستنصر بها على العدو فسألهم أن يعطوه منها، فأعطوه صنما يقال له هبل، فقدم به مكة ونصبه عند الكعبة[٢]. وصار عمرو بن لحى يوزع الأصنام على القبائل، فشاعت عبادة الأصنام بين العرب وانتشرت

---

(١) سورة الزمر : آية (٣).

(٢) الكلبى : الأصنام، ص٦٠؛ الصنم : كان يتخذ من الصخر ونحوه، والوثن : ما كان من غير صخر.

انتشاراً عظيماً فى جزيرة العرب، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة سنة ٨ هـ رأى فيها ستين وثلاثمائة صنم، فأمر بها فكسرت[١].

كانت الأصنام تمثل فى معتقد عابديها قوى عليا يجب تقديسها، لذلك كانت توضع على أشكال مختلفة طبقاً لمدلولها عندهم، وكان صانعوها يحاولون إعطاءها أشكالا أسطورية مؤثرة، ويحرصون على صنعها من الأشجار المقدسة أو اتخاذها من الحجارة الطبيعية المتوارثة عن الأجداد وبخاصة التى كانت من حجارة البراكين أو من النيازك لظنهم أنها مرسلة إليهم بفعل قوى خفية خارقة. يقول ابن سعد : «لما حج آدم وضع الحجر الأسود على أبى قبيس، فكان يضئ لأهل مكة ليالى الظلم كما يضئ القمر، فلما كان قبيل الإسلام بأربع سنين أنزلته قريش من أبى قبيس[٢].

كان الصنم هبل هو أول صنم جاء بن عمرو من مآب بأعمال البلقاء[٣]، وأمر الناس بعبادته، فكان الرجل إذا قدم من سفر طاف حول البيت، ثم حلق رأسه عنده قبل العودة إلى أهله، وكان هبل من خرز العقيق على صورة إنسان، وكانت يده اليمنى مكسورة، فجعلت له قريش فيما بعد يداً من ذهب، وكانت له خزانة للقربان، تسع مائة بعير، وله حاجب يقوم بخدمته[٤]. وكان فى جوف الكعبة أمامه سبعة أقداح مكتوب فى أولها صريح والآخر ملصق فإذا شكوا فى مولود أهدوا إليه هدية ثم ضربوا بالقداح فإن خرج صريح ألحقوه، وإن خرج ملصق دفعوه، وقدح على الميت وقدح على الزواج، والثلاثة الأخرى يضربونها إذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملا فما خرج عملوا به وانتهوا إليه[٥]. ويقول ابن هشام : «فإذا أرادوا أن يختنوا غلاما، أو ينكحوا منكحا، أو يدفنوا ميتا، أو شكوا فى نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل وبمائة

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ٢، ص١٦٨.

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبير، جـ١، ص١٢.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص٦٣.

(٤) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص٦٨-٧٠.

(٥) الكلبى : الأصنام، ص٢٨.

درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون، ثم قالوا : يا إلهنا هذا فلان ابن فلان قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب، فإن خرج عليه (منكم) كان منهم وسبطا، وإن خرج عليه (من غيركم) كان حليفا، وإن خرج عليه (ملصق) كان على منزلته فيهم، لا نسب له ولا حلف، وإن خرج فيه شئ مما سوى هذا مما يعلمون به (نعم) عملوا به، وإن خرج (لا) أخروه عاما وذلك حتى يأتوه به مرة أخرى، ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح[1]».

ولعل من أشهر ما رواه الإخباريون عن الضرب بالقداح من أجل الوفاء بالنذور، نذر عبدالمطلب جد النبى محمد ﷺ، الذى نذره قائلا : لئن ولد لى عشرة أبناء ثم شبوا وأصبحوا بحيث يمنعوننى لأنحرن أحدهم عند الكعبة، فلما حقق الله تبارك وتعالى أمنيته أراد أن يفى بنذره، فجمع أبناءه العشرة عند الصنم هبل، وطلب من سادنه ضرب القداح عليهم، وأعطى كل واحد منهم قدحا فيه اسمه، فلما ضرب صاحب القداح، خرج قدح أصغر أبنائه عبدالله بن عبدالمطلب (نعم)، وأراد عبدالمطلب التضحية بإبنه عبدالله على كره منه، إذ كان يؤثره على سائر أبنائه، فحالت قريش بينه وبين ما أراد وأشاروا عليه بالمسير إلى عرافة خيبر، فإن أمرته بذبحه فعل، وإن أشارت بغير ذلك عمل بمشورتها، فلما قص عبدالمطلب إلى العرافة خبر ابنه قالت له : كم الدية فيكم؟ قال : عشر من الإبل قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم، وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم. فإذا خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم، فعاد عبدالمطلب إلى مكة ولجأ إلى صاحب القداح، فكان كلما ضرب بقدح خرج على عبدالله، فزاد عشرا من الإبل، فخرج القدح على عبدالله أيضاً. وأخذ عبدالمطلب يزيد الفداء عشرا

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٥٨.

فعشرا حتى بلغ المائة، فخرج القداح على الإبل فنحرت ثم تركت لا يمنع عنها إنسان ولا سبع[١].

على الرغم من علو مكانة هبل في نفوس الوثنيين إلا أن أشهر الأصنام التي حظيت بالتعظيم والتقديس من قبل أكثرية القبائل العربية هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، في قوله تبارك وتعالى : ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى﴾[٢].

كانت عبادة الصنم اللات شائعة بين العرب جميعاً في شمال جزيرة العرب وفي جنوبها، وهو عبارة عن صخرة مربعة بيضاء بالطائف أقامت عليها ثقيف[٣] بيتا جعلت فيه حرما يقصده الناس، يتقربون إليها ويقدمون لها الذبائح. ويذكر الأخباريون أن اللات كان رجلا من ثقيف يلت السويق للحجيج على صخرة هناك، فلما مات قال لهم عمرو بن لحي : لم يمت، ولكن دخل في الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليها بنيانا يسمى اللات، فاتخذتها ثقيف طاغوتا وبنت لها بيتا وجعلت له سدنة وعظمته وطافت به، وبه كانت تسمى قبائل زيد اللات وتيم اللات، وظلت اللات تعبد من دون الله حتى أسلمت ثقيف. فبعث رسول الله ﷺ، المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار، وقال : شداد بن عارض الجشمي حين هدمت وأحرقت ينهى ثقيفا عن العود إليها :

لا تنصروا اللات أن الله يهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر؟[٤]

أما العزى فكانت شجرة بوادى نخلة إلى الشرق من مكة عندها وثن تعبده غطفان، وسدنتها من بني صرمة بن مرة، وكان الذي اتخذها ظالم بن

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١ ، ص١٥٧-١٦١.

(٢) سورة النجم : آية (١٩).

(٣) الكلبي : الأصنام، ص١٦.

(٤) الكلبي : المصدر السابق، ص١٦.

أسعد وبنى لها بيتا ولها منحر، ينحرون فيه هداياهم يقال له الغبغب[١]، وكانت العزى أعظم الأصنام عند قريش، يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح. كما عبدتها غنى وباهلة وخزاعة وجميع مصر وبنو كنانة وعطفان من القبائل العربية. وكانت العرب إذا فرغوا من حجهم وطوافهم حول الكعبة لم يحلوا حتى يأتوا العزى، فيطوفون بها ويعكفون عندها يوماً[٢].

وظلت العزى تعبد من دون الله حتى بعث رسول الله ﷺ، خالد بن الوليد بعد فتح مكة وأمره بهدمها، فقطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن، وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك[٣]

كانت مناة صخرة أقيم لها معبد في قديد على ساحل البحر بين مكة ويثرب، وكانت مقدسة عند هبل وخزاعة والعرب جميعاً وبخاصة الأوس والخزرج، يقول الكلبي فكانوا (الأوس والخزرج) يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم إلا عنده، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك[٤]، وكان لسعة انتشار عبادة الصنم مناة أن تسمت به عدد غير قليل من القبائل، منها عبد مناة وزيد مناة، وبقي هذا الصنم يعبد على هذا النحو حتى تم هدمه بيد على بن أبي طالب سنة ٨ هـ بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥].

ومن أقدم الأصنام التي امتدت عبادتها من أيام نوح عليه السلام، وقدستها القبائل العربية واتخذتها أربابا من دون الله. تلك التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده

---

(١) الكلبي : الأصنام، ص١٨.

(٢) الأزرقي : أخبار مكة، جـ١، ص٧٤.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص١٨٥.

(٤) الكلبي : المصدر السابق، ص١٤.

(٥) ياقوت : المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٠٤-٢٠٥.

ماله وولده إلا خسارا. ومكروا مكرا كبارا. وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾[١].

فاتخذت قبيلة كلب من قضاعة الصنم ودا معبوداً لها، وكان عوف بن عذرة بن زيد اللات سيد القبيلة هو الذى حمله إلى وادى القرى ونصبه بدومة الجندل ودعا قومه إلى عبادته، وسمى ابنه باسمه «عبد ود». وجعل ابنه عامر الأجدار سادنا له، وكان ود تمثالا لفارس محارب، يقول الكلبى : تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد دثر عليه (نقش عليه) حلتان، متزر بحلة، ومرتد بأخرى عليه سيف قد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء ووفض (جعبة) فيها نبل»[٢]. وقد بقى ود قائما فى مكانه إلى أن بعث رسول الله ﷺ، خالد بن الوليد إلى دومة الجندل فهدم الصنم وكسره[٣].

وكان سواع عبارة عن حجر عبده بنو هذيل بن مدركة فى رهاط من أرض ينبع على مقربة من يثرب وكان بنو لحيان سدنته الذين يقومون على رعايته[٤]، وقد تم هدمه على يد عمرو بن العاص[٥].

أما يغوث فقد نصبه أنعم بن عمرو المرادى بأرض مذحج باليمن، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل جرش، غير أنه حدث نزاع على هذا الصنم بين بنى أنعم وبنى مراد الذين أرادوا أن يكون فيهم وسدانته لهم، فهرب بنو أنعم بصنمهم إلى بنى الحارس بن كعب واحتفظوا به بعد أن وقعت الهزيمة فى مراد[٦].

---

(١) سورة نوح : الآيات (٢١-٢٤).

(٢) الكلبى : الأصنام، ص ٥٦.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥ ، ص٣٦٨.

(٤) ياقوت : المصدر السابق، جـ٣، ص٢٧٦.

(٥) الكلبى : المصدر السابق، ص٥٧.

(٦) ياقوت : المصدر السابق، جـ٥، ص٤٣٩.

وكان يعوق صنم همدان وخولان، ذلك أن مالك بن مرثد بن جشم من همدان كان قد وضعه في موضع يعرف بخيوان من صنعاء[١]، فعبدته همدان وخولان ومن والاهما.

أما نسر فقد اتخذته حمير وكان موضعه بلخع من أرض سبأ[٢]، وكان على هيئة الطائر المسمى باسمه، ولم تقتصر عبادته على العرب الجنوبيين، بل انتشرت عبادته في شمال جزيرة العرب فقد وجدت أصنام على صورة نسر منحوتة على الصخور خاصة في أعالي الحجاز[٣]، وظلت حمير ومن والاها تتعبد للنسر حتى تهودت على أيام ذى نواس[٤]. وقد وصف لنا القرطبى الأصنام الخمسة التي أخذتها القبائل العربية عن قوم نوح في إيجاز بليغ فقال : «كان ود على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير»[٥].

وكان الصنم رضاء من بين الأصنام التي انتشرت بين العرب الشماليين بعد أن توارثوا عبادتها عن قوم ثمود، فقد ورد اسمه في كتابات ثمودية عديدة[٦] واختصت كل من قبائل تميم وطيء بعبادته، وظل الحال على ذلك حتى هدمه عمرو بن ربيعة بن كعب من تميم بعد إسلامه[٧]، وقال في ذلك :

لقد شددت على رضاء شدة   فتركتها قفرا بقاع أسحما

كما امتدت عبادة الصنم كثرى من أيام طسم وجديس حتى كسره نهشل ابن الربيس بن عرعرة في عهد رسول الله ﷺ[٨]. وكان المنطبق أيضاً صنما

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٤٣٨.
(٢) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢١.
(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص٨٨.
(٤) الكلبى : الأصنام، ص٥٧.
(٥) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن، جـ١٨، ص٣٠٩.
(٦) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص١٠٥.
(٧) الكلبى : المصدر السابق، ص٣٠.
(٨) الكلبى : المصدر السابق، ص١١٠.

لعك والسلف والأشعريين وهو من نحاس، فلما كسرت الأصنام وجدوا فى جوفه سيفا، فاصطفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

كذلك كان للقبائل العربية عدة أصنام اختصتها بالرعاية والتقديس فمنها اساف ونائلة، وترجع عبادتهما إلى اعتقاد القريشيين أن اساف كان رجلا يقال له اساف بن بعلى ونائلة بنت زيد وكلاهما من جرهم، وكان اساف يتعشق نائلة بأرض اليمن، فأقبلا حاجين فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة فى البيت ففجر بها فى البيت فمسخا. فأصبحوا فوجدوهما مسخين فأخروجوهما فوضعوهما موضعهما فعبدتهما قريش وخزاعة ومن حج البيت بعد من العرب(٢).

وكان اساف ملاصقا للكعبة ونائلة فى موضع زمزم، وكانوا ينحرون ويذبحون عندهما ويطوفون حولهما فكان العربى يبدأ طوافه باساف ويتمسح به ثم يفعل بنائلة ويختم طوافه باساف، ولما تحالفت قريش على بنى هاشم حلف بهما أبوطالب قائل :

أحضرت عند البيت رهطى ومعشرى وأمسكت من أثوابه بالوصائل

وحيث ينيخ الأشعرون ركباهم بمفضى السيول من اساف ونائل

وقد كسرهما رسول الله ﷺ يوم الفتح فيما كسر من الأصنام(٣).

وكان مناف من أصنام العرب وبه كانت قريش تسمى عبد مناف وكان الإله مناف على هيئة رجل لا لحية له، ينحدر على عارضيه شعر رأسه، وحول جفنيه وحدقتيه خطان ناعمان وعلى صدره طيات ردائه، ويرى طرف طيلسانه الإلهى الذى ينعطف من كتفه الأيسر فيتصل إلى الأيمن ويعقد به، وقد عثر على كتابة فى حوران ورد فيها اسم مناف مع إله آخر(٤).

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٢١٢.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص٨٧.

(٣) ياقوت : المصدر السابق، جـ١، ص١٧٠.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص١٠٦.

أما الصنم ذو الخلصة فكان موضعه بتباله بين مكة واليمن[١] وله بيت تحج إليه قبائل خثعم وبجيلة وباهلة ودوس وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن، وكان ذو الخالصة على هيئة مروة بيضاء، منقوشة عليها كهيئة للتاج، وقد سمى بذلك لأن عباده الطائفين به كانوا من الخلصة، وكان له ثلاثة أقداح : الآمر والناهى والمتربعى. يأتى الناس إليه للاستقسام فضلا عن طوافهم به وقد لبسوا القلائد، كما كانوا يهدون إليه الشعير والحنطة ويصبون عليها اللبن ويذبحون له، ويعلقون عليه بيض النعام[٢]، وقد أحرقه جرير بن عبدالله البجلى بأمر رسول الله ﷺ[٣].

اشتهر ذو الشرى بمعبده الضخم الذى أقيم فى سلع[٤] (بطرا)، حيث تقدم إليه القرابين، فكان النبط يحتلفون بذى الشرى فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من كل عام، وكان هذا الصنم عبارة عن حجر أسود غير مصقول يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام وعرضه قدمين، ويستند الصنم إلى قاعدة مكسوة بالذهب. وبالرسوم التى توضح تقديم القرابين إليه، وقد شاعت عبادته بين عرب أعالى الحجاز قبيل الإسلام وبخاصة عند بنى الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد[٥].

اتخذت قبائل بنى مالك وملكان بن كنانة صنماً بساحل جده اسمه سعد وهو عبارة عن صخرة طويلة[٦] يتبركون بها، ولما أقبل رجل من بنى مالك بإبله ليستبرك بهذا الصنم نفرت منه وتفرقت، فذهبت فى كل وجه، فأسف الرجل وتناول حجرا رماه به وقال : «لا بارك الله فيك إلها انفرت على إبلى» ثم خرج فى طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه وهو يقول :

---

(١) الكلبى : الأصنام، ص٣٤.

(٢) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص٧٣.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٤) الكلبى : الأصنام، ص ٣٧.

(٥) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢٠٩.

(٦) الكلبى : المصدر السابق، ص٣٦.

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فتشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفه من الأرض لا تدعو لغي ولا رضد[١]

وكان لبني مهنب بن دوس صنم يعرف بذى الكفين وهو من الخشب، فقد أحرقه الطفيل بن عمرو الدوسي بالنار وهو يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أكبر من ميلادكا
أني حشوت النار في فؤادكا[٢]

كان ذو الرجل من أصنام أهل الحجاز[٣]. أما قضاعة ولخم وجزام وعاملة وعطفان فقد عبدت الأقيصر، وكانوا يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده وورد ذكره في كثير من أشعارهم[٤].

وكان لعنزه صنم يقال له سعيد يحجون إليه ويطوفون حوله وينحرون له الذبائح[٥].

أما الجلسد فكان صنم كندة وحضرموت، وسدنته بنو شكامه بن شبيب بن السكون، من كندة، وكان للصنم حمى إذا دخلته الغنم، حرمت على أربابها وصارت ملكا للصنم، وكان الجلسد على هيئة رجل ضخم من صخرة بيضاء فيه صورة وجه الإنسان. وكان عباده يتقربون إليه بذبح الذبائح وتلطيخه بدمائها. وقد سقط هذا الصنم وكسرت عنقه يوم بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم[٦].

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٣، ص٢٢١.
(٢) الكلبي : الأصنام، ص٣٧.
(٣) الكلبي : المصدر السابق، ص ١٠٩.
(٤) الألوسي : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢٠٩.
(٥) ياقوت : المصدر السابق، جـ٣، ص٢٢١.
(٦) ياقوت : المصدر السابق، جـ٢، ص ١٥١-١٥٢.

وكان المحرق، صنم لبكر بن وائل وسائر ربيعة، وقد جعلوا فى كل حى من ربيعة صنماً من أولاد المحرق، فكان بلج بن المحرق فى عنزة، وعمرو بن المحرق فى عمرو بن ربيعة. وكان لبكر وتغلب صنم آخر يقال له آوال أو ايال[١]. وكان سدنة المحرق، أولاد الأسود، من بنى عجلان[٢].

ومن أشهر الأصنام التى عبدتها قبائل اد، الصنم شمس، فعبدته ضبة وتميم وعدى وثور عكل. وأقاموا له بيتا، عينوا لسدانته بنى اوس بن فحاش، من تميم. وتسمى به بعض العرب الشماليين، فمنهم، عبد شمس، وعمرو شمس. وقد كسره هند بن أبى هالة وصفوان بن أسيد بن الحلاحل[٣]. وكان لبنى تميم صنم آخر يقال له تيم، فسموا به عبد تيم، وتيم الله[٤].

وكان الفلس صنم قبائل طئ وموضعه وسط جبل أجا وهو تمثال على هيئة انسان لونه أسود، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له. وكان سدنته من بنى بولان، وقد تم هدمه بيد على بن أبى طالب[٥]، وفضلا عن الفلس اتخذت طئ من اليعبوب وباجر أصناما لهم يعبدونها من دون الله[٦].

كان محرب صنم لحضرموت وبه سمى ذو محرب سادن الصنم[٧] كما كان ذريح لكندة بالنجير من اليمن ناحية حضرموت وله بيت يقصده مريدوه، وعبادة الصنمين لم تكن منتشرة خارج حدود الجهات الجنوبية من جزيرة العرب.

---

(١) الكلبى : الأصنام، ص١٠٧.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٦١.

(٣) ياقوت : المصدر السابق، جـ٣، ص٣٦٢.

(٤) الأصفهانى : الأغانى، جـ١٨، ص١٧٨.

(٥) الكلبى : المصدر السابق، ص٥٩-٦١.

(٦) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢١١.

(٧) الكلبى : المصدر السابق، ص١١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الصنمان مجاور الريح ومطعم الطير، فقد وضعهما عمرو بن لحى عند الصفا والمروة[١]، فكان الناس يحجون إليهما فى مواسم الحج.

كان العرب يؤدون طقوسهم الدينيـة لمعبوداتهم فى الأشـهر الحرم، وهى ذى القعدة وذى الحجة والمحرم ورجب، وقد سميت بذلك لاتفاقهم على حرمة نشوب الحروب فيها أو استباحة الدماء، وكان الحج الأعظم تختص به الكعبة التى يلى أمرها القريشيون فى مكة وكانت شعائره تتم فى شهر ذى الحجة. فكانوا يطوفون بها أسبوعا ويسعون بين الصنم اساف على الصفا وبين نائلة على المروة، ثم يقفون بجبل عرفة فى ساعة غروب الشمس، ويفيضون منها إلى المزدلفة عند شروقها ثم منى، وخلال طوافهم كانوا يتبركون بالحجر الأسود ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها، وفضلا عن ذلك كانت كل قبيلة تطوف حول صنمها سبعة أشواط، وكان منهم من يطوف عاريا ويعرف بالحلة ومنهم من يطوف مرتديا ثيابه النقية ويعرف بالأحمس[٢].

وطواف عارى الثياب يبدأ باساف فيستلمه ثم يستلم الركن الأسود ويطوف ويجعـل الكعبة عن يمينه، فإذا أتم طـوافه سبعا، استلم الركن ثم استلم نائلة فيختم بها طوافه، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخـذها فيلبسها، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عريانا. ويرجع الطواف العارى إلى قولهم : لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها فيلقونها عنهم ويسـمون ذلك الثوب لقى. وفى منى كانت ترمى الجمرات. أما النساء، فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا ذرعا مفرجا عليها، ثم تطوف فيه (سيور تعلقها تتستر بها) أو تطوف ليلا فيتخلصن من وقوع سترهن فى أعين الرجال[٣].

وكان الحمس على نقيض الحلة، فهم المتشددون فى دينهم، فكانوا إذا أحرموا لا يأكلون السمن ولا يسلؤونه ولا يمخضون اللبن، ولا يأكلون الزبد

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص١٣.

(٢) الأزرقى : المصدر السابق، جـ١، ص١٦٦.

(٣) الأزرقى : المصدر السابق، جـ١، ص١١٧.

ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يستظلون به ما داموا حرما، ولا يغزلون الوبر ولا الشعر ولا ينسجونه، ولا يأكلون شيئا من نبات الحرم، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾[١]، قوله تعالى : ﴿وكلوا واشربوا﴾ إشارة إلى ما كانت الحمس حرمته من طعام الحج إلا طعام الحمس، و﴿خذوا زينتكم﴾، يعنى اللباس، ولا تتعروا ولذلك افتتح بقوله : ﴿يا بنى آدم﴾ بعد أن قص خبر آدم وزوجه أن يخصفان عليهما من ورق الجنة، أى إن كنتم تحتجون بأنه دين آبائكم فآدم أبوكم ودينه ستر العورة.

وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ولا يخفرون فيها الذمة ولا يظلمون فيها، ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم وكانوا يقولون : لا تعظموا شيئا من الحل، ولا تجاوزوا الحرم فى الحج فلا يهاب الناس حرمكم ويرون ما يعظمون من الحل كالحرم، فقصروا من مناسك الحج والموقف من عرفة وهو من الحل، فلم يكونوا يقفون به ولا يفيضون منه، وجعلوا موقفهم فى طرف الحرم فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾[٢].

وكانوا يقولون : نحن أهل الحرم، لا نخرج من الحرم، ونحن الحمس، وقد اقتصرت قريش وهم من الحمس على استعمال القباب المصنوعة من الأدم فكانوا أهل القباب الحمر من الأدم[٣].

وكان من طقوسهم الدينية أيضاً ذبح الذبائح على أنصاب اتخذوها فنهى الله عن ذلك فى قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين الذين آمنوا إنما الخمر والميسر

---

(١) سورة الأعراف : الآيات (٣١-٣٢).

(٢) سورة البقرة : آية (٩٩).

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبير، جـ١، ص٤١.

والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[١] وفي قوله جل شأنه : ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾[٢]. وكانوا يقسمون لحوم أضحيتهم فيمن حضرها وكان عندها، أما دماؤها فكانت تصب على النصب.

أما بالنسة للهدايا والنذور والقرابين والتى كانت تتألف من الطيب والبخور والملابس والأسلحة، فضلا عن الزروع والغلات والأنعام، فكانوا يقسمونها بزعمهم بين الله وبين آلهتهم[٣]. ثم يؤثرون أصنامهم ويعطونها ما جعلوه نصيبا لله، قال تعالى : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾[٤].

كانت الإبل والأنعام الحية تقدم أيضاً إلى الآلهة كنذور وقرابين فتحبس عليها ولا يمسها أحد بسوء ومنها، البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. البحيرة هى الناقة أو الشاة تترك فلا ينتفع من لبنها ولا تحمل أو تركب، فإذا ماتت حرموا لحمها على النساء وأباحوه على الرجال. والسائبة الدابة تترك لنذر فلا تركب ولا يحمل عليها ولا تمنع من ماء وكلأ وتترك سائبة. وأما الوصيلة فهى الناقة التى وصلت بين عشرة أبطن أو الشاة التى وصلت سبعة أبطن. وأما الحام فهو الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر، فيقال حمى ظهره فلم يركب ولم يجز وبره ولا يمنع من ماء وكلأ[٥]. قال تعالى : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام. ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾[٦].

---

(١) سورة المائدة : آية (٨٩).
(٢) سورة المائدة : آية (٣).
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١ ، ص٨٤-٨٥.
(٤) سورة الأنعام : آية (١٣٦).
(٥) ابن هشام : المصدر السابق، جـ١ ، ص٩٣.
(٦) سورة المائدة : آية (١٠٢).

ولم تقتصر زيارة الكعبات وبيوت الآلهة على الحج والعبادة وإقامة الطقوس والشعائر، بل قصدها أهل الحاجات وأصحاب المشكلات والمقبلون على الأعمال الهامة من أجل مشورة الآلهة عن قضاياهم وسؤالها عما يريدون ويشتهون والاستفسار عما يعن لهم من أمور، فضلا عن استطلاعها في غيبات المستقبل فكانوا يكلمون الأصنام بواسطة سدنتها من الكهان الذين يتكلمون على ألسنتهم إلى الإله ويفسرون للسائلين ما يصدر من تلك الأصنام من الأصوات والهمهمة وغيرها ويقومون بالاستقسام بالأزلام وذلك كله في مقابل النذور والهدايا وذبح الذبائح.

وفضلا عن الأصنام الكبرى التي اتخذتها القبائل العربية آلهة يعدونها من دون الله، اتخذ أهل كل دار في دارهم صنما صغيرا، فإذا أراد الرجل منهم سفرا تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله[١]، وذلك لإحساسهم العميق بحاجتهم الدائمة إلى الأمان من خلال آلهتهم المقدسة الملموسة التي تراها الأعين وتدركها الأبصار، فهي في نظره حامية البيت والأسرة في وقت الاستقرار والارتحال، وفي زمني الحرب والسلم كما أن اعتقاده بقدرات الآلهة التي تعلو على طاقات البشر وتحكمها في قدرة ومسيرة حياته، جعلته يؤثرها على نفسه فقدم إليها أعز ما يملك، ويتودد إليها بكل غال ونفيس في سبيل إرضائها فتجلب له السعادة والهناء وتمنع عنه الشرور والأخطار وتمن عليه بالخير الوفير والبركات.

ب) عبادة الجن :

كانت عبادة الجن من العبادات التي عرفت في بعض نواحي بلاد العرب قبل الإسلام، فقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص٨٧-٨٨.

بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مؤمنون﴾[١]. فكان بنو مليح من خزاعة من أكثر القبائل العربية اعتناقا لعبادة الجن[٢].

وكان عبدة الجن يعتقدون أن المواضع التى تصيبها الكوارث تكون بعد هلاك أصحابها مواطن للجن، وأن الجن تختار الأماكن الموحشة المقفرة البعيدة عن الناس[٣]، وتفضل سكنى المواضع المظلمة والفجوات العميقة وباطن الأرض فضلاً عن مواطن الموتى فى المقابر، التى كانت مأهولة بالجن من حيث كونها أرواحاً مخيفة، لذلك خشى الكثير منهم ارتيادها ليلا خوفاً ورهبة من الجن.

ولما كانت الجن فى اعتقادهم أرواحاً خبيثة مؤذية لذلك تجنب العرب دخول المناطق التى سكنتها، فقد كانت تبعث الفزع والخوف فى نفوسهم. وعلى الرغم من كون الجن أرواحا غير منظورة إلا أنهم اعتقدوا بإمكان رؤيتها ومخاطبتها وتتمثل عندهم فى الغالب فى أشكال حيوانات ذات شعر كثيف، لأنها تستطيع أن تتجسد وقتما تشاء فذكر الأصفهانى[٤]، أن تأبط شراً رفع كبشا تحت إبطه وأخذه معه إلى الفلاة وهى الأرض الجدبة، فأحدث عليه فى الطريق، حتى إذا قرب من مكانه ثقل عليه فرمى به فإذا هو الغول، فما زال يقاتله إلى أن أصبح فتأبطها وسار بها، وقدوصف الغول بقوله :

فلم أنفك متكئا عليها ... لأنظر مصبحا ماذا أتانى

إذا عينان فى رأس قبيح ... كرأس الهر مشقوق اللسان

وساقا مخدج وشواة كلب ... وثوب من عباء أو شنان[٥]

---

(١) سورة سبأ : الآيات (٤٠-٤١).

(٢) الكلبى : الأصنام، ص٣٤.

(٣) المسعودى : مروج الذهب، جـ١ ، ص٤٠٢ .

(٤) الأصفهانى : الأغانى، جـ١٨، ص٢١٢.

(٥) مخدج : ناقص الخلق، شواة : أطراف، شنان : جلد القربة البالى.

وقد سمى الغول بالخيتعور، وهو كل شئ لا يدوم على حالة واحدة ويضمحل كالسراب، ويرى الجاحظ أن الغول أنثى بينما ذكرها هو القطرب[١]، وكانوا يعتقدون أن الغول كانت توقد للإنسان نارا إذا أرادت الغدر به، فيقصدها، فتدنو منه، وتتمثل له فى صور مختلفة، فتهلكه روعا، وتوصف بأن خلقتها خلقة إنسان رجلاها رجلا حمار أو رجلا عنزة[٢].

وقد تصور المؤمنون بعبادة الجن أن الحيات هى بنات الجن وأنها إحدى عشائرها الهامة، فروى الشاعر عبيد ابن الأبرص، أنه رأى حية فسقاها، فلما ضل جمل له وتاه أرشدته الحية إلى مكانه فذهب عبيد إلى المكان وجاء بجمله. ولما انتقم بنو سهم من الجن بقتل كل الحيات والعقارب التى وجدوها فى منطقتهم اضطرت الجن إلى طلب الصلح فتوسطت قريش وانتهى النزاع وتغلبت على الجن[٣]. ويعتقد العربى أن الجن تقوم بأعمالها بشكل غير منظور وهى تحذر الإنسان أو ترشده بطريق الصوت العالى. وترجع الأساطير التى رواها الاخباريون عن الجن وأفعالها وعلاقتها بالإنسان إلى ما عاناه العرب فى باديتهم القاسية وما تعرضوا له من أمراض وأوبئة وافتراس الحيوانات البرية وفتك الحشرات الصحراوية من ثعابين وحيات وعقارب وغيرها من الهوام.

وذهبت مخيلة معتنقى عبادة الجن إلى أبعد من ذلك فجعلوا بينها وبين الله نسبا، لزعمهم أنها أرواح غير منظورة تقدر على الإتيان بأعمال خارقة وأنها آلهة تتصاهر فيما بينها قال تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا. ولقد علمت الجن أنهم لمحضرون﴾[٤]. فذكر أن عمر بن يربوع بن حنظلة التميمى كان متزوجا من الجن، ولكنها لم تبق معه بصفة دائمة بل كانت تختفى عند ظهور البرق[٥]. كذلك نسبت بعض القبائل إلى الجن

---

(١) الجاحظ : الحيوان، جـ٦، ص٤٨.

(٢) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص ٤٠١-٤٠٢.

(٣) الأزرقى : أخبار مكة، جـ٢، ص١١-١٣.

(٤) سورة الصافات : آية ١٥٨.

(٥) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٣٤٠.

مثل بني مالك وبني شيصبان وبني يربوع بن حنظلة،كما ينسبون بلقيس وذا القرنين إلى الجن أيضاً[١].

وفضلا عن ذلك نسبوا مقتل بعض أشرافهم إلى الجن فمنهم، مرداس بن أبي عامر السلمي، وهو أبو عباس بن مرداس السلمي، والغريض المغني، بعد أن ظهر غناؤه، وقد كانت الجن نهته أن يغني بأبيات من الشعر فغناها فقتلته، ومنهم حرب بن أمية، وذكروا عن الجن بيتين من الشعر قالهما حين قتلته وهما :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر[٢]

حاول العرب قبل الإسلام التخلص من الأرواح الخبيثة التى تجلب الخبائث لهم، والتغلب عليها وطردها باستعمال الأشياء التى تنفر منها الجن فى اعتقادهم ومنها عظام الموتى والأحجار المقدسة، كما قاموا بتعليق قطع صغيرة من بقايا الحيوانات لتنفير الجن. وفضلا عن ذلك كانوا يسمون أبناءهم بأسماء غريبة لاتقاء شر الجن، فقال أعرابى : لما ولدت قيل لأبى نفر عنه، فسمانى قنفذا وكنانى أبا العداء.

لم تقتصر الاستعاذة بالجن على عبدتها، بل كانت شائعة بين معظم القبائل العربية، فكانوا يستعملون عظام البشر والحيوانات وبعض الأحجار والمعادن التى اتخذوها من بقايا النيازك، من أجل تنفير الجن والأرواح الخبيثة وإخافتها، ولحماية أبنائهم وذويهم، وذلك بتعليقها فى موضع ظاهر مرئى[٣].

وإلى جانب استخدام الأشياء المنفرة للجن، كان العرب يستعيذون بعظيم الجن لاتقاد شرهم. فكانوا يذهبون إلى واد ذى شجر قبل ارتحالهم وسفرهم

(١) الألوسي : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٣٤٩.

(٢) المسعودى :مروج الذهب، جـ١، ص٤٠٦.

(٣) الألوسي : المصدر السابق، جـ٢، ص٣٢٥.

فيعقلون رواحلهم، ثم ينادون : نعوذ بعظيم هذا الوادى، فيستجيب بزعمهم صاحب الوادى لندائهم، فلا يتعرضون لأى أذى خلال رحلة سفرهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تبارك وتعالى : ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾(١)، وقال تعالى : ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾(٢). وعلى الرغم من تلك الاستعاذات إلا أن ذلك لم يمنع تعرضهم للأذى، ولم يؤد إلى حمايتهم من الحيوانات المفترسة والكوارث الطبيعية مما كان يخرج المستعيذ عن عقيدته، فيكفر بعظيم الوادى وقد يسبه ويرجع هذا الاعتقاد إلى الأوهام الفكرية والتصورات الخيالية التى هيمنت على عقلية البدوى، فاعتبر الجن والعفاريت أرواحاً ذات قوى خارقة تسيطر على القفار الموحشة والأماكن المهجورة فنسب إليها أهوال البادية وحيواناتها البرية المخيفة.

جـ) المجوسية :

كانت عبادة النار المعروفة بالمجوسية(٣) من بين العبادات التى اعتنقتها بعض القبائل العربية ومنهم زرارة بن عدس التميمى وابنه حاجب بن زرارة، ومنهم أيضاً قوم الأقرع بن حابس وأبو الأسود، جد وكيع بن حسان(٤). وقد انتقلت عبادة النار من بلاد الفرس إلى حليفتهم الحيرة، التى تقع فى شرق بلاد العرب، ذلك أن فريقا من المؤمنين بعبادة النار انتقلوا إلى الحيرة ومارسوا طقوسهم فى عبادتها، فلما رأى أهلها نارا تعظم وهم عاكفون على عبادتها سألوهم عن خبرها، ووجه الحكمة فى عبادتها، فأخبروهم بأشياء اجتذبت نفوسهم إلى عبادتها، وأنها واسطة بين الله وبين خلقه وأنها من جنس الآلهة النورية(٥).

---

(١) سورة الأعراف : آية (٧). (٢) سورة الجن : آية (٦).

(٣) المجوس : كلمة معربة : أصلها فارسى قديم هومجوش، وهى اسم جمع مفردها مجوسى. أنظر، ابن منظور : لسان العرب، جـ٨، ص٩٨.

(٤) ابن قتيبة : المعارف، ص٢٦٦.

(٥) المسعودى : مروج الذهب، جـ١ ، ص٤٧٠.

ولما كانت مملكةالحيرة على اتصال دائم بباقى أنحاء جزيرة العرب من خلال القوافل التجارية وعقد الأسواق والروابط والتحالفات، فقد عرفت هذه العبادة طريقها إلى جهات متفرقة من بلاد العرب، فضلا عن الجاليات الفارسية المجوسية التى أقامت فى المدن العربية الكبرى وكانت تمثل حكوماتها لدى الملوك والأمراء وسادة القبائل العربية. فكان فى اليمن طائفة من المجوس اشتركت إلى جانب أهلها فى طرد الحبش منها، كما كان فى حضرموت والجهات الشرقية من الجزيرة جماعات أخرى منهم.

كان المؤمنون بعبادة النار من العرب يرون فيها قدرة فريدة تأثرت بها حياتهم ومعيشتهم، ولعل أقربها الانتفاع بها فى طهى طعامهم والتدفئة فى ليالى الشتاء القارسة التى يتصف بها الجو القارى لباديتهم، كما استخدموها فى إنارة طريقهم فى أسفارهم الطويلة فى رحلتى الشتاء والصيف، وفى مواسم الحج. ذكر أن قصى بن كلاب كان يوقد النار على المزدلفة حتى يراها من دفع عن عرفة[١]. وقد صار للنار شأن كبير فى تحالفاتهم وروابطهم فإذا عقد حلفا بين قبيلتين أحضروا نار التحالف واتفقوا على اليمين، ثم حلفوا على النار وألقوا عليها ملحا وكبريتا. وكانت تلك النار معروفة فى اليمن وهى مستعرة دائماً ولها سدنة يقومون بأخذ اليمين ويسمون تلك النار «هوله» و«المهـولة»[٢]. وذلك لقدسيتها ومكانتها فى اعتقادهم، يقول ابن الأثير : «وكانت لهم (أهل اليمن) نـار تحـكم بينهم فيما يزعمـون تأكل الظـالم ولا تضر المظلوم»[٣]. وكذلك كانت تلك النار مهابة فى نفوسهم لا يحلف بها أهل الباطل لخشيتهم من فتكها بهم، ومن ناحية أخرى كانوا يشعلون «نار الاستمطار» عندما يحيق بهم الخطر نتيجة الجدب والجفاف. الذى كثيراً ما كان يصيبهم، فيشعلونها ويستغيثون بها لينزل الغيث.

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٢، ص٤٠٩.

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص١٦٢-١٦٦.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٤٤.

كذلك استعملوا النار فى اتقاء شر قوم يخشون بأسهم فكانوا يوقدون النار فى أثرهم ليتحول شرهم عنهم. ويحيق المكر السيء بأهله، اعتقاداً منهم بقدراتها الخارقة. كما كان إيقاد نار الغدر ونار السلامة من بين الطقوس الدينية التى عرفت فى جزيرة العرب، فنار الغدر كانت توقد بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين، جبلى مكة - أبى قبيس والأحمر - فإذا استعرت، صاح موقدها : هذه غدرة فلان ليحذره الناس وليعلموا أن فلانا قد غدر بجاره، وذلك لأن الغدر كان من أقبح الرذائل عند العرب ويعد من صفات الذل والعار والإثم فى الدين. وأما نار السلامة فكانت توقد للقادم من سفره عند عودته سالماً غانماً[١].

وفضلاً عن ذلك كان هناك النيران التى توقد من أجل الإهلاك فمنها نار الطرد ونار السلم، فنار الطرد توقد للدعاء على شخص لا يراد عودته، فيشعلونها ويقولون : «أبعده الله وأسحقه، وأوقد نارا فى أثره»، أما نار السلم فكانت توقد للملدوغ وللمجروح ولمن ضرب بالسياط، ولمن عضه الكلب لكى لا ينام الشخص فيشتد به الأمر ويؤدى إلى الهلاك[٢].

وكانت الزندقة من بين الديانات التى اعتنقها بعض العرب ووجدت لها أتباعاً فى قريش، الذين أخذوها من الحيرة المجوسية، والزنادقة هم القائلون ببقاء الدهر ولا يؤمنون بالآخرة ولا بوحدانية الله عز وجل، ويسخرون من الاعتقاد فى البعث بعد الموت ويرون استحالته وليس أدل على وجود هذه الطائفة فى بلاد العرب من أن أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾[٣].

والأصل فى الزندقة عند الساسانيين الخروج والانشقاق على الديانة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١، ص٢٠٩.

(٢) القلقشندى : المصدر السابق، جـ١، ص٢٠٩.

(٣) سورة الجاثية : آية (٢٤).

المزدكية وتعاليم مزدك، غير أنها أطلقت فيما بعد على الشعوبيين الذين كانوا مجوسا أو من أصل مجوسى فأسلموا وكانوا يبطنون غير ما يعلنون، وقد عرفوا بالموالى الحمر فى العصر العباسى[(١)].

د) الصابئة :

كانت الصابئة من بين الديانات التى انتشرت فى بلاد اليمن وحران وأعالى العراق، ويعبد أتباعها النجوم الكواكب التى عرفوها من خلال ملاحظتهم لها وطول تجربتهم بمطالعها ومغايبها، للاهتداء بها فى أسفارهم، وتعاقب الليل والنهار وغيرها من أسباب معايشهم، يقول صاعد أحمد الطليطلى :

«كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايبها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة[(٢)].

وكان من أثر الكواكب والنجوم فى حياتهم ومعيشتهم أن انتشرت عبادة الصابئة فى أنحاء متفرقة من جزيرة العرب لاعتقادهم أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى، وأنها حية ناطقة، وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله، وأن كل ما يحدث فى قدرهم فإنما هو على قدر ما تجرى به الكواكب عن أمر الله. فعظموها وقربوا إليها القرابين[(٣)].

كان للشمس مكانة عظيمة عند عرب الجنوب فقدسوها وعبدوها. قال تبارك وتعالى عن مملكة سبأ : ﴿إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ، ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، جـ٥، ص٢٨٨.

(٢) صاعد أحمد الطليطلى : طبقات الأمم، بيروت، ١٩٨٣، ص٤٥.

(٣) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص٤٦١.

لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾[١]، كما عبدوا القمر والزهرة، فلما رأوا الكواكب تختفى بالنهار وفى بعض أوقات الليل، أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما وتماثيل على صورها وأشكالها وأن يقدموا لها القرابين فاتخذ صابئة حران، بيتا لعبادة الكواكب والنجوم جعلوا تحته أربعة سراديب وضعوا بها الأصنام التى تمثل الأجسام السماوية فكانوا يسجدون لها من دون الله وفى ذلك يقول ابن عيشون الحرانى القاضى :

ان نفيس العجائب ... بيت لهم فى سرداب
تعبد فيه الكواكب ... أصنامهم خلف غائب[٢]

وقد أشار الله تبارك وتعالى لعبادة الكواكب بقوله : ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذى خلقهم إن كنتم إياه تعبدون﴾[٣].

وقد عبدت بعض بطون قبائل تميم نجوما صغارا، نحو عشرين نجما، يقال لها القلاص، والمجموعة كلها تعرف بالديران أما بطون طىء فعبدوا «الثريا»، وبطون من ربيعة المرزم[٤]. كذلك عبدت قبائل لخم وخزاعة وبعض بطون قريش نجما اسمه الشعرى، بعد أن أدخل هذه العبادة جزء بن غالب بن عامر ابن الحرث الخزاعى المكنى أبو كبشة فلما بعث النبى ﷺ وخالف قريش فى عبادتهم، قالوا له ابن أبى كبشة لمخالفته لهم مخالفة أبى كبشة لهم فى عبادة آلهتهم وقد نهاهم الله تبارك وتعالى عن عبادة ذلك النجم فى قوله تعالى : ﴿وانه هو رب الشعرى﴾[٥].

---

(١) سورة النمل : آية (٢٤).

(٢) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص٢٦٨.

(٣) سورة فصلت : آية (٣٧).

(٤) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٥) سورة النجم : آية (٤٩).

٢ - الديانة اليهودية

انتشرت اليهودية فى جهات متفرقة من بلاد العرب ومنها خيبر ويثرب ووادى القرى وفدك وتيمـاء [(١)] والجنوبية العربية ، ويرجع ظهور اليهودية فى جزيرة العرب إلى هجرة الجماعات اليهودية من بعض جهات بأرض كنعان ونزوحها إلى الجهات القريبة من بلاد العرب في بادىء الأمر ثم انتشارها فى باقى الأنحاء . ويرى علماء تاريخ الأديان أن هجرة اليهود حدثت بعد اصطدامهم بالقيصر تيتوس وهدمه الهيكل سنة ٧٠ م وازدياد تلك الهجرة على عهد القيصر هادريان سنة ١٣٢م [(٢)] .

والواقع أن الهجرات اليهودية ترجع إلى ما قبل التاريخ الميلادى بحوالى ستة قرون ذلك أن بختنصر الذى ولى الملك على بابل ٦٠٦ ق.م كان قد نقل معه كثيرا من اليهود من بيت المقدس إلى بابل ، فعاشوا هناك وتناسلوا وتكاثروا ، يقول ابن الأثير « ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس فوطىء الشام ، وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم ، وخرب بيت المقدس وأمر جنوده فحملوا التراب وألقوه فيه حتى ملؤوه . ثم انصرف راجعًا إلى بابل وأخذ معه سبايا بنى إسرائيل وأمرهم فجمعوا من كان في بيت المقدس كلهم فاجتمعوا واختار منهم مائة ألف صبى فقسمهم على الملوك والقواد الذين كانوا معه .. ثم أن بختنصر عاد إلى بابل وأقام فى سلطانه ما شاء الله أن يقيم [(٣)].

كما أن أثر القوافل التجارية بين العرب الجنوبية وبين بلاد الشام في انتقال الجماعات اليهودية إلى الأراضى الخصيبة من جزيرة العرب لا يمكن إغفاله ، فقد عثر على كتابة من كتابات القبور فى شرقى حيفا وردت فيها كلمة (Homeriton) [(٤)]. وهى تدل على أن هذا القبر ليهود من حمير كانوا قد جاءوا إلى فلسطين للاتجار فدفنوا فيه،وهو ما يعنى وجود جاليات يهودية

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

(٢) O'Leary : Arabia Before Muhammad , p . 173 .

إسرائيل ولفنسون : اليهود في بلاد العرب ، ص ٨ - ٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ١ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

٤ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ٦ ، ص ١٨٣ .

فى اليمن كانت على اتصال دائم بأبناء عمومتهم من يهود بلاد الشام، خاصة وأن طبيعة اليهودى نفسه تجعله ينظر دائماً وفى المقام الأول إلى العامل الاقتصادى والمنفعة الشخصية ومن أجلها يضحى بكل ما هو غال. فهاجروا من مواطنهم الأصلية إلى مناطق الخير الوفير والسعة فى الرزق والثروة وهو لا يبالى فى سبيل ذلك بتبشير أو نشر عقيدته بين الناس[١].

دخلت اليهودية بلاد العرب على يد الجماعات المهاجرة التى استوطنت وأقامت فى أخصب المناطق العربية ولاسيما عند مواضع المياه، فلما استقروا عملوا على حفر الآبار فى الأراضى العالية واشتغلوا بتربية الماشية والدجاج ونسج الأقمشة وغيرها من الأعمال التى تهتم بنواحى الحياة اليومية، والتى كان يأنفها العربى الأصيل. وفضلا عن ذلك بنى اليهود الآطام لحماية أنفسهم وممتلكاتهم من اعتداء الأعراب عليهم[٢]، كما أمنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل العربية المجاورة وتقديم الهدايا لاسترضائهم.

كانت منطقة يثرب المركز الرئيسى لليهودية فى جزيرة العرب ذلك أن المهاجرين من اليهود ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب واستقر رأيهم على الإقامة فيها، فنزل بنوا النضير ومن معهم على بطحان أحد أودية يثرب، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور[٣]، ثم جاء بعدهم بنو قينقاع وبنو زيد وبنو زعورا وبنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو القصيص وغيرهم وكان فى يثرب قبل هجرة اليهود إليها كثير من البطون العربية من قبائل بنى الحرمان، وبنى مرثد وبنى نيف من بلى، وبنى معاوية من بنى سليم وبنى الشظية من غسان، وقد أكرم العرب وفادة اليهود إليهم وسمحوا لهم بالعيش فى سلام بين ظهرانيهم، وظل الحال على ذلك حتى قويت شوكة اليهود وصاروا سادة المدينة.

لما هاجر الأوس والخزرج إلى يثرب أثر حادث سيل العرم، فنزلوها، واستغلوا الخلافات التى وقعت بين اليهود وتغلبوا عليهم بمعاونة الغساسنة

---

(١) اسرائيل ولفنسون : اليهود فى بلاد العرب، ص٧٢.

(٢) Margoliouth : The relations between Arabs and Israelites Prior, P. 62.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٢٣٤.

وسيطروا على المدينة وقسموها فيما بينهم، ولم يبق لليهود فيها شئ من السلطان[١].

وعلى الرغم من ذلك فقد عاش اليهود متكتلين مستقلين ووجهوا اهتمامهم إلى النواحى الاقتصادية، فاحترفوا التجارة والزراعة وبعض الحرف مثل الصياغة، وكانوا يقرضون الأموال بالربا الفاحش لجيرانهم العرب، وكانوا يعيشون فى حماية سادة القبائل يؤدون لهم إتاوة فى كل عام مقابل حمايتهم لهم ودفاعهم عنهم ومنع الأعراب من التعدى عليهم وقد لجأوا إلى عقد المحالفات لتحقيق أهدافهم.

كذلك وجدت اليهودية طريقها إلى بلاد اليمن على يد تبان أسعد أبو كرب[٢]، أحد ملوك الحميريين، الذى اهتدى إلى هذه الديانة عن طريق حبرين من أحبار اليهود هما كعب وأسد من بنى قريظة[٣] خلال رحلة عودته من حروب قام بها فى الشمال واجتيازه يثرب، بعد أن تقابلا معه وأبعداه عن عبادة الأوثان. وذلك فضلا عن قدوم اليهود من شمال الجزيرة العربية ونزولهم فى بلاد اليمن، ويرى المستشرقون أن كثيراً منهم كان من العرب المتهودين[٤]، وأنهم يمثلون أصل اليهود الذين اضطروا فيما بعد إلى هجر الجنوب والاتجاه إلى يثرب أثر الغزو الحبشى لليمن. غير أن اليهودية وإن كانت قد ضعفت فى بلاد اليمن بدخول الحبشة فيها إلا أنها بقيت هناك إلى ما بعد ظهور الإسلام.

بلغ من تأثير اليهود فى جنوب بلاد العرب على ملوك اليمن، أن اعتنق ذرعة ذو نواس بن تبان أسعد. ملك حمير اليهودية وتعصب لها وجعل منها ديناً رسميا للدولة. ولم يكتف بذلك، بل لجأ إلى العنف والشدة فى سبيل

---

(١) ياقوت : المصدر السابق، جـ٥، ص٨٣.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٥٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٢٤٤.

(٤) Margoliouth : The Relations between Arabs and Israelites prior to the Rise of Islam, p. 68.

حمل المسيحيين من أهل نجران على اعتناقها بعد أن حرضه يهود اليمن ودفعوه إلى التنكيل بهم بحجة أنهم إخوان الروم والحبش فى الدين، وأنهم يعملون على نشر المسيحية فى اليمن واستيلاء الحبش عليها، غير أن اليهود أنفسهم كانوا يكنون للمسيحيين كل العداء خوفاً على مصالحهم المادية فى هذا الجزء الخصيب الوافر الخير من بلاد العرب، فسار ذو نواس إلى نجران بجنوده وقضى على المسيحيين هناك حرقا بالنار[١].

كان لليهود فى جزيرة العرب أماكن للعبادة تعرف بالكنيس، وكنيسة اليهود تمييزاً لها عن الكنيسة موضع عبادة النصارى[٢]. كما كان عندهم مواضع يتدارسون فيها مع رجال الدين أحكام شريعتهم وأخبار رسلهم وأنبيائهم وما جاء فى كتبهم الدينية من أوامر ونواه، وهى الأماكن التى يقال لها المدراس وبيت المدراس[٣]، ويرجع أصلها إلى كلمة درس عند اليهود ودرس عند العرب، وكان المدراس دار ندوة لليهود، يجتمعون فيه للتزاور وللبحث فى شئونهم والبت فى القضايا الجسيمة، وإليه كان يقصد العربى المتهود حين يعن له أمر من الأمور، وإليه ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار المسلمين لمحادثة اليهود ومجادلتهم[٤]، وقد عرضوا أمام الرسول صلى الله عليه وسلم كتبهم، فكان يقرأها له بعضهم ممن دخل فى الإسلام مثل عبدالله بن سلام.

وكانت أماكن صلاتهم تعرف بالمحاريب، بينما عرف رجال الدين عندهم بالأحبار وبالربانيين، والحبر هو العالم والرجل الصالح، وهو أحد رجال «الفروشيم» وهم شيعة اليهود[٥]. الذين أقسموا على أنفسهم مراعاة النصوص الدينية لا يخرجون عنها، ولاتزال تستعمل عندهم. وتطلق على من درس

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص٣٥-٣٦.

(٢) ابن منظور : لسان العرب، جـ٨، ص٨٣.

(٣) ابن منظور : المصدر السابق، جـ٧، ص٣٨٢.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٢، ص١٣٣.

(٥) اسرائيل ولفنسون : اليهود فى بلاد العرب، ص٢٠.

الشيعة اليهودية وأتقن أحكامها، ومن أحبارهم عبدالله بن صورى الأعور. الذى قيل عنه أنه لم يكن بالحجاز فى زمانه من كان أعلم بالتوراة منه، وأنه كان من بنى ثعلبة.

أما الربانيون فهم العلماء الراسخون فى العلم والدين الذين لم يأخذوا أجورا على أعمالهم، بل كانوا يقومون بها قربى إلى الله، لذلك كانوا يتمتعون بحرمة عظيمة فى المجتمع فإذا جلس أحدهم فى مكان خيم عليه السكون احتراما له، وكان على الربان باعتباره ممثلا للتوراة احترام نفسه وعليه ارتداء ملابس خاصة تميزه عن بقية الناس فهو رجل الدين وممثل شريعة الله وكان على الناس طاعته وعدم مخالفة أمره ونهيه وإلا خالفوا شريعة الله. قال تعالى : ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[1]. وكان الأحبار يقيمون فى أماكن اليهود فى جزيرة العرب ومنهم من كان يأتى إلى يهود العرب من فلسطين[2].

على الرغم من يقين اليهود بقرب ظهور نبى مرسل من رب العالمين، ومفاخرتهم بذلك الأوس والخزرج، إلا أنهم أنكروا نبوة الرسول ﷺ وكفروا به وأظهروا للإسلام العداوة والبغضاء، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير، فمع أنهم أهل كتاب ومعتنقو عقيدة التوحيد ونبذ الأصنام والإشراك بالله العلى العظيم، فقد قاموا بتحريض قريش وغطفان وغيرهم من المدافعين عن الشرك والغارقين فى الوثنية على محاربة الإسلام، دين التوحيد، الذى يدعو إلى الإيمان بالله الواحد الأحد. ذكر ابن هشام عن بعض الصحابة أنهم قالوا : «إن ممن دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه، أنا كنا نسمع من رجال

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٤.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٦، ص١٠٢.

يهود وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : أنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الرسول ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به»[1]. وقد أشار الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إلى ذلك بقوله : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا، كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾[2].

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١ ، ص٢١٨.

(٢) سورة البقرة : آية (٨٩).

٣ – الديانة النصرانية

دخلت النصرانية بلاد العرب وانتشرت فيها بالتبشير وليس بطريق الهجرة الذى اتبعته الديانة اليهودية هناك. فلم تحدث هجرات نصرانية إلى الحجاز وبلاد اليمن، وكان التبشير يتم بدخول بعض النساك والرهبان إلى جزيرة العرب ومنهم من رافقوا البدو الأعراب وعاشوا معهم وجاروهم فى عيشتهم وطرز حياتهم، التى تتميز بالحل والترحال والإقامة فى الخيام فعرفوا «بأساقفة الخيام» وأساقفة أهل الوبر وأساقفة العرب البادية. وذكر أن مطران بصرى. من أعمال دمشق كان يشرف على نحو عشرين أسقفا انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان[١]. وكان لإتقان المبشرين كيفية التأثير ووسائل الإقناع والمنطق، فضلا عن براعتهم فى مداواة بعض الأمراض، أن تمكنوا من ضم بعض سادات القبائل والأعراب إلى الدين الجديد. فذكر أن بعض الرهبان القريشيين تمكنوا من شفاء النساء العقيمات فولدن أولادا بفضل دعواتهم وبركات الرب، كما حدث لسيد الضجاعمة إذ توسل أحد الرهبان إلى الله أن يهب له ولدا ذكرا، فاستجاب له، فلما رأى سيد القبيلة ذلك، اعتنق النصرانية هو وأفراد قبيلته. وذكر أيضاً أن الراهب مارايشوعزخا، شفى النعمان ملك الحيرة من مرض عصبى ألم به وذلك بإخراج الشيطان من جسده[٢]. وكان لهذه المعجزات التى اعتقدها العرب أن دخل عدد من الأمراء وسادات القبائل فى النصرانية. وبذلك ضمن المبشرون مساعدتهم وحمايتهم، فعاشوا فى كنفهم فى أمن وسلام وأخذوا فى نشر دينهم فى أنحاء جزيرة العرب.

أنشأ النصرانى فى جزيرة العرب كثيراً من الأديرة[٣]، كوسيلة من وسائل التبشير ونشر ديانتهم، فقد أعدوا الأديرة للقوافل التجارية ليجد فيها التجار

---

(١) لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلين، بيروت، ١٩١٢، جـ١، ص٣٧.

(٢) لويس شيخو : النصرانية وآدابها، جـ١، ص ٣٥-٣٦.

(٣) الدير : أصله الدار، والجمع أديار وأديرة، والديار، والديرانى هو صاحب الدير. وهو الموضع الذى تسكنه الرهبان. أنظر، ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص٤٩٥.

كل وسائل الراحة والاستمتاع خلال رحلاتهم وأسفارهم الشاقة وكانت هذه الأديرة تشتهر بالخمور والنبيذ، الذى كان يتم صنعه على أيدى الرهبان أنفسهم، وأثناء اللهو وشرب الخمور كان الرهبان يلعبون دورهم فى التعريف بدينهم ويؤدون شعائرهم فى حضور زوارهم ويدعونهم إلى الانضمام للنصرانية. فكانت الأديرة بيوتا للخلوة والانقطاع لعبادة الله ومواطن للراحة واللهو والتبشير بالديانة المسيحية. وقد انتشرت هذه الأديرة فى أماكن عديدة من بلاد العراق وبلاد الشام وفى بعض نواحى الحجاز ونجد وجنوبى جزيرة العرب وشرقها[١].

كان لقدوم البعثات الدينية التى تتألف من الرهبان والنساك وإقامة الأديرة فى بلاد العرب، أن انتشرت المسيحية هناك، خاصة أن قياصرة الروم قاموا بتشجيعها والإغداق على المبشرين بكل ما يمكنهم من تأدية رسالتهم، وحرصوا على تحول أتباعهم إلى هذه الديانة حتى يضمنوا ولاءهم، وتأمين مصالحهم الاقتصادية فى جزيرة العرب.

كانت بلاد الشام تمثل المعقل الأول الذى وطدت فيه المسيحية أقدامها للعلاقات المباشرة والوطيدة مع قياصرة الروم الذين اتخذوا من النصرانية ديناً رسمياً لامبراطوريتهم، فانتشرت بين عرب بلاد الشام من الغساسنة أتباع القيصر، وغرهم من قبائل كلب وقضاعة وعاملة وجذام، وقد حارب الغساسنة إلى جانب الروم لدوافع دينية وسياسية ففى يوم اليرموك كانوا فى صفوف الروم وكان رئيسهم جبلة بن الأيهم الغسانى فى مقدمة الجيش الذى أرسله هرقل لمحاربة المسلمين. كذلك كانت قبائل عاملة ولخم وجذام من القبائل المتنصرة التى ساعدت الروم وآزرتهم، فكانوا يؤيدونهم حين قدم الرسول صلى الله عليه وسلم تبوك(١).

---

(١) ياقوت : المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٩٥-٥٤٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ٢، ص١٩٢.

وكانت قبائل إياد من جملة العرب المتنصرة سكنوا السواد والجزيرة، وسكن قوم منهم بلاد الشام فخضعوا للغساسنة وللروم وتنصروا. كذلك وجدت النصرانية طريقاً لها بين عدد كبير من رجالات قبائل طيء[١]. فوفد عدى بن حاتم الطائى وكان على النصرانية إلى رسول الله ﷺ وأعلن اعتناقه الإسلام. وفى بلاد العراق وجدت النصرانية لها أرضا خصبة عند أهالة الحيرة.

وعلى الرغم من تبعية الحيرة إلى الفرس إلا أن الأكاسرة لم يكن يهمهم نشر المجوسية بين أتباعهم لاعتبارها ديانة خاصة بالفرس دون غيرهم، فلم تهتم الإمبراطـورية الفارسية بانتشـار النصرانية بين الموالين لها لأنها لم تجد فيها ما يتعارض مع مصالحها، ذلك أن النصرانية المنتشرة فى بلاد الحيرة كانت تخالف النصرانية المتشيعة للروم، فقد كان نصارى الشام على المذهب اليعوقبى أو المنوفيسيتى[٢]، القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح، فهم أصحاب الطبيعة الواحدة وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعى (ت٥٧٨م)[٣]، بينما كان نصارى العراق ومن والاهم من قبائل تغلب وإياد وبكر[٤]، من أتباع المذهب النسطورى، الذى ينسب إلى نسطوريوس (ت ٤٥٠م) ويرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين، أقنوم الناسوت وأقنوم اللاهوت.

وفضلا عن المذهبين اليعقوبى والنسطورى، وجدت فرقة فى بعض جهات بلاد العرب عرفت باسم الفطاثريين وأتباعها كانوا من المبالغين فى تأليه مريم وعبادتها وكانوا يقدمون لها أقراص العجين والفطائر كقرابين لذلك عرفوا بالفطاثريين[٥]، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله. قال سبحانك ما يكون لى أن أقـول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعـلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾[٦].

---

(١) لويس شيخو : النصرانية وآدابها، جـ١، ص١٣٢.

(٢) Philby : The Background of Islam, p. 112.

(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 63.

(٤) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢١٤.

(٥) لويس شيخو : النصرانية وآدابها، جـ١، ص١١٣.

(٦) سورة المائدة، آية (١١٦).

كان لاتصال بلاد الحجاز بالحيرة وبلاد الشام أن دخلت النصرانية إلى هذه البلاد. ومنها دومة الجندل وآيلة وتيماء، كما كان فى يثرب ومكة والطائف قليل من المسيحيين عند ظهور الإسلام. ذلك أن جماعات من تجار مكة والطائف كانوا يذهبون فى رحلاتهم التجارية إلى إمارة الحيرة للبيع والشراء. فكانوا يتعرفون على التغيرات والتطورات الثقافية والدينية، وينقلونها إلى أبناء بطونهم وعشائرهم وذلك فضلا عن قدوم المبشرين من الحيرة إلى بلاد الحجاز فى ركاب القوافل التجارية.

فدومة الجندل كانت على اتصال تجارى منذ القدم مع الحيرة. وبذلك انتقلت إليها النصرانية وصار فريق من أهلها نصرانيين، وكان صاحب آيلة قبل الإسلام، يوحنا بن رؤبة، وهو نصرانى قدم إلى تبوك بعد الإسلام وكان الرسول ﷺ بها فصالحه على الجزية وبقى على دينه[١]، وقد أطلق عليه المسعودى[٢] لقب أسقف آيلة. وأما اليمامة فكان حاكمها عند بعثة النبى ﷺ هو هوذة بن على، وكان نصرانياً من بنى حنيفة على علاقة قوية بالفرس وذكر ابن الأثير[٣]، أن هوذة توسط لفك أسر مائة رجل من بنى تميم فى أعقاب يوم الصفقة.

كما ذكر أن معظم الرقيق فى مكة كان نصرانياً وأنه كان بها جالية من الروم والنصارى[٤]، فضلا عن الجوارى الروميات وليس أدل على وجود نفر قليل من النصرانيين فى مكة من أن قريشا ادعت أن رجلا نصرانياً كان يعيش بمكة وقت ظهور الإسلام يسمى جبر النصرانى هو الذى يلقن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقوله للناس وأنه هو الذى كان يعلمه ذلك وكانوا يقولون : والله ما يعلم محمد كثيراً مما يأتى به إلا جبر النصرانى غلام الحضرمى[٥].

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ٢، ص١٩١.

(٢) المسعودى : التنبيه والإشراف، بيروت، ١٩٦٧، ص٢٧٢.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١، ص٣٧٩.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص١٤٣.

(٥) O'Leary : Arabia Before muhammad, p. 184.

فأنزل الله عز وجل : ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾(١).

وفضلا عن ذلك كان من بين الجالية الكبيرة التى تعرف بالأحابيش، عدد كبير من النصارى، وهم الذين كانوا يقومون بالخدمة وبالأعمال التى يحتقرها ويزدريها عظماء مكة(٢). ومن ناحية أخرى تزوج بعض رجال قريش من نصرانيات فكانت أم الحارث عبدالله المعروف بالقباع نصرانية(٣). وكان فى وادى القرى نفر من الرهبان كما أشار إلى ذلك الشاعر جعفر بن سراقة، أحد بنى قرة قائلا :

رهبان بأسفل ذى القرى وبالشام عرافون فيمن تنصرا(٤)

كما كان فى يثرب بعض النصارى الذين كانوا يسكنون فى موضع يقال له سوق النبط(٥)، وفى البحرين كان بنو عبد القيس على النصرانية، فقدم بشر بن عمرو على رأس وفد من بنى عبد القيس على النبى ﷺ، وأعلنوا اعتناقهم الدين الإسلامى(٦).

كما انتشرت المسيحية بالتبشير فى نواحى الجزيرة الجنوبية. فدخلت اليمن أيضاً على يد أحد المبشرين الصالحين واسمه فيميون وكان من الزهاد السياح ساح فى البلاد. وكانت تصدر عنه الكرامات والمعجزات، وتروى الروايات أن رجلا من أهل الشام اسمه صالح، اتصل به وتوغلا معاً فى بلاد العرب فاختطفتهما سيارة من العرب وباعوهما بنجران لبنى الحارث بن كعب من كهلان، الذين كانوا يعبدون الصنم العزى. وقد تمكن الرجان من إقناع

---

(١) سورة النحل : آية (١٠٣)، يلحدون : يميلون عن الحق.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص٣٥٥.

(٣) الأصفهانى : الأغانى، جـ١، ص٣٠.

(٤) الأصفهانى : المصدر السابق، جـ٧، ص٩٦.

(٥) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٦، ص٢٠٨.

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ، ص٢٠٣.

سيد بني الحارث ببطلان ما هو عليه وقومه من عبادة الأصنام وذلك بعد أن دعوا الله في يوم عيد العزى أن يرسل عليها ريحاً صرصراً عاتية تقضى عليها، فأتت الريح عليها واستأصلتها، فلما رأى ذلك أهل نجران تنصروا[١]، وقام فيميون بتعيين أحدهم وهو عبدالله بن الثامر رئيساً عليهم، وجعلهم تحت رعاية الأسقف بولس[٢]، وتذكر روايات الاخباريين أن عبد كلال بن مثوب، أحد زعماء حمير هو الذى أدخل النصرانية ونشرها بين الحميرين، وأنه أخذها عن رجل من غسان كان قد قدم عليه من بلاد الشام[٣].

صار للمسيحية مركز قوة فى بلاد اليمن فى القرن الرابع الميلادى، يدل على ذلك اشتراك أسقف عن اليمن فى أعمال مجمع «نيقية» الذى عقد سنة ٣٢٥م، كما أرسل الإمبراطور قسطنطين بن قسطنطين الأكبر المعروف بقسطنطين الثانى (٣٣٧-٣٦١م) سفارة مسيحية إلى الجنوب برئاسة ثيوفيلوس الهندى لإقناع ملوك اليمن بإقامة بعض الكنائس للمسيحيين هناك. وقد نجح ثيوفيلوس فى إنشاء كنيسة فى ظفار العاصمة وأخرى فى عدن[٤] وكان من أهم دوافع الإمبراطور البيزنطى التى حملته على إرسال هذه البعثة، توطيد نفوذه السياسى فى تلك البلاد لأحكام سيطرته عليها وتأمين مصالح الإمبراطورية الاقتصادية فى بلاد اليمن الخصب التى تملك زمام التجارة فى البحر الأحمر[٥].

كانت نجران أهم مواطن النصرانية فى بلاد العرب الجنوبية وقد اشتهرت، بإنشاء أكبر الكنائس وأفخمها فى جزيرة العرب فى عهد الأحباش، وعرفت بكعبة نجران أو بيعة نجران كما جاء فى نص أبرهة[٦]. إذ كان أهل اليمن

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٢٦٦-١٦٧.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٢، ص٥٩.

(٣) لويس شيخو : النصرانية وآدابها، جـ١، ص٥٥.

(٤) لويس شيخو : المرجع السابق، جـ١، ص٥٦.

(٥) Margoliouth : The Relation between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, p. 63.

(٦) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٦، ص٦٥.

يطلقون على الكنيسة اسم البيعة. يقول ياقوت : «وكعبة نجران هذه يقال لها بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثى على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة وسموها كعبة نجران وكان فيها أساقفة معتمون، كان إذا جاءها الخائف أمن أو طالب حاجة قضيت أو مسترفد أرفد وكان لعظمها، عندهم يسمونها كعبة نجران، وكانت على نهر نجران»[١].

كذلك أنشأ الأحباش كنيسة في ظفار، واهتموا بتزيينها وعهدوا بتدبير شئونها إلى الأسقف «جرجنسيوس»[٢] الذى قام بحركة تبشير واسعة لنشر النصرانية بين الحميريين. وكان للنصارىٰ كنيسة أخرى فى مأرب أنشأها الأحباش وعينوا عليها أسقفا من قبلهم، وقد احتفل بافتتاحها أبرهة ملك اليمن وأشار إليها فى النص الذى دونه عن ترميم سد مأرب[٣]، أما أهل صنعاء فكان لهم كنيسة عظيمة لا تقل روعة عن كنيسة نجران، وقد أبدع الأحباش فى تزيينها وتجميلها وأنفقوا على بنائها أموالا طائلة، وقد عرفت باسم «القليس»[٤]، وموضعها جامع صنعاء فى الوقت الحاضر.

كان أباطرة الروم يمدون الكنائس بالأساقفة والمبشرين. كما أغدقوا الأموال عليها حتى تتمكن من القيام بمهامها فى نشر النصرانية فى تلك البلاد التى تشكل لهم أهم مناطق النفوذ والمصالح السياسية والاقتصادية. فانتشرت البيع فى المدن وفى القرى وفى البوادى، وكان يقصدها الأعراب للتنزه بها واحتساء الشراب وللتزود بالماء أو الزاد، وقد أشار القرآن الكريم إلى البيع والصوامع، أماكن سكنى الرهبان فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾[٥].

---

(١) ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٢٦٨.

(٢) لويس شيخو : النصرانية وآدابها، جـ١، ص٦٤.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٦، ص٦٧.

(٤) ياقوت : المصدر السابق، جـ٤، ص٣٩٤-٣٩٥.

(٥) سورة الحج : آية (٤٠).

لما كانت نجران تمثل المعقل الرئيسي للنصرانية، فقد صار لها نظام سياسي ديني خاص تخضع له، وكان يتولى شئونها رؤساء على أعلى مستوى للمناصب الرئيسية الأساسية وهم : العاقب، أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد صاحب رحلهم ومجتمعهم المختص بتنظيم القوافل ووسائل النقل وغيرها، أما الأسقف فكان إمامهم وصاحب مدارسهم الدينية[١] والذى كان بمثابة رئيس نجران الديني.

على الرغم من انتشار النصرانية في بلاد العرب إلا أن سواد نصارى العرب لم يكونوا على علم وفقه بأمور دينهم، بل ساروا وراء المبشرين لاعتقادات خرافية بمقدرتهم على شفاء المرضى والتوسط إلى الله تبارك وتعالى لتحقيق أهدافهم وأمانيهم، ومن ناحية أخرى تنصر كثير من العرب من أجل المصالح السياسية والاقتصادية ولإرضاء سادتهم من الروم والحبش وقد اتضح ذلك من وجود مراكز الثقل النصراني في المواضع التي دان فيها العرب بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية وفي بلاد اليمن خلال الاحتلال الحبشي. وعلى ذلك كان النصراني يعرف وقتذاك بأنه من كان يأكل الخنزير ويشرب الخمر. فعلى الرغم من أن الأصل في النصرانية أنها ديانة سماوية تدعو إلى التوحيد تمييزاً لها عن الوثنية التي كان جل اهتمامها اتخاذ أصنام وعبادتها، فقد اتخذ النصرانيون التماثيل ووضعوها في بيعهم[٢] وكنائسهم، بل قام النصارى بصنع الأوثان للاتجار فيها وبيعها للوثنيين في بلاد الشام[٣].

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٢، ص١٥١.

(٢) لويس شيخو : النصرانية وآدابها، جـ١، ص١١٧.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٦، ص٢٤٤.

٤ - الديانة الحنيفية

كان هناك طائفة من العرب، أحجمت عن الوثنية وعن الصابئة والمجوسية وغيرها من الديانات التى انتشرت فى بلاد العرب، واتخذت من عقيدة إبراهيم الخليل عليه السلام دينا لها، وهو الدين الذى يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، وقد عرف هؤلاء بالحنفاء لقوله تعالى : ﴿حنفاء لله غير مشركين﴾[١]، وهم الذين كانوا قد تجنبوا الناس، وطاف بعضهم فى الأرض بحثاً عن دين إبراهيم الحنيف، وكانوا يقضون أيامهم ولياليهم فى تأمل الكون الذى يعيشون فيه، وقد تجنبوا فعل المنكرات التى اعتاد العرب عليها وتفشت فى مجتمعهم ومنها شرب الخمر ولعب الميسر وغيرها، ونصحوا الناس بالابتعاد عن الوثنية والتقرب إلى الله، فهم مسلمون كغيرهم من المؤمنين الذين عبدوا الله على حق منذ بدء الخليقة وحتى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها، وقد ساحوا فى البلاد بحثاً عن الدين الصحيح، دين سيدنا إبراهيم، فوصل زيد بن عمرو ابن نفيل إلى الشام والبلقاء[٢]، ووقف على اليهودية والنصرانية فلم يجد فيها ما يطمئن إليه فى إشباع رغباته الروحية. فقد التقى فى أثناء أسفاره بأحبار اليهود وبعلماء من النصارى ولكنه لم يجد عندهم ما يطمئن إليه وما يرى من التوحيد الخالص. فعلى الرغم من أن الأصل فى هاتين الديانتين التوحيد، إلا أن هذا التوحيد غير خالص كتوحيد دين إبراهيم قال الله تبارك وتعالى : ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾[٣].

يقول ابن هشام : «وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف. فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح

---

(١) سورة الحج : آية (٣١).

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢٤٨.

(٣) سورة التوبة : آية (٣٠).

التى تذبح على الأوثان ويقول : الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض الكلأ ثم تذبحونها على غير اسم الله؟ ونهى عن قتل المؤودة وقال : أعبد رب إبراهيم»[١]. فانصرف إلى هداية قومه وأخذ يحثهم على ترك عبادة الأصنام فلم يجد منه إلا عنتا ونصبا شديداً، ذلك أن عمه الخطاب بن نفيل وكل شبابا من شباب قريش وسفهاء من سفائهم ألا يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعه من الاتصال بأهلها مخافة أن يفسد عليهم دينهم.

كذلك اتفق كل من عبدالله بن جحش وعثمان بن الحويرث، مع زيد بن عمرو بن نفيل فى الرأى والعقيدة، وتعاهدوا على نبذ عبادة قومهم وما كانوا عليه من ضلال وتصادقوا وكونوا جماعة خرجت على عبادة قريش، فلم يشتركوا معهم فى أعيادهم ولم يشاركوهم فى عبادتهم[٢]. كما كان سويد ابن عامر المصطلقى على دين الحنيفية وملة إبراهيم، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو أدركته لأسلم». وكان من بين الحنفاء أيضاً عمير بن جندب الجهنى - من جهينة - فقد كان موحداً لم يشرك بربه أحداً، أما أبو قيس صرمة بن أبى أنس، فكان قد ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، وهم بالنصرانية، ثم أمسك عنها ودخل بيتا اتخذه مسجدا لا تدخله طامث ولا جنب قائلا : «أعبد رب إبراهيم» فلما جاء النبى ﷺ إلى يثرب أسلم وهو شيخ كبير[٣].

وكان الشاعر المعروف زهير بن أبى سلمى من الحنفاء الذين أقروا بوجود إله عالم بكل ما فى النفوس هو «الله» لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ورأى أنه لا يجوز كتمان شئ عنه، وبوجود يوم حساب يحاسب فيه الناس على ما قدموا من أعمال، وقد ينتقم الله من الظالم فى الدنيا قبل الآخرة فلا مخلص له فقال :

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص٢٣٠-٢٣١.

(٢) ابن هشام : المصدر السابق، جـ١، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢٦٦.

فلا تكتمن الله ما فى صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيودع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم[١]

كما كان اشاعر عبيد بن الأبرص من الحنفاء المتمسكين بدين إبراهيم عليه السلام، وكان يؤمن بالله الواحد الذى لا شريك له، وبالتوكل على الله، فكان يدعو الناس إلى التوكل على الله قائلا :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير والقول فى بعضه تلغيب
والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب[٢]

لم يكتف كعب بن لؤى بن غالب، أحد أجداد رسول الله ﷺ بالإعراض عن عقائد قومه والابتعاد عن عاداتهم، بل كان يوجه قريشا ويرشدهم إلى التفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين، وكان يحثهم على صلة الرحم وإفشاء السلام بينهم، وحفظ العهود ومراعاة حق القربى والتصدق على الفقراء والمحتاجين والأيتام[٣].

وقصارى القول عن الحياة الدينية في بلاد العرب قبل الإسلام، أن العرب لم يكونوا على دين واحد، بل كانت هناك أكثرية وثنية تعبد أصناماً عديدة، لكل قبيلة صنم أو جملة أصنام تقدسها وتتقرب إليها بالهدايا والنذور، والقرابين طالما جر عليها ذلك السعد والتوفيق والخير الوفير، فإذا ما تعرضت القبيلة لكارثة أو أشرفت على الهلاك تنكرت لأصنامها فعبدت غيرها، وكثيراً ما التقط العربى الحصى وقذفه فى وجه الصنم أو قام بتحطيمه عندما يحس أن صنمه المعبود جلب عليه سوء الطالع وأصابه بخيبة أمل.

---

(١) الألوسى : المرجع السابق، جـ٢، ص٢٧٧.

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين، جـ١، ص٢٢٦.

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبير، جـ١، ص٣٩-٤٠.

وإلى جانب الغالبية الوثنية كان هناك أقليات يهودية سكنت البقاع الخصيبة من جزيرة العرب فجل اهتمامها الثروة والرخاء الاقتصادى، وهى لا تبالى بعد ذلك بالتبشير ونشر عقيدتها لذلك تركزت منازلها فى يثرب واليمن والبحرين.

كما كان هناك أقليات أخرى نصرانية، اهتمت بالتبشير وبالانتشار فى كل مكان من الجزيرة من أجل سيادة الإمبراطورية البيزنطية وتوطيد نفوذ القياصرة فى تلك المناطق الغنية التى تتحكم فى أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب والتى تمثل العمق الاستراتيجى بينها وبين ألد أعدائها الإمبراطورية الفارسية، فكان الروم يؤيدون المبشرين ويبذلون لهم المال ويتقربون إليهم ويبعثونهم إلى أبعد ما يمكن أن يصلوا إليه فى جزيرة العرب.

وفضلا عن ذلك كان هناك المجوس الذين تأثروا بالفرس وتعلموا منهم عبادة النيران وتمجسوا، والصابئة الذين اتخذوا من عبادة النجوم والكواكب دينا لهم.

كذلك ظهرت طائفة من العقلاء الذين رفضوا عبادة الأصنام وسفهوها وسفهوا رأى القائلين بها، وساحوا فى البلاد يسألون الهداية ويبحثون عن ديانة إبراهيم الخليل دين التوحيد الخالص فلما اهتدوا إليه اعتنقوا هذه الديانة. وعرفوا فى التاريخ بالحنفاء الذين كانوا موحدين، يعبدون الله عز وجل وحده لا شريك له، لم يدخلوا فى يهودية ولا نصرانية. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدين الحنيف، دين سيدنا إبراهيم عليه السلام الذى اعتنقه الحنفاء فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾(١).

وفى وسط هذا الخضم الهائل من التخبط الدينى والفراغ الروحى. ظهر الإسلام فى بلاد العرب التى شرفها الله بنبيه سيدنا محمد ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا، فبعثه بالهدى ودين الحق ليهدى البشرية جمعاء إلى سواء السبيل وينقذها من الشرك والضلال.

---

(١) سورة آل عمران : آية (٦٧).

الفصل الثامن

الحـالة الاقتصـاديـة

١ - الثروة الزراعية.

٢ - الحرف والصناعات.

٣ - النشاط التجارى :

أ) التجارة الداخلية وأهم مراكزها.

ب) التجارة الخارجية.

جـ) المعاملات التجارية والمالية.



الحالة الاقتصادية

١ - الثروة الزراعية

كانت الحالة الاقتصادية فى الجزيرة العربية متعددة الجوانب، فبينما اشتهرت بعض جهاتها بالنشاط التجارى، اختصت أماكن أخرى بالصناعات والصناعات الحرفية، وفضلا عن ذلك قامت زراعة متقدمة فى المناطق الخصيبة من بلاد العرب.

ترجع أهمية الزراعة إلى أنها توفر حاجة الإنسان من الغذاء وتؤمن له المعاش وتمده بالثروة الصافية الخالدة[١]. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العنصر الاقتصادى الرفيع فوصفه بالجنات، قال تبارك وتعالى : ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا بن نبات كل شيء. فأخرجنا منه خضرا يخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية. وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه. أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[٢].

وجه أهل يثرب والطائف وبلاد اليمن عنايتهم إلى تنمية موارد الثروة الزراعية فى بلادهم، فنشطوا فى حفر الترع والقنوات وإقامة السدود والقناطر، وقد نالت الأراضى الواقعة فى جنوب الجزيرة العربية وفي شرقيها حظا وافراً من العناية، فامتدت بها شبكة واسعة النطاق من الترع فتحسنت زراعتها، كما أن أقاليم اليمامة ونجد عمرت بالقرى والضياع، وقد ساعد على قيام زراعة جيدة فى بلادهم، طيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفق الماء، فازدهرت الزراعة

(١) عيسى عبده : الاقتصاد الإسلامى، ص٩٣.

(٢) سورة الأنعام : آية (٩٩).

والعمارة[١]. كما أن اختلاف المدرجات فى الجبال اليمنية وتباين درجات الحرار تبعاً لذلك قد أدى إلى تنوع الغلات الزراعية فى هذه المنطقة الخصيبة التى كانت تتمتع بوفرة المياه ودوامها طوال العام[٢] وذلك بعد أن أقام أهلها السدود، وحفروا الآبار للاستفادة منها فى السقى وفى الزراعة[٣] وبذلك تمكن أهل اليمن من زراعة الأراضى مرتين فى السنة فى الخريف والصيف، وكانت الذرة تزرع مرة فإذا ظهر نباتها وأينع حصد، وتستخلف فى كثير من المواضع فتحصد مرة أخرى[٤].

تعددت نظم الزراعة عند العرب قبل الإسلام، فكان هناك نظام المحاقلة وهى فى الزرع كالمزابنة فى التمر وذلك بأن يبيع الرجل الزرع بمائة فرق حنطة[٥]. ونظام المساقاة، وذلك بأن يتفق مالك الأرض ذات النخيل أو الأعناب مع الفلاح لسقى الزرع وعلاجه ولقاحه مقابل جزء من الناتج[٦]. ونظام المخابرة وذلك بالاتفاق بين المالك والزارع على اقتسام الزرع بنسب متفق عليها، المالك مقابل أرضه والفلاح نظير جهده وتكاليف الانتاج[٧]. ونظام المزارعة التى كانت تشبه المخابرة، وذلك بزراعة الأرض نظير نسبة معينة من ثمارها[٨]. كما كان هناك نظام الخراج، الذى كان يفرضه المنتصر على المنهزمين من ملاك الأرض، يتضح ذلك من قول حرقة بنت النعمان ابن المنذر لسعد بن أبى وقاص، أمير القادسية حين وفدت عليه، قالت : «كنا ملوك هذا المصر يجبى لنا خراجه ويطيعنا أهله»[٩].

---

(١) المسعودى : مروج الذهب، جـ٢، ص١٨٠-١٨١.
(٢) طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص٣٤-٣٥.
(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ٢٩٧.
(٤) الشافعى : الأم، جـ٢ ، ص٣١.
(٥) الشافعى : المصدر السابق، جـ٣، ص٥٤.
(٦) الشافعى : المصدر السابق، جـ٣، ص٧٤.
(٧) الصنعانى : سبل السلام، جـ٣، ص٧٨.
(٨) البخارى : صحيح البخارى، جـ٢ ، ص٣٤، ص٦٤.
(٩) المسعودى : المصدر السابق، جـ٢، ص١٠٣.

كانت الآلات المستخدمة فى الزراعة على أنواع مختلفة فمنها، المحفار أو المسحاة مما يحفر به، والمخدة وهى حديدة تخد بها الأرض، والمجرفة، والملطس وهى عبارة عن معاول قوية غليظة، والصوقر والصاقور وهو فأس عظيمة لها رأس واحد دقيق، والخنزرة والمقراع[١]، ومنها أيضاً المعزقة والجوار والآكار وهو الحراث. ومنها المالق والمملقة لنثر الحب وهى خشبة عريضة تجرها الثيران. كذلك استعملت الآلات لقطع سوق الزرع وتهشيمه وتهشيم السنبل وكان يجرها الثيران ويجلس عليها شخص ليثقلها وهى مثل العجلة يقال لها «الحيلان» وهى آلة من خشب لها محالتان. وكذلك كان هناك المقحفة وهى الخشبة المتقفعة التى يقحف بها الحب. والمذرة للتذرية والنفية وهى شبه طبق من خوص ينقى به الطعام[٢].

تعد اليمن من أهم المناطق الزراعية فى الجزيرة العربية لهبوب الرياح الموسمية التى تحمل الأمطار الغزيرة عليها[٣]، فضلا عن كثرة الأودية والآبار، فمنها وادى خبش ووادى المنبج الذى يتفرع من جبال نهم، ووادى الخارد فى الجهة الجنوبية الغربية والوادى الثالث الذى يتفرع من جولان شرقى[٤]. وإلى جانب ذلك استفاد اليمنيون من كثرة الأمطار بإقامة السدود، التى كان من أشهرها سد مأرب، وسد الخانق وسد ريعان وسد سيان، وسد جبرة. ويبلغ عدد السدود نحو ثمانين سدا[٥]. جعلت من اليمن بقعة خضراء غنية بالحاصلات الزراعية، ففى صنعاء ساعد البرد على إنتاج الفاكهة من العنب الملاحى والدوالى والأشهب والدريج، والرمان الحلو والحامض، والممزوج والملبس والسفرجل والأجاص والمشمش، والتفاح الحلو والحامض والممزوج، والخوخ الحميرى والفارسى والهندى، مما كان يجلب شجره من جهات زراعته

---

(١) الزبيدى : تاج العروس، جـ، ص٢٤١، جـ٣، ص٣٣٩.

(٢) ابن سيده : المخصص، جـ١١، ص٥٥.

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص١٥٦.

(٤) الهمدانى : صفة جزيرة العرب، ص٧٦-٧٧.

(٥) الهمدانى : الإكليل، جـ٨، ص١١٥

الأصلية، وكذلك كانت تنتج البقول والحبوب[١]. واشتهرت نجران بانتاج سكر القشور والقنب والمدبس وأخشاب العقاقير، واللبان والورس فضلا عن القرظ[٢]. وإلى جانب ذلك كانت نجران مركزا للثروة الحيوانية الناشئة عن كثرة المراعى[٣].

كانت سبأ أرضا خصيبة من أغنى أراضى اليمن وأثراها وأكثرها جنانا وأفسحها مروجا، وبها الأنهار والأزهار وقد وصفت جناتها بأن الراكب والمار كانا يسيران في تلك البلاد من أولها إلى آخرها لا تواجهه شمس لاستتار أرضها بالعمارة الشجرية. وكان أهلها فى عيش طيب ورغد كثير، فقد كانت المياه هي أكثر ما يرد إلى أرض سبأ وكانت تظهر من مخراق من الحجر الصلد والحديد من خلال السدود والجبال، طول المخراق فرسخ، وكان وراء السد أنهار عظام[٤]. وأهم المنتجات الشعير والقمح والذرة، فكانت هذه البلاد مخزنا عظيما للغلال، فضلا عن النخيل الذى كان يروى من ماء السيول، وأنواع الفاكهة المتنوعة.

أما تبالة فى شمال اليمن، فكان يضرب بها المثل فى الخصب وقد اشتهرت بواد عظيم هو وادى تبالة وكانت تنتج مختلف الثمار صيفا وشتاء. قال الشاعر[٥] :

سقى الصفرات العفر حول تبالة إلى رحب بالرشم غيث مطبق

وكذلك اشتهرت أثافت بزراعة الكروم، وكانت على مسيرة يومين من صنعاء، بينما كانت المهرة تزرع البطيخ والقصب والذرة، وكانت تعرف بأنها غنية بالأغنام، واللبان والبخور والمر.

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب، ص١٢٩.

(٢) الميدانى : مجمع الأمثال، جـ١، ص٥٠٦.

(٣) لوبون : حضارة العرب، ص٤٠٢.

(٤) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص٤٢١-٤٢٢.

(٥) أسامة بن منقذ : المنازل والديار، ص٢١.

استغل اليمنيون الجبال المدرجة فى بلادهم فى زراعة الكروم، فصارت تبدو سلالم مكسوة بالخضرة البديعة وكانت المدرجات عبارة عن شريط ضيق يمتد على جوانب التلال والوديان والجبال، وإلى جانب الكروم قاموا بزراعة مختلف أنواع الزروع الصيفية والشتوية تبعاً لارتفاع الجبال والتلال[١].

لما كانت حضرموت منخفضة تتخللها الوديان، فقامت فى وسطها منطقة زراعية تميزت بإنتاج التمور والسمسم والذرة والفاكهة كما أنتجت التمور من المناطق قليلة الماء فى الأجزاء الغربية والساحلية منها، وكانت أهم أودية حضرموت وادى المسيلة، وواحة شيبام[٢]، وأهم حاصلاتها البلح واللبان والدخن والعسل وغيرها من منتجاتهم الزراعية[٣].

اشتهرت المناطق الشمالية من الجزيرة العربية بأنها أرض صحراوية تندر فيها المياه وبخاصة فى بادية الحجاز ونجد، لذلك كان أشهر غلاتها النخيل لأنها تنمو فى الطقس الحار، وفى ظلاله تنمو بعض البقول غير أن بعض المدن التى قامت فى هذه المنطقة تمتعت بالعيون والآبار التى تجرى فيها المياه، فصارت أرضا خصبة لمختلف الثمار واشتهرت بالحدائق والخضرة اليانعة. ففى يثرب كان هناك بئر اليسيرة وبئر رومة وبئر أريس[٤]، وبئر جمل، وبئر بضاعة، وبئر أبى أيوب، وبئر أبى الهيثم بن النبهان[٥]، وبئر الغربال، وبئر جديلة، وبئر القلعجية[٦]. وكان لكثرة الآبار والعيون فى يثرب أن اشتغل أهلها بالزراعة. ومن أشهر حاصلات يثرب الزراعية التمر والشعير فضلا عن القمح والعنب والرمان والليمون والقاوون، والبقول وبعض الخضروات كالقرع والبصل والثوم والقثاء[٧]، كما اشتهرت يثرب بكثرة حدائقها وأشجارها ومن أهمها، حديقة

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٢١٤.
(٢) طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب، جـ١، ص١٢٧-١٢٨.
(٣) حتى : تاريخ العرب، ص٤٣.
(٤) البخارى : صحيح البخارى، جـ٢، ص١٨٧.
(٥) البلاذرى : أنساب الأشراف، جـ١، ص٥٣٦.
(٦) محمد حسين هيكل : فى منزل الوحى، ص٤٩٠.
(٧) البخارى : المصدر السابق، جـ٣، ص٦٥، ١٠٩.

جابر بن عبدالله وحائط بني النجار وحائط الشوط والمخراف لسعد بن عبادة وحائط أبي سعيد الخدري[١]. وفي المنطقة الجنوبية الغربية من يثرب عاش البدو على المراعي التي اتخذت حمى لخيل المسلمين فيما بعد، وكانت تقع فيما بين يثرب وينبع فضلا عن مراعي كلاب من أعمال يثرب[٢]. وحول يثرب كانت تزرع البساتين والمتنزهات ومنها حديقة حاجر والنقا[٣]. وكانت الخليقة من ضواحي يثرب بها زروع ونخيل وقصور لقوم من آل الزبير[٤].

لما كانت تيماء تقع قرب تبوك في واد كثير المياه صارت بلدة زراعية فضلا عن كونها مركزاً تجارياً على طرق القوافل القادمة من الجنوب، وكانت البويلة الواقعة بين نيماء والحديبية من القرى الزراعية أيضاً، كما وصفت خيبر بأنها كثيرة الزروع ومن أوديتها، خاص[٥].

تقع في تهامة كثير من المدن والقرى والأودية التي يعيش أهلها على ما تنتجه أرضها من الزروع والنخيل، كما كان بنو مدلج يملكون نخلا وأرضا يزرعونها في العشيرة، من بطن ينبع. أما عسير فكانت عبارة عن هضبة شمالي اليمن تتاخم تهامة، وقد استغل أهلها الأمطار التي تسقط على مرتفعاتها في الزراعة في السفوح واشتهرت بإنتاج الحبوب والنخيل والموز والكروم فضلا عن استغلال مراعيها في تغذية الماشية. وتنقسم المناطق الزراعية في عسير إلى وادي بيشة ويزرع فيه النخيل والحبوب، ووادي نجران وبه عين الحصين ويزرع به الفواكه وقصب السكر والنخيل، وأبها وأهم حاصلاتها العنب والتين والخوخ والرمان، وصبيا ويزرع فيها الحبوب[٦].

---

(١) البخاري : المصدر السابق، جـ٢، ص٦٠، ٨٤، ٩٠.

(٢) السمهودي : وفاء الوفا، جـ٢، ص٣٦٥.

(٣) محمد حسين هيكل : المرجع السابق، ص٥١٢.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٣٥.

(٥) السمهودي : وفاء الوفا، جـ٢، ص٢٩٧.

(٦) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص١٥١.

كانت اليمامة من المناطق الزراعية أيضاً في الجزيرة العربية وقد وصفها الهمداني بأنها ذات حصون كثيرة وآبار عذبة ونخيل وزروع، وكانت تشتهر بأنواع مختلفة من التمور والحنطة، وقد افتخر اليماميون بذلك في قولهم : «ليس في الدنيا أحسن ألوانا من نسائنا، ولا أطيب طعاما من حنطتنا ولا أشد حلاوة من تمرنا، ولاأطيب مضغة من لحمنا ولا أعذب من مائنا»(١).

على الرغم من أن نجد كانت هضبة مرتفعة، إلا أن كثرة الأودية بها أدت إلى قيام الواحات التي اشتغل أهلها بالإنتاج الزراعي وتربية الحيوان(٢)، فقامت الدرعية على وادى حنيفة، وبريدة وعنيزة على وادى الرمة. كما كثرت بها المراعي لوفرة الأعشاب والنباتات التي ذكر منها الهمداني سبعا وسبعين صنفا(٣)، وفضلا عن ذلك كان يزرع بها القمح والذرة والتمر.

تنوعت الحاصلات الزراعية في الجزيرة العربية فكان لكل منطقة في أنحاء الجزيرة أنواع من الحبوب والفواكه والتمور اشتهرت بها، وذلك تبعاً لموضوع المنطقة وخصوبتها ومناخها على مدار العام.

ومن أشهر الحاصلات الزراعية في الجزيرة العربية الحنطة، وتزرع في جهات مختلفة منها؛ اليمن واليمامة ويثرب، وهذا المحصول كان يسد حاجة السكان من الغذاء وفي بعض الأحيان كان يستورد الدقيق من الشام والعراق إلى الأنحاء التي تقل فيها زراعة الحبوب. والحنطة هي لفظة شمالية بينما عرف باسم البر في اليمن. وذكر ابن المجاور أن الحنطة كانت تزرع مرة كل ستة أشهر(٤). وكانت منطقة البادية مركزاً هاماً لزراعة الشعير ويصنع منه خبز أكثر الأعراب والفقراء، وكان يزرع منه الشعير العربي وهو أبيض وسنبله حرفان عريض وحبه كبار، والشعير الحبشي وهو أسود الحب والسنبل، وكان

---

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص٥٥.

(٢) طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب، جـ١ ، ص١٣٣.

(٣) الهمداني : المصدر السابق، ص١٥٥-١٥٦.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، جـ١ ، ص٢٦.

يباع فى سوق بنى قينقاع بيثرب. وكان الشعير يزرع بخاصة تحت النخيل[١]. أما الذرة فتكثر زراعتها فى جنوب جزيرة العرب وكانت تستعمل فى عمل الخبز أيضاً، وخبزها يعرف بالطهف. وكان هناك إلى جانب هذه الأنواع من الحبوب العلس وهو حبة سوداء، إذا أجدبوا طحنوها وأكلوها والبيعثة وهو حب أخضر يؤكل مخبوزا أو مطبوخا، فضلا عن السلت وهو حب بين الشعير والبر، وهو شعير لا قشر له أجرد[٢].

اشتهرت مواضع متعددة من جزيرة العرب بانتاج الكروم وهى اليمن والطائف[٣]. وذلك لوفرة المياه وطيب المناخ المناسب لزراعته، وكانوا ينتجون من فائض الأعناب الزبيب والنبيذ ومنه الغربيب، الذى كان يعد من أجود العنب وأرقه وأشده سواداً. ومن أنواع العنب الأخرى، الجرشى وهو منسوب إلى جرش فى اليمن، والعنب التبوكى نسبة إلى تبوك، والعنب الكلافى نسبة إلى كلاف وهى بلدة فى اليمن، والعنب الترىى نسبة إلى تربة. وأما أعناب الطائف فمنها الحنان والكشمش والرمادى وكان أسود أغبر، وكانت زراعة الكروم تدر أرباحاً طائلة وبخاصة بعد عصرها فى «موهتين» وهى المعصرة وتحويلها إلى نبيذ، وكانت المعاصر تتألف من حجارة قطعت من الصخر، ويوضع العنب فى ثقب بالحجر الأعلى وبإدارته يجرى العصير إلى الموضع الذى يسيل منه إلى وعاء آخر يودع فيه العصير[٤].

ومن الفواكه التى عرفت فى جزيرة العرب الرمان وكان يزرع فى الحجاز وفى اليمن وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه﴾[٥]. ومن أنواع الرمان، رمان شحم ورمان مظ، والجشب وهو قشور الرمان عند أهل اليمن وكانت الوهط

---

(١) المقريزى : أمتاع الأسماع، جـ١، ص٣٢٨.

(٢) الزبيدى : تاج العروس، جـ١، ص٥٥٤.

(٣) Lammens : La cité Arabe de Taif, p. 34.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٢٦٤.

(٥) سورة الأنعام : آية (٩٩).

وهى قرية بالطائف تشتهر بزراعة الأشجار والفواكه وكانت تمون الطائف ومكة بأنواع الفواكه المختلفة وكانت غنية بالكروم وشجر التوت(١).

كذلك اشتهر الحجاز بجودة ما يزرع به من التين ومنه الجلداسي وهو تين أسود ليس بالحالك، والقلارى وهو أبيض متوسط، والطبار وهو كبير الحجم والفيلحانى أيضاً، وهناك تين وحشى وكان ينبت فى الجبال وشواطئ الأودية وهو أصغر أنواع التين. وقد ذكر التين فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ﴿والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين﴾(٢). ولما سئل ابن عباس عن التين والزيتون. قال : «تينكم هذا وزيتونكم هذا»(٣).

ومن الحاصلات الزراعية البقول، فمنها الفول واللوبياء والباقلاء والعدس وكان يعرف بالعلس والبلس، وإلى جانب ذلك كان هناك السلق وهو نبت له ورق طوال يجعلون فيه حبات من شعير ويطبخونه، والقثاء والثوم والبصل واليقطين، وهو ما لا ساق له من النبات مثل القرع، والبطيخ والحنظل، وقد ذكرت أسماء عدد من الحاصلات الزراعية التى كانت تنمو نمواً طبيعياً فمنها، الشوحط، والقرظ، والرنف، والعرعر والظيان والبشام والعشرق والدلب والشبهان والسدر(٤)، والسدر من الأشجار المعروفة فى جزيرة العرب واستعمل ورقه فى مقام الصابون كما استعملت أغصانه وأشجاره فى أغراض مختلفة، وهو يتحمل قلة الماء لعمق جذوره فى باطن الأرض. وتنبت أشجار السلم والسمر والطلح والوهط والسرح فى الجبال ويستفاد من أحطابها وأخشابها فى أعمال البناء وغيرها.

أما جل حاصلات العرب الزراعية فكان التمر، الذى كان يعتمد عليه أهل الجزيرة العربية فى حياتهم ومعايشهم فكانوا يأكلون ثمار النخيل.

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، جـ١ ، ص٢١.

(٢) سورة التين : الآيات (١-٣).

(٣) الخازن : لباب التأويل، جـ٧، ص٢٢١.

(٤) الزبيدى : تاج العروس، جـ٩، ص٣١١.

ويستخدمون جذوعها فى أعمال البناء، والشوك والكرانيف للوقود، ويرضخون نوى التمر ويجعلون منه علفا لإبلهم(١). وقد انتشر النخيل فى أرجاء الجزيرة لأنه يتحمل الصبر على العطش، وتكثر غابات النخيل فى وادى حضرموت وواحات الإحساء والقصيم ووادى حنيفة وسهول الباضة فى عمان وسهول تهامة(٢)، فضلا عن منطقة نجران التى كانت تشتهر بزراعة النخيل(٣) وكان لكثرة أنواع التمر المنتج فى جزيرة العرب أن وصفه الشافعى بقوله «ثمار الحجاز كلها تمر أو زبيب»(٤) وقد ذكر نحو خمسين صنفا من أنواع التمر الجيدة. فمنها الرائخ وهو التمر الأملس والكبيس والجنيب، والبلعق والتبى والجذامى، والسنة والفرض تمر عمان، والصفرى والخضرية والأطرق وهو نخل الحجاز، والباهين نخل هجر(٥).

نظرت الشعوب السامية إلى النخلة نظرة خاصة واعتبرتها من الأشجار المقدسة وتبركت بأكل تمرها وبخاصة فى الأعياد الدينية(٦)، فضلا عن استخدام لحاء النخيل فى صنع الحبال، وسعفه فى نسج الحصير، كما كان يستخرج الخل من التمر، والخل هو ما حمض من الخمر وكان يطلق على مزارع النخيل لفظ الصور والحائش وهى جماع النخل، والعقدة، الجماعة من النخل وكذلك الشرب، ومما يدل على الاهتمام بالنخيل وثماره أن زارعيه قد لاحظوا الآفات التى قد تصيبه بالأذى، وقد أوردها الكتاب فى مواضع عديدة من مؤلفاتهم فمنها؛ الدمان ويقع على التمر فيفسد ويتعفن قبل إدراكه والمراض يصيب النخل، والقشام وهو أن ينتفض تمر النخل قبل أن يصير بلحا(٧). ومن ناحية أخرى أورد ابن سيده أسماء الآفات التى كانت تصيب

---

(١) الفاسى : التراتيب الإدارية، جـ١ ، ص٤٠٣.

(٢) طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب، جـ، ص١٩٠.

(٣) الشوكانى : نيل الأوطار، جـ٣، ص٤٧.

(٤) الشافعى : الأم، جـ٢ ، ص٧٢.

(٥) مسلم : صحيح مسلم، جـ٣، ص٢١٥.

(٦) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٢٥٥.

(٧) الجزرى : جامع الأصول، جـ١ ، ص٢٩٢.

الزروع، بصفة عامة فمنها البثق والغمل والخناس والشفران واليرقان والسوس والقادح والنخر، فضلا عن الأرض وهو تسلط الأرضة على الشجرة فتجوفها وتسوسها. والقادحة وهى دودة تأكل الشجر(١).

كانت جزيرة العرب تكثر بها المراعى، التى انقسمت إلى مراع عامة وأخرى خاصـة، والعـامة هى التى لا تدخـل فى ملك أحد، أما الخاصة فهى ما تكون ملكا لأسرة أو قبيلة أو تدخل فى منطقة حمى إحدى القبائل وترجع أهمية المراعى إلى ارتباط حياة الإبل والأنعام بها، والماشية هى عماد ثروة العربى وبخاصة فى البادية. وكان لقلة الأمطار وندرة المياه فى بعض جهات الجزيرة العربية أن قصر زمن الرعى ولذلك قامت الحروب بين القبائل حول الماء والكلأ وهى المراعى، بل أن الأعراب كانوا يضطرون إلى الانتقال والارتحال كلما حدث جفاف كانوا يتجهون نحو بلاد الشام والعراق للرعى والاكتيال مما أدى إلى اصطدامهم بحكام هذه المناطق، فبنيت المسالح ووضعت الحرس لمنعهم من التوغل فى بلادهم(٢).

كان نظام الرى يختلف فى كل إقليم من أقاليم الجزيرة العربية عن الآخر، ففى اليمن وجنوبى الجزيرة تحمل الرياح الأمطار فى مواسم معروفة فيتم خزن مياهها فى أماكن جعلت لها أبوابا ومنافذ وسدود للاستفادة منها وقت الحاجة وقد ساعدت مياه الأمطار أهل اليمن فى تطوير حياتهم الاجتماعية فمال كثير منهم إلى الاستقرار والاشتغال بالزراعة والتعيش منها حتى عرفت باليمن الخضراء.

ترجع مهارة العرب فى جنوب الجزيرة العربية فى اتخدام السدود للاستفادة من مياه الأمطار إلى زمن بعيد، فكان هناك سد مأرب الشهير وخزانات المياه فى منطقة عدن، وقد عثر على آثار سدود فى أنحاء أخرى من الجزيرة فى المواضع التى تنهمر عليها الأمطار وعثر المستشرقون، الذين زاروا

---

(١) ابن سيده : المخصص، جـ١١، ص٥٦.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٢٨٢.

خرائب اليمن، ودرسوا آثار السدود على حرات كثيرة تتخل جانبى السد، وهى عبارة عن فتحات مستديرة تختلف أقطار فتحاتها بحسب كميات المياه المراد إمرارها منها إلى القنوات، والحرة هى مجرى ماء يتخذ لمرور الماء فيه إلى الحقول والبساتين. وقد أشادوا بمقدرة ومهارة الذين قاموا بتشييد السدود وبنبوغهم الفنى بالرغم من بدائية الأساليب التى استعملت فى ذلك الزمن[١].

يعد سد مأرب من أهم السدود التى أقيمت فى الجزيرة العربية، وقد بنى من أجل السيطرة على مياه الأمطار والسيول التى تتدفق منها لوقاية الزروع والاحتفاظ بالماء والاستفادة منه فى إرواء مناطق واسعة، وعلى الرغم من أن العلماء اتفقوا على أنه شيد قبل الميلاد، إلا أن الإصلاحات أدخلت عليه فى أزمنة مختلفة، فقد رم فى عهد الملك شمر يرعش، وتم إصلاحه فى عهد شرحبيل يعفر فى منتصف القرن الخامس الميلادى، بينما كانت آخر الإصلاحات التى سجلت عليه إصلاح أبرهة له سنة ٥٤٢م[٢].

كانت السدود تقام فى الجهة الضيقة التى يسيل منها الماء إلى المجارى، وتفتح فى السد فتحات وأبواب تفتح وتغلق حسب الحاجة لمرور الماء منها إلى المساويل المتصلة بها لإرواء المزارع، وكان يستخدم فى بناء السد والحواجز حجارة صخرية ترص بعضها فوق بعض وتمسك بمادة ربط قد تكون من الرصاص والنحاس أو الملاط لتتحمل ضغط الماء عليها فلا تنهار أو يتسرب الماءمن خلالها فتهوى[٣]، واستخدم لفظ سكر وسكر الأنهار للتعبير عن سد الماء وحبسه عند أهله الحجاز، وذلك لضبط الماء فلا يتسرب إلى المكان فيغرقه، أو الحبس للماء للاستفادة منه فى الاستقاء[٤]، وذلك أنهم أقاموا سدودا للاستفادة أيضاً من مياه الأمطار.

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٣٣٥.

(٢) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة، جـ٢ ، ص٩٢.

(٣) أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها، ص١٣١.

(٤) العينى : عمدة القارئ، جـ١١ ، ص٢٠٠.

أما الأقسام الشرقية والوسطى من الجزيرة فاعتمدت على العيون والآبار فى الرى، وذلك لطبيعة هذه المناطق الصحراوية بسبب قلة الأمطار وندرتها فى مواضع أخرى مما أدى إلى ارتحال أهلها وتنقلهم الدائم من مكان إلى مكان طلباً للماء والكلأ، فصاروا بذلك بدوا رحلا. ومن ناحية أخرى أثرت ندرة الأمطار فى حياتهم الدينية، فكانوا يجمعون بعض البقر ويصعدون بها فى الجبال الوعرة ويشعلون فيها النار متوسلين إلى الآلهة أن ترسل عليهم الغيث. والاستمطار بالنار من العادات التى أبطلها الإسلام[١]، وكانوا يستمطرون الآلهة لأن جل اعتماد أهل الجزيرة فى الشرب والرى على مياه المطر قال تعالى : ﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾[٢].

وفى الأماكن المرتفعة من الجزيرة كان سكانها يقومون بجمع ماء المطر والسيطرة عليه وذلك بحفر الصهاريج العميقة فى عدة مواضع وفى البيوت وكان للصهاريج فتحات يخرج منها الماء للرى والشرب والتطهر، فكان فى جدة عدة مئات من الصهاريج، وكان العبيد ينقلون ماءها على الدواب، وقد عثر فى حضرموت على صهاريج عديدة وكانت تعرف عندهم باسم «نقب»[٣]، لأنها كانت عبارة عن حفر نقرت فى الصخور والمواضع الحجرية، وأعماقها تتراوح بين ثلاثة أمتار إلى أربعة[٤]. ومعناها حفروا نقبا[٥].

على الرغم من اعتماد أهل الجزيرة العربية على مياه الأمطار بصفة أساسية إلا أن الطبيعة قد حبت بلادهم بالنهيرات والأودية والآبار فى مواضع مختلفة، فمنها نهر الخارد بجنوب الجزيرة، وقد أقام المعينيون حوله وأقاموا هناك زراعة متقدمة ولاتزال هذه المنطقة من المناطق الزراعية الجيدة[٦]. كما

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص١٦٤، ص٣٠٢.

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٦٨-٦٩.

(٣) الزبيدى : تاج العروس، جـ٢، ص٦٧.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن،جـ١، ص٤٣.

(٥) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٣٠٢.

(٦) محمد توفيق : آثار معين فى جوف اليمن، ص ٤-٧.

كان هناك نهيرات أخرى صغيرة منها مور وسردد وشوابه، وسهام، ورسيان، وزبيد، وهى التى تعرف بالوديان عند اليمنيين، بينما هناك أودية لا يجرى فيها الماء إلا فى مواسم معينة بعد هطول الأمطار[١].

ومن الأودية الكبيرة الواقعة بين الحجاز واليمن وادى تباله ورنية وتربة وقد استخدم العرب مياهها في الرى وذلك لوجود الماء بها قريباً من سطح الأرض، وكان أهل اليمامة يعتمدون على وادى برك فى الرى والشرب على السواء[٢].

أما الآبار فقد استخدمت مياها على نطاق واسع فى أنحاء عديدة من الجزيرة العربية، ففى الموضع المعروف باسم بريك وجد أربعة آلاف بئر تسقى مزارع بنى تميم ونخيلهم، وكان يخدم كل بئر منها أربعة من الموالىء ومن ناحية أخرى كان الناس يحفرون الآبار فى بيوتهم وفى أراضيهم، وكانوا يعتمدون فى ذلك على الخدم والسقائين وبخاصة عند جلب المياه من الآبار، وكان فى حصن الهجوم بئر عظيمة عميقة بها مياه عذبة[٣].

تعددت أنواع الآبار المكتشفة فى بلاد العرب، فمنها الآبار الكبيرة ذات المياه الغزيرة التى تسد حاجة سكان مدينة بأكملها، ومنها المتوسطة التى تخدم عدة قبائل وقد تكون ملك أسرة تستغلها أو ملك فرد واحد يستفيد منها ويبيع مياهها للناس لإرواء الأرض والماشية. وكانت المياه تستخرج من الآبار بالدلاء التى تربط بالحبال إلى الأعمدة المثبتة فوق البئر ثم تدلى فتملىء بالماء وتسحب وهى مملوءة به وتفرغ إلى الساقية لإرواء المزرعة. وكان الدلو يصنع من الجلد فى الغالب[٤]، وهذه الطريقة معروفة منذ القدم، وقد أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال

---

(١) أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها، ص٥.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٣٠٩.

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، جـ١، ص٢١.

(٤) جواد على : المصدر السابق، جـ٨، ص٣١٣.

يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾[١]، وكانت الآبار تحمى من الأتربة والأدران بإقامة بناء فوقها على هيئة غرفة، ولايزال الناس يستغلون بعض الآبار القديمة للشرب ولرى مراعى ماشيتهم، ويقتصرون فى استخراج الماء على الدلاء[٢].

كانت الآبار تنظف من الأتربة والطين والأوساخ المتراكمة بالجبجبة، وهى نوع من الزبيل يصنع من الجلد كما يستخدم الثوج فى التنظيف والتنقية من الشوائب والعلائق. وكانت تصنع من الخوص أما الحفص فهو زبيل صغير من أدم[٣] وكانت الآبار الكبيرة تنظف بنزول الرجال فيها، فيشد الرجل من وسطه بالحبل ويترك طرفه فى يد رجل آخر، ويقال لهذا الحبل الجعار، وكانت تترك فى جدر الآبار أماكن للأقدام ليتمكن الرجل من النزول والصعود بعد أداء مهمته. ومن ناحية أخرى كان يستعان بالثيران والجمال والحمير والبغال فى متح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لسقى المزارع والبساتين والناس ويشرف على ذلك العبيد أو الفلاحون.

كان لأهمية الآبار فى حياة العربى أن عنوا بها ودرسوها ووضعوا لها ضوابط، فتنوعت صنوفها، فمنها بئر أنشاط التى يخرج منها الدلو بجذبة واحدة وبئر نشوط وهى التى لا تخرج منها الدلو حتى تنشط كثيراً والشطون من الآبار هى التى تنزع منها الدلو بحبلين من جانبيها وهى التى يتسع أعلاها ويضيق أسفلها، والبئر المفتوح والنزوع هى التى ينزع منها باليد، والبئر المسبهة هى التى لا يدرك ماؤها، وبئر عقور أى عميقة، وبئر فوهاء واسعة الفم، وبئر رهو أى واسعة الجراب. كما كان هناك الآبار الشبكة وهى الآبار المتقاربة فى أرض كثيرة الآبار، والكظامة هى بئر توصل بأخرى بمجرى فى بطن الأرض، والجب هى البئر كثيرة الماء، والجد هى البئر الجيدة الموضع من الكلأ. وكانت الآبار تبطن بالجدر لوقاية جوانبها من السقوط وجدرها تبنى

---

(١) سورة يوسف : آية (١٩).

(٢) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة، جـ٢، ص١٥.

(٣) ابن سيده : المخصص، جـ٩، ص١٧١.

من الحجارة[١]. ومن ناحية أخرى اتخذ النبط وغيرهم من القبائل آبارا لشربهم ولإرواء دوابهم ومراعيهم وجعلوا لها فتحات تسد بالحجارة لإخفائها والمحافظة عليها من الغرباء. وكان البعض يتخذون من الآبار المملوكة سبيلا للارتزاق، فكان صاحب بئر رومة، وهو يهودى يبيع الماء منها للناس، ثم يقفل عليها، فلا يستطيع أحد أخذ الماء منها، فلما شكا المسلمون ذلك إلى الرسول ﷺ قال : «من يشتريها ويمنحها للمسلمين ويكون نصيبه كنصيب أحدهم، فله الجنة»، فاشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم، فوقفها. وكان اليهودى يبيع كل قربة من الماء بدرهم[٢].

ومن نظم الرى فى الجزيرة العربية استخدام المياه الجوفية التى اكتشفت فى مواضع مختلفة، فأقيمت حولها مواطن سكنى لإرواء الدواب والزرع منها بئر خم التى حفرها عبد شمس بن عبد مناف، وبئر رم وبئر الغمر لبنى سهم وبئار والطوى وسجلة وغيرها من الآبار التى وجدت حول مكة[٣].

وقصارى القول أن جل اعتماد أهل الجزيرة العربية كان على مياه الأمطار فى حياتهم ومعايشهم ولإرواء دوابهم وثروتهم الزراعية. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة الرائعة بقوله تبارك وتعالى : ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم﴾[٤].

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٣٢٢-٣٢٥.

(٢) العينى : عمدة القارئ، جـ١١، ص١٩٠.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٥٩-١٦٠.

(٤) سورة عبس : الآيات (٢٤-٣٢).

٢ - الحرف والصناعات

تعددت الصناعات والحرف التى قامت فى الجزيرة العربية تبعاً لتوفر الموارد والمواد الأولية اللازمة للصناعة وأرباب الحرف. فضلا عن نوعية النشاط السكانى والحياة اليومية.

قامت بعض الصناعات الهامة فى المدن التى اعتمد سكانها على النشاط الزراعى فمنها؛ النسيج والخمور، وارتبط بها صناعة الآلات الزراعية كالمحاريث والفؤوس والمناجل، كما عرفت صناعة الحلى والأسلحة طريقها إلى الجزيرة العربية. وتطورت حتى بلغت شأوا بعيداً من الدقة. أما المدن الساحلية فقد اهتم سكانها ببناء السفن فضلا عن بعض الحرف والصناعات اللازمة للحياة اليومية. وكانت الصناعات التى قامت فى بادية الحجاز بسيطة اعتمدت على الإبل والغنم والنخيل فمنها منتجات الألبان ودباغة الجلود، أما الخوص المتخذ من سعف النخيل فكان يصنع منه المقاطف والقفف، وكل ما يلزم لحفظ وتخزين ونقل السلع التى كانوا يعيشون عليها ويتاجرون فيها ومنها يتكسبون.

كان الغزل والنسج من أشهر الصناعات التى انتشرت فى بلاد العرب قبل الإسلام، فاشتغل بها البدو والحضر على السواء، ففى بلاد اليمن تقدمت صناعة النسيج لازدهار الزراعة وتوفر المراعى، فكثر الصوف والكتان كما اشتهرت بعض المدن بزراعة القطن وصناعته ومن بينها مجدل ورأس العين وحران[١] وكانت أجود أنواع الصوف الخشنة فقال المثل العربى، «العلوف مولع بالصوف»[٢] وكان الصوف يغزل وينسج أيضاً يدويا فى المنازل على أيدى النساء[٣] لصناعة البسط وعمل البشوت[٤].

---

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك، ص٧٤.

(٢) العلوف : الجاف المسن من الرجال.

(٣) أنظر الميدانى : مجمع الأمثال، جـ١ ، ص٤٨٦.

(٤) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى، جـ١، ص١٢٩.

كانت اليمن من مراكز صناعة النسيج فى الجزيرة العربية وكانت ريدة وسحيل من قراها التى اشتهرت بصنع الأقمشة الموشاة، والبرد اليمنية من مواد التجارة الخارجية. وكان لملوك اليمن مصانع للنسيج تسمى «نعمن ملكين»، وتعنى دار النسيج الملكية، وكانت فدك فى الشمال من مراكز النسيج التى اشتهرت بصناعة الثياب الفدكية ومن ناحية أخرى عرفت بعض البطون باحتراف النسيج فمنهم بنو يزيد من قضاعة وكانوا يصنعون البرد الجيدة. وفضلا عن ذلك كانت النساء فى البادية يقمن بالغزل من خيوط الكتان والصوف وقد ضرب بهن المثل فى القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا﴾[١]. وكن يصنعن البرد والأغطية والعباءات والأخفاف وغيرها، وكانت مادتهم الأولية قد وهبتها لهم الطبيعة الربانية فقد امتن الله عليهم بالأنعام وأصوافها وأوبارها قال تبارك وتعالى: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين﴾[٢].

ارتبطت صناعة أدوات الغزل والنسيج بقيام هذه الصناعة وتطورها فمن آلاتها التى كانت تصنع فى الجزيرة العربية، الحف وهو المنوال أو المنسيج، والوشيعة وهى قصبة فى طرفها قرن يدخل الغزل فى جوفها وتسمى السم. ومنها أيضاً الثناية وهى التى يثنى عليها الثوب كلما ازداد طولا أثناء عملية الغزل والنسج. أما الصيصة فهى عود من طرفاء كلما رمى بالسهم كانت اللحمة تقبل بالصيصة وتدبر بها فهى شوكة النساج التى يسوى بها السداد واللحمة قال دريد بن الصمة[٣] :

فجئت إليه والرماح تنوشه   كوقع الصياصى فى النسيج الممدد

كذلك كان هناك النير وهو الخشبة المعترضة التى فيها الغزل، وثوب منير ذو نيرين مضاعف النسيج، والمداد هى عصا فى طرفيها صنارتان يمدد بها

---

(١) سورة النحل : آية (٩٢).

(٢) سورة النحل : آية (٨٠).

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٤٢٧.

الثوب المنسوج بينما كانت الصنار هى رأس المغزل. والكفة هى الخشبة المعترضة فى أسفل السدى. والحماران ويضعان أسفل السدى لرفعها من الأرض. والشفشقة وهى قصب يشق ويوضع فى السدى عرضاء. والدعائم خشبات تنصب ويمد عليها السدى. وأداة الغزل هى المنوال أو النول[١].

كانت الصباغة من الصناعات التى حذقها العرب، لارتباطها بالمنسوجات، فكانوا يصبغون منسوجاتهم بالورس والزعفران[٢] بعد غزلها وقبل حياكتها ومن الصبغ ما يكون بالصفرة والخضرة والحمرة والسواد[٣]. وكان الصباغون يستعملون الشفشقة بوضعها فى السدى عرضا ليتمكنوا من السقى، وكانوا يصبغون الكتان بالمشق وهو عبارة عن طين أحمر، وكانت الصبغة تستخرج من النباتات والزهور فمن ذلك؛ أن الصباغين كانوا يعصفرون الثياب بمادة تستخرج من القرطم، ويستخرجون اللون الأزرق من الحوار، والأخضر من نبات البرسيم المركز، واللون الأحمر القانى من قشر الرمان.

ومن الصناعات التى اشتهر بها العرب بدورهم وحضرهم دباغة الجلود، فذكر ابن المجاور أن الأديم يدبغ فى جميع إقليم اليمن والحجاز، ويباع طاقات بالعدد. واشتهرت مكة فى عصر النبى ﷺ وقبله وبعده بدبغ جلود الجمال والبقر والغزلان[٤]. كما أقيمت فى الطائف مدابغ على مجارى المياه، وكانوا يدبغون الأدم الثقيل المليح أما فى الجنوب فاشتهرت جرش وهى من مخاليف اليمن بهذه الصناعة حتى نسبت إليها فكان يقال أدم جرش[٥]، وكان يستعمل القرظ فى دباغة الجلود، فيجلب ويطحن بحجر الطواحين، وكان القرظ يجلب من العقيق ويحمل إلى مكة لاستعماله فى الدباغة. وكانت الجلود المدبوغة تستعمل فى صنع القرب والدلاء والنعال والخفاف والأنطعة

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٤٢٨.

(٢) البخارى : صحيح البخارى، جـ٧، ص٤٣.

(٣) أبو داود : سنن أبى داود، جـ٢، ص٣٧٤-٣٧٦.

(٤) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، جـ١، ص١٣.

(٥) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص١٣٦.

فضلا عن الخيام وبيوت البادية قال تعالى : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾[١]. وكانت الاشفى والمبقر والمسرد والمخصف والمفراط والمجوب من الأدوات التى تستعمل فى تصنيع الأدم[٢].

لا شك أن وفرة الجلود والحصول عليها بيسر كان من الأسباب التى جعلت من دباغة الجلود صناعة شعبية تمارسها جميع الطوائف فى المنازل وقد اشترك فيها الرجل والمرأة على السواء[٣]. ومما يدل على تطور هذه الصناعة إقبال العالم الخارجى على شراء المصنوعات الجلدية العربية بعد أن صارت سلعة هامة من السلع التصديرية[٤] يتجلى ذلك ما ذكره ابن هشام[٥] : «إن هدية قريش القيمة لنجاشى الحبشة كانت من الجلود المصنعة وغير المصنعة»، التى حملها عمرو بن العاص إليه طالباً رد المسلمين الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة.

كانت الجلود توضع فى المرق[٦]. وهو مكان خاص للدبغ وكان يسمى حينئذ منيئة وبعد جفافه يصبح أفيقا، وبعد دلكه بالقرظ يصير أديما[٧]، ويكون جاهزا للتصنيع. وعلى الرغم من جودة جلود الضأن ومرونتها إلا أن جلود الماعز كانت الأكثر تصنيعا[٨]، وذلك فضلا عن جلود الأبقار والغزلان والتماسيح والأسماك الضخمة والجمال والخيل والبغال والحمير، وغيرها[٩].

---

(١) سورة النحل : آية (٨٠).

(٢) ابن سيده : المخصص، جـ٤، ص١٠٤-١٠٥.

(٣) القسطلانى : ارشاد السارى، جـ٥، ص١٠٣، جـ٧، ص١١٥.

(٤) محمد عبدالله : المصنوعات الجلدية، ص٤.

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٣، ص٣٨.

(٦) الزبيرى : نسب قريش، ص٣١٤

(٧) مسلم : صحيح مسلم، جـ٤، ص١٢٦.

(٨) ابن سيده : المصدر السابق، جـ٤، ص١١.

(٩) محمد عبدالله : المصدر السابق، ص١٢-١٤.

كان العرب يدبغون جلودهم بشجر القرظ ونبات الأرطى فضلا عن قشور الرمان والطلح ونبات القرنوة وعروق العرين. وكانت بعض الأعشاب تجفف وتطحن ثم تضرب بالماء وتنقع فيه الجلود فتتمرط ويستنقى بقايا الشحوم، ثم تخلط بعشبة حمراء. وكان هناك الجلد المسوم وهو المدبوغ بورق السلم، والمعرشن نسبة إلى مادة الدبغ، والغرف وهو المدبوغ بشجر الغرف[١].

استخدمت المصنوعات الجلدية على نطاق واسع لارتباطها بحياة الناس ومعايشهم فكان منها؛ السروج الخاصة بالخيل والبغال والإبل وكافة الدواب والأنعام وتسمى القربوس، والكنانة وهى حقيبة حمل السهام والكنف وعاء أدوات الرعاة. والربابة وهى كنانة سهام الميسر، والمسك وهى حقيبة حمل الدنانير والدراهم ومنها أيضاً؛ الصفف وهى كالوسائد توضع على ظهر الدواب تحت الراكب والنطع وهوكالحصير يفرش على الأرض وكان منها ما يصنع من جلود السباع والنمور. كذلك كانت الجلود تستخدم فى صنع الشسع وهو ما يربط به النعال، والقراب وهى عبارة عن وعاء يحفظ فيه السيف ونحوه ويعلق فى الرحل، والنسع وهو سير عريض تشد به الرحال وسمى نسعا لطوله وهو كالحبل غير أنه مصنوع من الجلد[٢]. وفضلا عن ذلك كان هناك الجلد الأبيض الصنع خصيصاً للكتابة عليه[٣]، والقفدان وهى خريطة العطار، والنعال باختلاف أنواعها والتى كان أشهرها نعال حضرموت[٤].

اهتم العرب باستغلال موارد بلادهم من الثروة المعدنية كالحديد والذهب[٥] والفضة فاشتهرت اليمامة ونجد، وأنحاء من اليمن بأنها أقاليم استخراج الذهب والرصاص، وقد استخدموا الرصاص فى صنع أسس الأعمدة وغيرها. وكان الرصاص يعرف بالآنك وهو الرصاص الخالص، والأسرب وهو

(١) ابن سيده : المخصص، جـ٤، ص١٠٥-١٠٦.

(٢) الشوكانى : نيل الأوطار، جـ٧، ص٣٤-٣٥.

(٣) أبو عبيدة : الأموال، ص١٩٥.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١ ، ص٥٧.

(٥) القزوينى : عجائب المخلوقات، ص٢٤٤

الرصاص القلعى وهو الشديد البياض. واستخدمت المعادن النفيسة فى صنع الحلى وقد اشتهر بنو قينقاع بصناعة الحلى وتخصصوا فيها[١]، فكانوا يصنعون الأساور والخلاخيل[٢]. والأقرطة والخواتم والفتوخ وهى الدبل والعقود[٣]، وغيرها مما يتحلى بها نساء القوم وأولادهم. كما استخدم الحديد فى صناعة السلاح، واشتهرت يثرب واليمن بهذه الصناعة فكان يصنع منه السيوف والرماح والحراب والسهام وغيرها فضلا عن أدوات الصيد[٤]. كما استعمل معدن الحديد فى عمل الفؤوس والمناجل والمحاريث وغيرها من الأدوات اللازمة للزراعة[٥].

كذلك كانت الأحجار النفيسة من بين موارد الثروة التى عنى باستغلالها العرب من أهل الخليج الفارسى فى شرق جزيرة العرب وسواحل عمان وكان اللؤلؤ المستخرج من سواحل عمان يعتبر أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصين، كما كان العقيق يستخرج من بلاد اليمن[٦].

استعمل العرب الحلى المستخرجة من البحر بعد تهذيبها وصقلها وإعطائها الشكل المرغوب فيه، فكانت الخرز والأصداف المستخرجة من البحر تهذب وتشكل وتثقب قبل التزين بها، واستخدمها الصاغة فى تطعيم مشغولاتهم الذهبية والفضية. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تبارك وتعالى : ﴿وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[٧].

---

(١) الواقدى : فتوح الشام، ص١٣٨-١٣٩.

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين، جـ٢، ص٣٢٣.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٣، ص٣٨٨-٣٨٩.

(٤) الخزاعى : الدلالات السمعية، ص٦٧٦-٦٧٧.

(٥) ابن الأثير : أسد الغابة، جـ١، ص٣٨-٣٩.

(٦) الجاحظ : التبصير بالتجارة، ص١٢-١٥.

(٧) سورة النحل : آية (١٤).

كان اللؤلؤ يستخرج من الصدف أو المحار، كما عرف المرجان وهو صغار اللؤلؤ واستخدم أيضاً في صناعة الحلي والزينة. وذكر اللؤلؤ والمرجان في القرآن الكريم دليل على وقوف العرب عليهما. قال تعالى : ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. فبأى الاء ربكما تكذبان﴾[١].

ومن الصناعات الرائجة التي كانت تدر أرباحاً كبيرة، صناعة العطور التي اشتهرت بها دارين على الخليج الفارسي، فضلا عن الجنوبية العربية التي كانت تصنع اللاريم، وهو من أذكى العطور رائحة. والطيب كان يصنع من جملة مواد عطرية مع الماء أو الدهون فمنه، الذي يرش وآخر يدهن به أو يمسح به. وعلى الرغم من استخدام الطيب بأنواعه المختلفة لدى العامة والخاصة، إلا أنه كان هناك طيب مقدس يستخدم في المعابد ويصنع من المر والفرقة العطرة والسليخة وزيت الزيتون مضافاً إليه العطر.

كان الطيب المصنع من المواد العطرة على أنواع كثيرة فمنها، المسك الذي كان يحفظ في قوارير وهو من أغلى صنوف الطيب، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى : ﴿ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾[٢]، والعنبر الذي كان يجلب من شجر عمان وهو من الأنواع النفيسة أيضاً[٣]، وهو على ألوان مختلفة فمنه الأشهب والأزرق والأخضر والأبيض، والنضوح، الذي كان ينضح به الثوب ويرش منه على الوجه[٤]، ومنه أيضاً كست أظفار، وهو ما يتبخر به لرائحته الطيبة[٥] والزعفران والورس وكانا يصنعان من نباتات الطيب[٦] والمسك من الطيب المعجون، والجلاب وهو

---

(١) سورة الرحمن : الآيات (١٩-٢٣).

(٢) سورة المطففين : آية (٢٦).

(٣) الدمشقي : الإشارة إلى محاسن التجارة، ص١٩.

(٤) الشوكاني : نيل الأوطار، جـ٤، ص٣٥٢.

(٥) الشوكاني : المصدر السابق، جـ٦، ص٣٣٣.

(٦) الشافعي : الأم، جـ١، ص٣٩.

ماء الورد، والزرنب[١]، وكان الطيب المصنع مادة غالية وجدت لها سوقا رائجة فى أرجاء الجزيرة الداخلية، فاشتهرت أم جميل زوج أبى لهب وهند زوج أبى سفيان بتجارة العطور[٢]. كما فتحت مجالا طيبا فى الأسواق الخارجية.

ومن مواد الطيب الثمينة، البخور الذى كان يستعمل على نطاق واسع فى المعابد وكان يخصص له محرقة خاصة لتفوح رائحته داخل المعابد، والمبخرة هى المجمر، وبجمر الثياب لتكتسب رائحة طيبة، والتجمير من العادات المعروفة عند العرب فى تكريم الضيف والتطيب وبخاصة عند الطبقات الراقية[٣].

كانت الخمور من الصناعات الزراعية التى تتخذ من التمر والعنب والبسر والفضيخ والحنطة والشعير والذرة والعسل[٤]، والبسر والتمر كانا مادة خمور يثرب التى حذقها اليهود، والبسر ثمر النخيل قبل أن يصبح رطبا[٥]، وكان العرب يتفننون فى صناعة الخمور، ومن مشاهير صناعها الأعشى وسلام بن مشكم الذى قال فيه أبو سفيان.

سقانى قروانى كميتا مدامة   على ظمأ منى سلام بن مشكم[٦]

تعددت أنواع الخمور المصنعة فى الجزيرة العربية فمنها؛ الجعة وهو نبيذ الشعير[٧]، والجربال وهى الخمر المحمرة أى شديدة الحمرة، والمدر والشكركة وتتخذ من الذرة والشعير، والبتع وهو نوع من النبيذ يصنع من العسل والسكر، وهو نقيع التمر غير المطبوخ. ونقيع الزبيب وهو النيئ من ماء الزبيب

---

(١) الشوكانى : نيل الأوطار، جـ١، ص٢٨٨.

(٢) على عبدالرسول : المبادئ الاقتصادية، ص٢٠٥.

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٩٦.

(٤) الشوكانى : المصدر السابق، جـ٨، ص١٨٣.

(٥) الدهلوى : حجة الله البالغة، ص٨٢٦.

(٦) السيوطى : تدريب الراوى، جـ٢، ص٢٩٩.

(٧) الدهلوى : حجة الله البالغة، ص٧٧٠.

المنقوع[١]، والطلاء هى عصير العنيب المطبوخ المعتق المصفى، وكان له مذاق خاص عند العرب فقال فيه عبيد بن الأبرص[٢] :

هى الخمـــر تكنى الطـــلاء كما الذئب يكنى أبا جعدة

ارتبطت صناعة الخل بتصنيع الخمر، فكان يتم تحويل الخمر إلى خل بإضافة الماء والملح بنسب محددة، أو بإضافة قليل من الخل إلى الخمر الطازج وغالبًا ما يصنع الخل من خمر العنب[٣].

ومما يجدر ذكره أن الخمر كان يتسورد من بعض الجهات؛ من الحبشة ومن بلاد الشام التى اشتهرت بخمور الأندرين فضلا عن مدن البحر المتوسط (الروم)، وكانت مفضلة عند علية القوم وكان يتغنى بها الشعراء كما جاء فى معلقة عمرو بن كلثوم، إلا أن خمور الطائف ويثرب كانت أرخص ثمنًا وأكثر إقبالا لوفرة العنب والبلح اللازمين لإقامة هذه الصناعة.

لم تكن أخشاب الغابات فى الجزيرة العربية تمتاز بالمتانة والصلابة اللازمتين لبناء السفن، فكان يستورد خشب الساج[٤] من الهند، كما كان يستورد من بلاد الشام وبعض مدن البحر المتوسط (الروم)[٥]. وكانت السفن تبنى فى موانئ الخليج العربى وموانئ اليمن وحضرموت، بعد استيراد الأخشاب اللازمة من الحبشة ومن ميناء بريجازا بالهند[٦]. وكانت القوارب الصغيرة تصنع من الأخشاب المحلية المتوفرة.

---

(١) الشوكانى : نيل الأوطار، جـ٨، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) الصنعانى : سبل السلام، جـ٤، ص٣٤-٣٥.

(٣) أبو عبيد : الأموال، ص١٠٢-١٠٣.

(٤) الساج : خشب أسود رزين يجلب من الهند، والجمع سيجان، وهو يشبه الأبنوس.

الزبيدى : تاج العروس، جـ٢، ص٦١.

(٥) Moreland : The ships of the Arabian, p. 68.

(٦) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى، ص٢٤٤.

كانت السفن تصنع من سقائف وهي الألواح، وكان اللوح يعرف بالقادس وتثبت السقائف بالطائق، ثم تخرز ألواح السفن بالليف ويجعل في خللها القار وهو شيء أسود يطلى به السفن وكان يستعمل الجلفاظ بأن يدخل بين مسامير الألواح وخروزها مشاقة الكتان ويمسحه بالقار ثم تسمر السفن بالدسر وهي خيوط من ليف تشد بها الألواح[١]، وقد جاء هذا الوصف في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾[٢]. وكان يجعل في السفينة مكان يجتمع فيه الماء الراشح يعرف بجمة السفينة. وكانت الشحوم وبعض الزيوت تستخدم لسد الشقوق والخروق وطلي الأخشاب لمنع تأثرها بالماء وتصنع محلياً[٣].

لاشك أن ذكر لفظة سفينة في القرآن الكريم يدل على معرفة العرب قبل الإسلام لها واستعمالها، فقد جاء في قوله تعالى : ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾[٤]، كما عبر عن السفينة بلفظ الفلك في مواضع عديدة[٥]، ومنها قوله تبارك وتعالى : ﴿هو الذى يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾[٦]، وتدل الآية الكريمة على استخدام الريح في تسيير السفن، كما جاء ذكر السفن في القرآن الكريم بلفظ الجوار قال تعالى : ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾[٧].

---

(١) القسطلاني : إرشاد السارى، جـ٦، ص٧٥.

(٢) سورة القمر : آية (١٣).

(٣) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص١٠٦.

(٤) سورة الكهف : آية ٧٩.

(٥) سورة الروم : آية (٤٥)، سورة البقرة : آية (١٦٣)، سورة الأعراف : آية (٦٢)، سورة المؤمنون : آية (٢٧).

(٦) سورة يونس : آية (٢٢).

(٧) سورة الشورى : آية (٣٢)

كانت السفن تزود بالأنجر وهو المرساة الذى يتم إنزاله فى الماء فى المرافئ ليستقر على القاع فتثبت السفينة وكان يصنع من الخشب الصلب الثقيل أو من الحديد أو يتخذ من الحجارة الكبيرة، وكان الأنجر يشد بالحبال[١].

ومن الآلات التى كانت تصنع لتثبت فى السفن، القلع والشراع والدقل وهو سهم السفينة وكان عبارة عن خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يمد عليه الشراع[٢] والقلس وهو حبل ضخم من ليف، والجؤجؤ وهو صدر السفينة والكوثل ذيلها، ومن الأدوات المردى والقيقلان[٣] وهى الخشبة التى تدفع بها السفينة والمجداف.

أما أنواع السفن التى كانت تصنع فى الجزيرة العربية فهى الفلك والقرقور والجارية والخلية[٤] وهى السفن العظيمة، وعدولية وهى سفن كبيرة كانت تصنع فى قرية عدولى بالبحرين فنسبت إليها. كما كان هناك الخليج[٥] وهى من السفن الكبيرة، وفضلا عن ذلك كانت تصنع مراكب مائية صغيرة فمن أنواعها، الزورق والقارب، والركوة والبوصى قال الأعشى[٦] :

مثل الفراتى إذا ما طمى   يقذف بالبوصى والماهر

قامت فى بلاد العرب صناعات اختصت بانتاج مستزمات الحياة اليومية، وكان صناعها من أرباب الحرف المختلفة فى مجالات متعددة منها النجارة والحياكة ونحت الحجارة وما يستلزم البناء من صناعة.

استخدم العرب أنواعاً مختلفة من الحجارة فى بناء دورهم، واتخذوا منها الرحى لطحن الحبوب وحجر المسن اللازم لصناعة الأسلحة. وكان المهراس

(١) الزبيدى : تاج العروس، جـ١٠، ص١٤٩.
(٢) الزبيدى : المصدر السابق، جـ٧، ص٣٢٣.
(٣) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٣، ص٣٦٦.
(٤) الزبيدى : المصدر السابق، جـ٦، ص٥٤.
(٥) ابن سيده : المخصص، جـ١٠، ص٢٥-٢٦.
(٦) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٢٦٧.

يستخدم في دق الحبوب وهو عبارة عن حجر مستطيل منقور يوضع فيه الماء ويدق فيه الحب وما أشبهه، كما استخدم النصيل فى الدق أيضاً، وهو حجر طويل قدر الذراع وكانت الحجارة على أنواع تتفاضل بالأجناس والألوان والعظم، فمنها الأخضر والأبيض ومنها الزنبرى والسبلانى، ومنها من حيث الكبر ما يحمل البعير منه حجرين فقط، ومنها الصغير ويستخدمه أهل البناء والخبرة فى الحشو والدواخل[١].

أما صناعة البناء فهى تعد أول صنائع العمل وأقدمها قال عنها ابن خلدون : «هى معرفة العمل فى اتخاذ البيوت والمنازل للكن والمأوى للأبدان فى المدن وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر فى عواقب أحواله لابد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها.. وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر، ثم هى تتنوع أنواعًا كثيرة فمنها البناء بالحجارة المنجدة يقام بها الجدران ملصقا بعضها إلى بعض بالطين والكلس الذى يعقد معها ويلتحم كأنها جسم واحد، ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضا باختلاف العادات فى التقدير وأوسطه أربعة أذرع فى ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء فى عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر.. ومن صنائع البناء أيضاً أن تجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر»[٢].

أقيت فى اليمن أبنية عظيمة وقصور مشيدة وكانت أبنيتهم متفاوتة فمنها؛ البناء بالحجارة ومنها البناء باللبن ومنها البناء بالآجر، كما بنيت الدور والمعابد فى جهات مختلفة من الجزيرة العربية، وكانت الدار تعرف عند العرب بالدارة والمباءة والمعان، ويقال لصحن الدار حر الدار، وقاعتها وباحتها، وساحتها وصرحتها بحبوحتها. ويقال للغرفة العلية، ويبنى أسفل البيت

---

(١) الشافعى : الأم، جـ٣، ص١١١-١١٢.

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٠٦-٤٠٨.

الخزانة، ويقال للصف الواحد من اللبن ساف، فإذا أقيم الآجر بعضه فوق بعض فهو السميط. وبيت مخمر إذا سقف بالخشب، وبيت مقبب ومسنم على هيئة السنام. وفى الدار الصفة والمشكاة فى الحائط يقال لها الأوقة ويقال بيت مأوق. قال امرؤ القيس[١] :

وبيت يفوح المسك فى حجراته بعيـــد من الآفـات غير مـأوق

أما بيوت العرب من أهل البادية فكانت تصنع على أشكال مختلفة فمنها خباء من الصوف، وبجاد من وبر، وفسطاط من شعر، وسرادق من قطن. ومن بيوتهم القشع وكانت تصنع من الجلود، والقشع هو الجلد اليابس، قال متمم بنتويرة يرثى أخاه مالكا[٢] :

ولا بر ما تهدى النساء لعرسه إذا القشــع من برد الشتاء تقعقعا

على الرغم من اختلاف طبيعة البدو والحضر فى تفضيل مساكنهم إلا أن الطرفين كانا لا يستغنيان عن صناعة النجارة، فأهل الحضر أو المدن كانوا يحتاجون للسقف لبيوتهم، والأغلاق لأبوابهم، وسكان البوادى لابد لهم من العمد والأوتاد الخشبية لخيامهم والحدوج لظعائنهم والجميع يحتاج إلى هذه الصناعة لسلاحهم من الرماح والقسى والسهام. يقول ابن خلدون : «وكل واحدة من هذه الأمور فالخشب مادة لها، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا باصناعة، والصناعة المتكلفة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها.. والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضرورى فى العمران»[٣].

زاول العرب هذه الصناعة ومارسوها وتقدموا فيها ففضلا عن تصنيع الأدوات اللازمة للبناء، قاموا بصناعة مستلزمات الحياة اليومية فمنها الكراسى والسرر والصحون وغيرها من أدوات الطعام والشراب. وقد ذكرت هذه الأدوات

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٤٠٩.

(٢) الألوسى : المرجع السابق، جـ٢، ص٤١٢-٤١٣.

(٣) ابن خلدون : المقدمة، ص٤١٤-٤١٥.

في القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة﴾[١]، وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا﴾[٢].

كان الصناع يستخدمون في النجارة أدوات كثيرة فمنها، الفأس والخصين والحدأة وهي ذات رأسين والصاقور وهي الفأس العظيمة والكرزن والقدوم وهي الفأس الصغيرة، والوشيظة والنخاسة للتهذيب والتقليم ومنها المنشار والمحفرة لحفر الخشب والمسحل وهو مبرد خشبي والمثقب، والكلبتان وهي آلة يجذب بها النجار المسمار من الخشب والعتلة وبيرم النجار وهي عصى ضخمة من الحديد لها رأس مفلطح[٣].

كانت الحدادة من الحرف الصناعية التي انتشرت في بلاد العرب، وكان الحداد يعرف بالقين، فقال خباب : «كنت قينا في الجاهلية»[٤]، وهذه الصناعة من أقدم الصناعات لأنها ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها، ومنافع الحديد عديدة في مصالح الناس ومعايشهم، قال تبارك وتعالى : ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب أن الله قوي عزيز﴾[٥]، وذكر المؤرخون أن هالك بن عمر بن أسد بن خزيمة كان أول من عمل الحديد من العرب، لذلك يقال لبني أسد القيون[٦] واحترفها الوليد بن المغيرة وأبو العاص[٧] وكان سعد بن أبي وقاص من براة السهام. وأهم مصنوعات الحدادين آلات الحرب[٨]، كالسهام والسيوف والرماح

---

(١) سورة الغاشية : الآيات (١٣-١٤).

(٢) سورة الأحزاب : آية (٥٣).

(٣) الألوسي : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٤١٩-٤٢٠.

(٤) البخاري : صحيح البخاري، جـ٢، ص٧.

(٥) سورة الحديد : آية (٢٥).

(٦) الجاحظ : الحيوان، جـ٢، ص٢١.

(٧) الدميري : حياة الحيوان، جـ١، ص١٧٦.

(٨) السمهودي : وفاء الوفا، جـ١، ص١٩٨.

والحراب، فضلا عن الدروع السابغات، وإلى جانب ذلك كانت تصنع منه اللجم والأزمة للدواب، والمسامير والسكاكين والأوانى وسائر الأدوات والآلات اللازمة لمعايش العرب ولتغذية صنعاتهم الحرفية الأخرى.

استعمل الحدادون فى صناعتهم جملة آلات وأدوات منها، القرزم والعلاة وهى السندانة، والمطرقة والتى يضرب بها الحديد والفطيس والمبرد الذى يبرد به الحديد، والمشحذ وهو المسن، والمفراص الذى يقطع به. قال الأعشى(١) :

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم لسانا كمفراص الخفاجى ملحبا

ومنها أيضاً المنفاخة وهو ما ينفخ به الكير، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم : ﴿آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا﴾(٢)، والمشرجع وهى مطرقة لا حروف لنواحيه، والعسقلان وهو مطرقة صغيرة.

ومن بين الصناعات الحرفية التى قامت فى بلاد العرب الحياكة وهى صناعة ضرورية من ضروريات الأمم فهم محتاجون لهذه الصناعة لأجل لبوسهم وفرشهم وحمل أثقالهم ونحو ذلك، ومنها الأكسية من الصوف للاشتمال والثياب من القطن والكتان للباس، والحياكة هى تقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة(٣).

كان المهرة من أرباب حرفة الخياطة يتقنون صنع الكسوة وهى الثياب التى تلبس، فصنعوا لكل طائفة زيا خاصاً بهم، فكان الكاهن يلبس زيا غير مصبوغ، والعراف لا يدع تذييل قميصه، وكان لحرائر النساء زى ولذوات الرايات زى، وكانت العمائم من أجل ملابسهم، لأنها كانت تيجانهم وبها

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٤٢٥.

(٢) سورة الكهف : آية (٩٦).

(٣) ابن خلدون : المقدمة، ص٤١١.

عزهم، وكانت عمائم العرب محنكة، فكان يوضع طرف منها تحت الحنك ومن أسماء العمامة، العصابة، والمقطعة، والمعجر، والمشوذ، والكوارة، وكان السادة من العرب يلبسون العمائم المهراة وهى الصفرة، وكان الزبرقان يصبغ عمامته بصفرة[١]. وذكرت العمامة عند أبى الأسود الدؤلى فقال : جنة فى الحرب ومكنة من الحر ومدفأة من القروقار فى الندى وواقية من الأحداث وزيادة فى القامة وهى تعد عادة من عادات العرب[٢] وكان أبو أحيحة سعيد بن العاصى إذا اعتم لم يقم معه أحد، قال أبو قيس بن الأسلت :

وكان أبو أحيحة قد علمتم ... بمكة غير مهتضم ذميم

إذا شد العصابة ذات يوم ... وقام إلى المجالس والخصوم

فقد حرمت على من كان يمشى ... بمكة غير مدخل سقيم

وقال غيلان بن خرشة للأحنف يا أبا بحر ما بقاء ما فيه العرب، قال : إذا تقلدوا السيوف وشدوا العمائم واستجادوا النعال ولم تأخذهم حمية الأوغاد[٣].

لما تنوعت صنوف اللباس، ومال الناس للمغالاة فى التزين بها والإقبال على اقتناء المصبوغ منها والمزركش والتزيى بها رغبة في إظهار الحسن وجذب الأنظار رأى عمرو بن معد يكرب أنهم بذلك قد حادوا عن الغرض الذى من أجله خلقت وأمر الله بها فصنعت، فقال ابن معد يكرب[٤] :

ليس الجمال بمئزر ... فاعلم وإن رديت بردا

إن الجمال معادن ... وموارث أورثن مجدا

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٤٣٠-٤٣١.

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار، جـ١، ص٣٠٠.

(٣) الألوسى : المصدر السابق، جـ٢، ص٤٣١.

(٤) ابن قتيبة : المصدر السابق، جـ١، ص٣٠٠.

٣ - النشاط التجارى

أ) التجارة الداخلية وأهم مراكزها :

لما كانت الجزيرة العربية تتمتع بموقعها المتوسط بين قارات العالم المعروف وقتذاك، لذلك صارت سبيلا للصلة بين الشرق والغرب[١]. كما أن إشرافها على سواحل البحر الأحمر (القلزم) والخليج العربى وبحر العرب هيأ لها نشاطا تجاريا مرموقا لارتباطها بأفريقيا عن طريق باب المندب، وفارس والجزر الآسيوية وأوروبا عن طريق البحر المتوسط (الروم) وقد ازدهرت حركة القوافل التجارية فى ظل الجو الصحراوى الجاف والأمان والحرية[٢]، والجدب الزراعى.

نشأت التجارة فى بلاد العرب نشأة طبيعية تتوافق مع الحاجات البشرية، فقام العرب بتبادل السلع الفائضة عن حاجتهم بأخرى يحتاجون إليها، فكان فائض القمح فى اليمامة يستبدل به مصنوعات يثرب من سلاح وحلى وثياب وخمور وغيرها.

ازدهرت الحركة التجارية فى بلاد العرب قبل الإسلام بعد تحقيق المكاسب والثروات، مما شجع على تنمية المال واستثماره فيها، وقد عبر عن ذلك كعب ابن لؤى فى قوله : «صلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم وأوفوا بعهودكم وثمروا أموالكم فإنها قوام مروءتكم وتصونوها عما يجب عليكم»[٣].

اشتهرت مكة بمكانتها التجارية فى الجزيرة العربية فقد حباها الله سبحانه وتعالى بالموقع الفريد عند ملتقى طرق التجارة الداخلية والخارجية وبالبيت العتيق قبلة الحجيج من أرجاء المعمورة، فضلا عن قيام زعماء قريش بتنظيم التجارة وترتيب قوافلها وتأمينها بعقد العقود وتوثيق المواثيق مع العشائر الضاربة على طرقها[٤]. فعظمت تجارتها وصارت مضرب الأمثال، ذكر

---

(١) طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب، جـ١، ص٢٢٩.

(٢) على عبدالرسول : المبادئ الاقتصادية فى الإسلام، ص١٩٧.

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف، جـ١ ، ص٥١.

(٤) عبدالعزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب، جـ١ ، ص٣٠٧.

اليعقوبى أن القافلة الواحدة كانت تضم ألفا وخمسمائة جمل تحمل ما قيمته خمسون ألف دينار[(١)] ولا شك أن ذكر تجارة قريش فى القرآن الكريم[(٢)]، إنما يدل على مدى مكانتها وشهرتها التى جابت الآفاق.

لم يقتصر اهتمام أهل مكة على التجارة الداخلية بل اشتغل زعماء قريش بالتجارة الخارجية وبخاصة بعد أن فقدت اليمن مكانتها التجارية أثر تعرضها للغزو الحبشى ثم الفارسى منذ أوائل القرن السادس الميلادى فأخذت مكة مكانها واضطلعت بالتجارة العالمية[(٣)].

على الرغم من اشتغال أهل يثرب بالزراعة لوقوعها فى منطقة خصيبة تكثر فيها الوديان[(٤)] إلا أنه كان هناك حركة تجارية نشطة لارتباطها بالزراعة ومنتجاتها ولوفرة المصنوعات الدقيقة التى اشتهرت بها يثرب.

كذلك كان للدويلات الجنوبية دور هام فى التجارة الداخلية حيث كانت السلع المجلوبة من الأقاليم البعيدة عن الجزيرة العربية يتم نقلها بريا إلى الداخل بالقوافل عبر الصحراء إلى مدن الحجاز وأسواقها المختلفة[(٥)].

كان هناك تنظيم محكم للقوافل وللمساهمين فى تمويلها، فكان أبو العاص يخرج تاجرا إلى بلاد الشام بماله وأموال رجال قريش[(٦)]، وكانت العشائر تخرج لتوديع القافلة، واستقبالها فرحين مستبشرين بعودتها، وبمجرد وصول القافلة، كان رئيسها يجتمع بأصحابها المشاركين، ثم يتوجهون إلى البيت الحرام لتقديم الشكر، ومظاهر الامتنان والتقديس للآلهة على حماية القافلة وإعادتها سالمة، ثم يجتمع الرهط ويقومون بتوزيع الأرباح وإعطاء كل ذى حق حقه منها[(٧)].

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، جـ١، ص٢٠٢.

(٢) سورة قريش.

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٣، ص٣٨٥.

(٤) السمهودى : وفاء الوفا، جـ٢، ص٢١٩.

(٥) جواد على :تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٩١.

(٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ص٢٩٢.

(٧) جواد على : المرجع السابق، جـ٨، ص١٥١.

كانت أهم السلع الرئيسية للتجارة القريشية هي الزبيب والصمغ والطيب والأدم والحرير والبرد اليمنية والثياب العدنية والأسلحة والمصنوعات الحريرية والمعادن وكل ما يحتاجه موسم الحج[١].

نشطت الحركة التجارية في الجزيرة العربية نشاطا كبيراً فكانت القوافل العربية تجوب الطرق والدروب والمسالك المنتشرة في بلاد العرب، وكان مما زاد في انتعاش التجارة معرفة العرب منازل النجوم الثابتة والسيارة ومنازل القمر وتحركات السحاب والرياح[٢]، فكانوا يخرجون قوافلهم التجارية في أكثر الأوقات ملاءمة صيفا وشتاء. وقد جاء في القرآن الكريم من الآيات ما يدل على معرفتهم بالكواكب والنجوم ومنازلها وحركتها فقال تبارك وتعالى : ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر﴾[٣]، وقال تعالى : ﴿هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾[٤]. كما أن بعض الطرق التجارية تزدان بأشجار وارفة فتمد ظلالها على القوافل، وكانت الجبال والأودية تنبت السمرات العالية فى الطرق من مكة إلى يثرب، فضلا عن وجود آبار فى منازل معروفة لدى أدلاء القوافل[٥]، لذلك كانت القوافل تخرج فى مناخ مفعم بالزمان المعيشى والنفسى.

كان الطريق الرئيسى لحركة القوافل التجارية يمتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة ساحل البحر الأحمر (القلزم) ويتفرع منه طريق يتجه إلى بلاد الشام وآخر نحو مصر. وفى الجنوب يمتد هذا الطريق موازيا لساحل حضرموت. وكان من أشهر الطرق التجارية أيضاً، الطريق الذى يخترق بلاد العرب ويمتد من البحر الأحمر إلى الخليج العربى ماراً بمكة[٦]، ويتفرع منه

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة، جـ١ ، ص٢٥٨.

(٢) كارلو ألفونسو : علم الفلك، ص١٠٦.

(٣) سورة الأنعام، آية (١١٥).

(٤) سورة يونس : آية (٥).

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٢ ، ص٤٢٩.

(٦) حتى : تاريخ العرب، ص ٦٤-٦٥.

طريق آخر يتجه إلى شط العرب، وطريق يسير مع الخليج العربى ماراً بظفار ثم يتجه غرباً إلى بلاد الشام[١]، كما يتفرع من الطريق العرضى الرئيسى طريق من حنين والطائف إلى أوطاس، وطريق يبدأ من خيبر إلى وادى القرى، وآخر منها إلى دومة الجندل وفدك.وهناك طريق آخر يبدأ من يثرب إلى كل من نجد والبحرين. وفضلا عن ذلك كان هناك الطرق التى تربط مخاليف اليمن بعضها ببعض وما يتفرع منها من طرق ثانوية.

كانت أشهر الطرق البرية التى كان يسلكها المسافرون والقوافل على حد سواء فى داخل أرجاء الجزيرة العربية هى الطريق الغربى الذى كان يمتد من جنوبى الجزيرة حتى آيلة ماراً ببدر، ويتفرع من بدر طريق يصل إلى يثرب، والطريق الواصل بين اليمن ويثرب ماراً بمكة وقد يواصل المسافر السير من يثرب حتى يصل إلى بلاد الشام، وكان الطريق الواصل بين البصرة ويثرب يمر أيضاً بمكة ويتحد مع جادة الكوفة فى معدن النقرة وكان طريق عمان يمتد إلى الشحر ثم يميل إلى حضر موت وشرقى عدن، وكان هناك طريق آخر يبدأ من عمان ثم يتجه إلى مأرب فمكة فالبتراء ومن هناك يصل إلى مصر والشام.

وكان هناك أيضاً الطريق الجنوبى الشرقى الذى يمتد من اليمن بمحاذاة ساحل البحر العربى ثم الخليج العربى فيتجه إلى البحرين ثم إلى البصرة والعراق، والطريق الواصل بين نجد والعراق، وطريق البصرة اليمامة، والطريق المباشر بين العراق والشام الذى كان يمر بالموصل وشمال الجزيرة[٢]، فضلا عن الطريق الذى يبدأ من يثرب ويتجه إلى كل من الشجرة والمعرس ببطن وادى العقيق وهو أقرب للمعرس[٣]، كذلك كان يخرج من يثرب عدة طرق فرعية أخرى تتجه إلى رومة والزبدة وهما يلتقيان مع طرق القوافل الرئيسية وكان الموضع المسمى برومة عبارة عن بئر يقع فى الطريق المنتهى ببلاد الروم.

---

(١) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى، جـ١، ص١٣٠.

(٢) O'Leary : Arabia Before Muahmmad, p. 182.

(٣) القسطلانى : إرشاد السارى، جـ٣، ص٢٥٢.

ويمتد طريق الربذة فيصل إلى الكوفة فى أحد فروعه بينما ينتهى بمكة فى الفرع الآخر ماراً بمعدن بني سليم وأفاعية وغمرة وذات العروق. وكان طريق الكوفة. الربذة يعرف بطريق البادية[1].

كذلك كان طريقاً مكة الطائف من أشهر الطرق التى كان يسلكها المتنقلون. وكان أحدهما يبدأ من مكة يتجه إلى بئر ابن المرتفع ومنها إلى قرن المنازل ثم ينتهى بالطائف. والآخر يتجه إلى عرفات ثم بطن نعمان السحاب ثم عقبة منه التى تشرف على الطائف.

ومن ناحية أخرى كان الطريق الواصل بين يثرب ودمشق يمر بوادى القرى فالحجر فالجنينة فالحدثة ثم تبوك ومنها إلى ذات المنازل ثم إلى دمشق. وكان طريق اليمامة البصرة يعرف بطريق العنصلين ويضرب به المثل لمن ضل الطريق[2]، أما طريق اليمن/ مكة فكان يعرف بطريق الفتق حيث تتفرع منه ثلاثة طرق تمر جميعها ببستان ابن عامر.

وكان يربط الجبال الشمالية للجزيرة وصحراء البادية طريق الحجاز/ الإحساء وطريق يمتد من يثرب إلى ذى الحليفة وهو طريق كان يسير بمحاذاة حرة الوبرة ويمر ببئر عروة. وطريق آخر يمتد من اليمامة إلى قلب الجزيرة ويمر بالخرج والهفوف والظهران.

وكان طريق عدن مكة، يمر بمخلاف عك ثم الحردة ثم مخالف الحكم ثم عثر فمرسى ضنكان، فالسرين، فأغيار فالهرجاب ثم الشعبية فمنزل فجدة ثم ينتهى بمكة[3].

وقصارى القول أن الله تبارك وتعالى قد امتن على بلاد العرب بسبل لا تحصى ولا تعد، كان يمثلها الطرق والمسالك والدروب فضلا عن الأودية والبطاح، وهى نعمة عظيمة للإنسان فى حله وترحاله، سفره وانتقاله، كما

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص١٢٥.

(٢) الميدانى : مجمع الأمثال، جـ١، ص٦١.

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص١٩٢.

امتن الله تعالى على الإنسان العربى بوسائل الانتقال وألهمه معالم الطريق، ومعرفة الأفلاك ومنازل الكواكب حتى يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر. ومنحهم الأمان فى رحلتهم فقال عز من قائل : ﴿وجعنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة. وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين﴾[١].

كانت التجارة الداخلية فى بلاد العرب مركزها الأسواق فكان العرب يجتمعون فى أسواق عامة للبيع والشراء والتبادل السلعى فى أوقات معينة وأماكن محددة معروفة لرواد هذه الأسواق يعرف ابن خلدون الأسواق بقوله له : «اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجة الناس فمنها الضرورى وهى أسواق الأقوات من الحنطة وما فى معناها كالباقلاء والبصل والثوم وأشباهه، ومنها الكمالى والحاجى مثل الأدم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمبانى»[٢].

أقام العرب أسواقا تجارية كبرى فى نواحى الجزيرة العربية فى أوقات مختلفة تتبادلها الأسواق حتى صارت الحركة التجارية مستمرة طوال العام، وكانت الأسواق تتميز بوجود الخيام الخاصة بإقامة المترددين عليها، والوكلاء الذين كانوا يقومون باستطلاع أسعار السلع المختلفة قبيل وصول القوافل[٣]. وقد عبر عن ذلك طريف بن تميم العنبرى بقوله :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة   بعثوا إلى عريفهم يتوسم

كانت الأسواق تضم الوزانين، الذين كانوا يقومون بحسم النزاع بين الناس ويزنون الأثمان من فضة أو ذهب أو قمح[٤]. كما تضم السماسرة والأدلاء الذين اتخذوا من أطراف الأسواق موضعا لهم يتلقون فيه بأصحاب

---

(١) سورة سبأ : آية (١٨).

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ص٢٢٥.

(٣) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن، جـ٣، ص٤٣.

(٤) الشوكانى : نيل الأوطار، جـ٢، ص١١٨.

السلع قبيل وصولهم إلى قلب السوق، ويقومون بالوساطة مقابل بعض المغانم[١]. كذلك انتشر العملاء ووكلاء التجار في الأسواق، وهم الذين كانوا يتنقلون بين المدن والقرى قبيل انعقاد الأسواق، وذلك لجلب السلع اللازمة لسادتهم من كبار التجار. وكانت الأسواق الكبرى تتميز بروادها من كبار الشعراء والأدباء وزعماء القبائل والعشائر المختلفة، فلم تقتصر على البيع والشراء بل كان يعقد فيها حلقات الشعر ومجالس الصلح والتحكيم فصارت بعض الأسواق الكبرى بمثابة المجتمعات السياسية والمؤتمرات العامة التي تحسم فيها شتى الأمور[٢]. وكانت القبائل تنتهز فرصة انعقاد السوق لتصفية النزاعات بمعرفة المحكمين، وتقديم الديات وإعلان الخلع والخطوبة والزواج. ومن ناحية أخرى أقيمت الأنصاب في بعض جهاتها، حتى يتسنى لروادها ذبح الذبائح والطواف حولها[٣]، ولا شك أن الترتيبات التي وضعتها قبيلة قريش لتنظيم الأسواق والإشراف الدقيق عليها ومراقبة مرتاديها، وتحريم حمل السلاح خلال إنعقادها، أضفى جواً من الزمان كان له الفضل في تحقيق أقصى استفادة للبائعين والمشترين والمشرفين عليها جميعاً.

على الرغم من انتشار الأسواق في أرجاء الجزيرة العربية وتعدد نوعياتها من حيث طبيعة الإشراف[٤] والسلع التي يتم الاتجار فيها وتوقيتات انعقادها إلا أن أشهرها وأعظمها تلك التي كانت تقام بالقرب من مكة ومنها سوق عكاظ الذي كان يقام فيما بين مكة والطائف وكان يقام في الأشهر الحرم[٥] مما أضفى عليها قدسية وشهرة كبيرة جابت الآفاق، فجذبت إليها الناس من كل صوب وحدب.

---

(١) درمنجم : حياة محمد، ص٤٣.

(٢) إبراهيم العدوي : التاريخ الإسلامي، ص٥٤.

(٣) البكري : معجم ما استعجم، جـ٢، ص٧٧.

(٤) كانت هناك أسواق عربية كبرى أقامها العرب وأشرفوا عليها، كما كان هناك أسواق أقامها الفرس والروم في مناطق عربية وأشرفوا عليها، وفرضوا على روادها الضرائب فمن بينها سوق الحيرة وسوق لقة وسوق الأبلة، وسوق الأنبار وسوق بصرى وسوق أذرعات وسوق آيلة وغيرها.
سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص٢١٢-٢١٣.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، جـ١، ص٢٢٧.

كانت سوق عكاظ تعقد في الفترة من أول ذى القعدة إلى العشرين منه[١]، غير أنها لم تكن تخلوا إلا في ذى الحجة فقد كانت بعض روادها يتخلفون خلال العشر الأوائل من هذا الشهر، واشتهرت عكاظ بإقامة المنتديات الاجتماعية والأدبية إلى جانب التبادل السلعى والبيع والشراء، فقد كان بها القضاة من بنى تميم، والمحكمون لجودة الشعر ومنهم النابغة الذبيانى، وكانت الديات تحمل إليها لتدفع على أعين الناس، فكانت هوازن تحمل إتاواتها إلى عكاظ لتدفعها إلى زهير بن جذيمة العبسى[٢]، كما اعتاد حى من الأزد حمل إتاوتهم إلى عبدالله بن جعد في موسم انعقادها[٣].

لم تقتصر سوق عكاظ على النشاط التجارى لقبيلة قريش وحلفائها بل كان يفد إليها بطون وعشائر هوازن وغطفان وخزاعة وعضل والمصطلق، فضلا عن القوافل التجارية المرسلة من قبل ملوك اليمن وأمراء الحيرة والغساسنة. وكان لكل قبيلة منزل بالسوق وراية وكانت مسئولية الأمن وارشاد القبائل إلى مواضعها تقع على عاتق قيس عيلان وبطونها[٤].

كان سوق مجنة يقع على نحو عشرة أميال شمالى مكة[٥]، فيما بين جبلى شاقة وطفيل، وفيها النخيل والماء وكان يفد إليها كثير من قبائل العرب. وكانت الحركة التجارية تنتقل إليه بعد عكاظ، ففى العشرين من ذى القعدة يبدأ تقاطر التجار حيث تنشط حركة البيع والشراء لمدة عشر أيام.

وفى أوائل ذى الحجة تقام سوق ذى المجاز، التى عرفت بذلك لإجازة الحاج منها، وكانت تظل منعقدة حتى يوم التروية فيحمل الحجاج الماء من هذا السوق إلى عرفة حيث لا يوجد فيها ماء. وكان ذو المجاز يعد آخر الأسواق قبل أداء مناسك الحج[٦].

---

(١) الأزهرى : قصص عكاظ، ص١٥.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ١، ص١٣٥.

(٣) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ٥، ص٢٤.

(٤) سعيد الأفغانى : أسواق العرب، ص٢٧٩.

(٥) محمد حسين هيكل : فى منزل الوحى، ص٣٨٣-٣٨٤.

(٦) درمنجم : حياة محمد، ص٥٤.

ومن ناحية أخرى كانت تقام سوق حباشة جنوبى مكة على نحو ست مراحل فى ديار بارق نحو قنونا إلى جهة اليمن، وموعد انعقادها شهر رجب(١).

لم يقتصر إقامة الأسواق على مكة وما حولها بل كانت تعقد عدة أسواق فى يثرب حيث شهدت حركة تجارية نشيطة بين أهلها وبين جيرانهم من البادية، فضلا عن المعاملات التجارية الخارجية لما اشتهرت به يثرب من اتقان لبعض الصناعات الحرفية من حلى وأسلحة وآلات زراعية وغيرها(٢)، وأهم أسواق يثرب كان سوق بنى قينقاع الذى كان يقام عند جسر وادى بطحان وكان سوقاً كبيراً يكثر فيه الصياح وتسمع منه ضجة البيع والشراء والتعامل(٣).

كذلك كان هناك سوق الزوراء بالقرب من الموضع الذى أقيم عليه المسجد النبوى بعد الهجرة النبوية الشريفة، وسوق زبالة شمالى غرب يثرب(٤)، وسوق العصبة بالقرب من قباء، وسوق مزاحم فى منطقة نفوذ عبدالله بن أبى، وسوق بقيع الخيل، التى عرفت بذلك لقيام بنى سليم بجلب الخيل والإبل والغنم إليها، فكان أكثر ما يباع فيها الحيوانات(٥). فضلا عن السمن والحطب الذى كان الحطابون يجلبونه من الغابات والبادية وأشجار يثرب.

وفى شمالى نجد أقام العرب أسواق البتراء ودومة الجندل، وخيبر، وفى الشرق سوق الحجر باليمامة والحيرة فى الشمال الشرقى، كما كانت تعقد أسواق صحا ودبا بعمان، وسوق المشقر بهجر، وسوق الشحر، وفى الجنوب أسواق حضرموت وصنعاء وعدن ونجران، وعلى سوق ايلة كانت من أشهر الأسواق الثغورية حيث كان يتوسط مصر وفلسطين والجزيرة العربية فكان

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب، جـ١، ص٨٧.

(٢) السمهودى : وفاء الوفا، جـ١، ص٥٤١.

(٣) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ٢١، ص٦٢.

(٤) السمهودى : وفاء الوفا، جـ١، ص٥٤١.

(٥) السمهودى : المصدر السابق، جـ١، ص٥٤٤-٥٤٥.

ملتقى القوافل وكان سوق بصرى يعد محطة انتهائية لتجارة القوافل القادمة من الحجاز إلى الشام، وكان يشرف عليها الرومان وحلفاؤهم من الغساسنة[١].

أما سوق البتراء فكان ملتقى قوافل الشرق والغرب وكان يقع فى وادى موسى على مسيرة سبعين ميلا من العقبة وأهم مايجلب إليه تجارة الشام من الزبيب والحنطة والشعير والزيت وغيرها[٢].

وكان سوق دومة الجندل يتميز بانعقاده فى أوائل شهر ربيع الأول ويستمر حتى نهاية الشهر، فكان سوقا موسميا مثله فى ذلك مثل عكاظ، وكان يتبادل رئاسته والإشراف عليه شيوخ قبيلتى كلب والسكون من غسان، وذلك من أجل الاستيلاء على العشور، وقد اشتهر هذا السوق بالمبانى الفخمة، والتى كان من بينها قصر السموءل بن عاديا كما كانت تباع فيه المنتجات المحلية وتشترى.

كان رواد الأسواق ينتقلون بعد سوق دومة الجندل إلى سوق هجر بالبحرين حيث كان يقام طوال شهر ربيع الآخر، ومنها ينتقلون إلى سوق المشقر الذى ينتسب لاسم حصن كان مملوكا لعبد القيس بالبحرين، وكان المشقر سوقا موسمياً أيضاً يبدأ فى أواخر شهر ربيع الآخر حتى أوائل شهر جمادى الأولى. وكانت رئاسته والإشراف عليه لبنى تميم، واشتهر بالاتجار فى تجارات الشرق المجلوبة من بلاد فارس[٣].

أما سوق صحار بعمان فكانت تقام فى أوائل شهر رجب، وتتميز بتجارة الهند والسند والصين وكان يرأسها الجلندى[٤]، وصحار هى قصبة عمان مما يلى الجبل[٥].

---

(١) سعيد الأفغانى : أسواق العرب، ص٣٧١.

(٢) الصنعانى : سبل السلام، جـ٣، ص٥١.

(٣) الأزهرى : قصص عكاظ، ص١٢٧-١٢٨.

(٤) الجلندى : لقب معناه المتكبر.

(٥) وليم سن : سحار عبر التاريخ، ص٩-١٠،

كانت سوق الشحر التى تقع بين عدن وعمان، تعقد فى منتصف شهر شعبان وجل تجارتها الغنم واللبان فضلا عن الأدم والكندر والصبر، وكانت هذه السوق تقام فى سفح جبل مهرة. وبعد انتهاء هذه السوق كان التجار ينتقلون إلى سوق عدن ابين، الذى ينتسب إلى ابين، أول من استوطن هذا الموضع، الذى يقع جنوبى باب المندب نحو الشرق، وكانت تمر به سفن الهند ومصر والحجاز[١]، وكانت حرساتها لبنى تميم وتعقد فى أواخر شهر شعبان والعشر الأوائل من شهر رمضان، ويحمل العشور إلى ملك حمير، والأبناء من الفرس بعد غزوهم اليمن. وكانت سوق عدن تتميز بتجارة الحبشة فضلا عن الاتجار فى المنتجات الإقليمية من البرد والأدم وبخاصة المعافرية[٢].

أما سوق صنعاء فكانت تعقد فى العاشر من شهر رمضان وحتى نهايته وكانت سوقاً كبيرة يبـاع فيها البرد والأدم المجلوب من معافر فضلا عن الرقيق المجلوب من النوبة والعاج والتبر وغيرها من السلع المجلوبة من خارج الجزيرة العربية[٣].

وكانت سوق الرابية الجنوبية التى تقام بحضرموت تعقد فى شهر شوال وكانت حراستها لكندة، بينما كان سوق حضرموت الرئيسية تعقد فى ذى القعدة وأغلب روادها من أهل الجنوب، وقلما كان يرتادها أهل الشمال لانعقاد سوق عكاظ فى الوقت نفسه، وكان الأدلاء من بنى آكل المرار من كندة يرشدون الناس إلى موضعها، بينما كانوا يسيرون إليها فى حراسة آل مسروق بن وائل الحضرمى الذين اشتهروا بالاتجار فى النعال الحضرمية[٤]، فضلا عن أنواع السع التقليدية.

وفى بلاد اليمامة كانت تقام سـوق الفلج وهى سوق الماشية والمنسوجات والحبوب والتوابل، وسوق حجر وكان بها منازل بنى حنيفة ومضر، وكانت

---

(١) الرافعى : تاريخ آداب العرب، جـ١ ، ص٨٧-٨٨.

(٢) سعيد الأفغانى : أسواق العرب، ص٢٦٧-٢٧٠.

(٣) لوبون : حضارة العرب، ص٥٥٤.

(٤) سعيد الأفغانى : المصدر السابق، ص٢٧٦.

تعقد فى موضع به نخيل وماء، ومنها زرقاء اليمامة، وكانت تقام فى شهر المحرم[١].

أما سوق الحيرة فكان يقع شمالى الكوفة، وكانت مسكنا لتجار العرب، وكانت تخرج منها لطائم الفرس إلى عكاظ كما ترد إليها قوافل قريش. وهى ملتقى بضائع الشرق من الهند والسند القادمة من عمان إلى بلاد الشام وكانت حراستها لربيعة وقضاعة[٢]، وتجارتها وافرة فمنها الأدم والعطر والبرد والجواهر والخيل والخمر والسجاجيد المزخرفة فضلا عن سائر البضائع المجلوبة من شتى الأقطار المجاورة، وما يحمله أعراب البادية من منتجاتهم. وكان المناذرة يحصلون على عشورها، وقد استفادوا منها وحصلوا على أموال وفيرة لأن حجم التعامل فى هذا السوق كان عظيما[٣].

ليس أدل على ازدهار التجارة الداخلية والخارجية فى الممالك الجنوبية من الجزيرة العربية من أن ملوك قتبان أصدروا عدة أوامر لتنظيم التجارة وجباية المكس عن البضائع التى تباع فى الأسواق، فضلا عن العقوبات التى تفرض على المخالفين وعلى المتهربين من دفع الضرائب. كما حددت القواعد التى يسمح بموجبها للغرباء فى الاتجار بأسواق مملكة قتبان. والنظم التى يسمح بموجبها لأهل المملكة التعامل فى الأسواق الخارجية. فقد أصدر الملك شهرهلل بن يدع أب نصًا فى تنظيم التجارة وضوابطها، وقد نشر على شكل إعلان موجه إلى التجار من أهل المملكة، ومن الغرباء الوافدين عليها : «لأهل تمنع والساكنين خارج المدينة تمنع عاصمة قتبان» عليهم أن يقدموا «عربونا إلى تمنع، وأن يقيموا بشمر، وعليهم أن يشتروا من شمر ويمكنهم الابتياع من أسواق قتبان، وهم ملزمون بأخبار (عهر شمر) وذلك لتسوية المشكلات الناجمة عن المعاملات التجارية». وقد تطرق النص إلى كيفية متاجرة الناس بعضهم مع بعض وكيفية دفعهم حصة الملوك[٤].

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب، ص١٦١-١٦٢.

(٢) سعيد الأفغانى : المرجع السابق، ص٣٧٨-٣٨٢.

(٣) البكرى : معجم ما استعجم : جـ٢، ص٤٧٨.

(٤) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص١٤٠-١٤٤.

ب) التجارة الخارجية :

على الرغم من ازدهار التجارة الداخلية فى أرجاء الجزيرة العربية إلا أن التجارة الخارجية كان لها نصيب كبير من عناية العرب وذلك لتصدير الفائض عن حاجتهم وجلب السلع التى يحتاجونها فى معايشهم. وقد ساعد على ذلك وقوع بعض المدن العربية على سواحل البحار والمحيطات مما أتاح لهم سبل الاتصال بقارات العالم شرقا وغرباً.

كانت آيلة (العقبة) من أهم مراكز الاتصال التجارى بالعالم الخارجى، وكان ميناؤها هو لويكه كومة على ساحل البحر الأحمر[١] (القلزم) وفى الجنوب الغربى من جزيرة العرب اضطلع ميناء مخا[٢] بالتجارة الواردة من مصروالدولة البيزنطية. وكانت تقيم فيه جاليات مختلفة الجنسيات.

كذلك اشتهر ميناء عدن بالتبادل التجارى مع منتجات أفريقيا والهند ومصر، وكان يقيم به جاليات رومانية وقبطية، وكان به كنيسة[٣] لآداء الشعائر الدينية وكان يلى ميناءعدن إلى الشرق ميناء اشتهر بالتخصص فى تجارة اللبان المجلوب من الهند وهو ميناء كانة.

وكان ميناء ظفار من أعمال الشحر على مقربة من صحار قد اشتهر أيضاً بتجارة اللبان، وتبادلها مع بلاد الهند والخليج وسواحل أفريقيا. وكان لأهل جرها أيضاً تجارات مع الهند وسواحل إيران الجنوبية وبلاد العراق، أما الأبلة فكانت تصدر حاصلات العراق وبلاد الشام إلى الهند وتستورد منها أخشاب الأبنوس ومنتجات الهند المشهورة[٤].

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٩٦.

(٢) مخا : يقع على ساحل اليمن بين زبيد وعدن. ياقوت : معجم البلدان، جـ٥، ص٦٧

(٣) جورج فضلو : العرب والملاحة، ص٩٤.

(٤) Maqboul : Indo-Arab, p. 86.

أما الشعبية فكانت من المراسي المعروفة فى الحجاز تقصدها السفن لتتزود بما تحتاج إليه من زاد وماء وتفرغ حمولتها من المنتجات الأفريقية. وكانت الشعبية خورا عظيما ومرسى قديما مقابل وادى المحرم[١].

كانت عمان وسواحل الخليج من أهم المراسي التى كانت تقصدها السفن التجارية القادمة من الهند، وقد عرف أهل عمان بمهارتهم فى ركوب البحر، واشتهروا بتجارتهم مع السلع الهندية، وكان ميناء أكيلا الواقع على مقربة من رأس الخيمة من المراكز التجارية الهامة للعمانيين جميعاً[٢].

كذلك كانت شبوة عاصمة مملكة حضرموت من المراكز التجارية التى عرفت بالتعامل مع بلدان العالم الخارجى، وكانت مركزا للطيب بأنواعه وبخاصة المسك والكافور والدهن. بينما اشتهرت جرش بالاتجار فى الصمغ والأدم والمغافر والعلوك.

ارتبطت التجارة الخارجية فى تصريف بضائعها بقوافل التجارة الداخلية وطرقها ومستوطناتها التى أقميت على هذه الطرق بين الجنوب والشمال فى أماكن عديدة فمنها معين ومصران وديدان والحجر.

كانت السلع الجنوبية تحمل على القوافل قاصدة بصرى وغزة فى بلاد الشام عن طريق نجران والحمى ويثرب وقد جنى أهل العربية الجنوبية مكاسب طائلة من وراء التجارة المجلوبة من الخارج وتسويقها داخلياً.

كانت السفن الجنوبية تتجه إلى أفريقيا حاملة منتجاتها المحلية والسلع العربية، وتعود محملة بالبضائع الأفريقية الثمينة وأهمها الأخشاب والعاج والعبيد. وقد ترتب على اتساع حجم التجارة العربية الأفريقية[٣] أن أقام حكام سبأ مستوطنة لهم على سواحل أفريقيا المقابلة للجزيرة العربية هى مملكة اكسوم وفضلا عن ذلك كان العرب يشاهدون فى رهابتا بالقرب من زنجبار.

---

(١) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، جـ١، ص٤٢-٤٣.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص٧٥.

(٣) Davidson : The lost cities, p. 174.

كما كان للعرب الجنوبيين جالية مقيمة بمصر، مما يدل على صلات تجارية وثيقة بين مصر وبلاد العرب.

كان طريق الخليج الفارسى. الذى يبدأ من شرق مكة من أهم طرق التجارة الخارجية الداخلية كما كان هناك طريق الشمال إلى خيبر، فوادى الرمة ثم الحيرة وطريق الجنوب الذى اتجه إلى اليمن ومنها إلى المحيط الهندى وأفريقيا الشرقية، إلى جانب طريق بلاد الشام المتجه إلى مدن البحر المتوسط (الروم) والطريق الذى يصل بين البصرة والأبلة، وطريق العراق/ الشام، وطريق البصرة/ مكة[١]. فضلا عن الطريق الواصل بين اليمن وعيذاب عبر البحر الأحمر (القلزم)[٢]. ثم تنقل السلع بالطرق البرية.

كانت قريش تقوم بمهمة الوسيط فى نقل التجارة الخارجية من مراكزها الجنوبية شمالا بقوافلها الضخمة، وتنقل تجارة بلاد الشام وحوض البحر المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن، وهى ما عرفت برحلتى الشتاء والصيف والتى حققت من ورائها ثروات عظيمة جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الإسلام. وقد اشتهر من قريش بنو عبد مناف وهم أصحاب الإيلاف[٣] وقد اختصوا بالتجارة الخارجية، فكان عبد شمس يختص بتجارة الحبشة، والمطلب بتجارة اليمن، ونوفل بتجارة فارس، وهاشم الذى عقد تحالفات تجارية مع الروم وحلفائهم من الغساسنة[٤]. وقد جعلت منهم هذه التجارة أصحاب نفوذ وغنى وأموال طائلة.

كما استفادت بعض القبائل العربية التى تقع مساكنها على طرق تحرك القوافل من مرور هذه القوافل، فكانت قوافل الفرس المارة بالجزيرة العربية إلى

---

(١) الخربطلى : تاريخ العراق، ص٣٧٧-٣٧٨.

(٢) طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب، جـ١، ص١٦.

(٣) أصحاب الإيلاف : أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم كانوا قد ألفوا ذلك فلا يشق عليهم فى الشتاء والصيف.

القسطلانى : إرشاد السارى، جـ٦، ص٨٩.

(٤) الألوسى : بلوغ الأرب : جـ٣، ص٣٨٥.

بلاد الشام والقادمة من مصر إلى الصين سبباً فى ثراء هذه القبائل، وكان زعماء القبائل يعملون من أجل خدمتها وراحتها وحراستها حتى تصل آمنة إلى أهدافها[١]، فكانت لطائم الفرس ترسل إلى الحيرة فى حراسة رجال من الفرس ثم يستلم بنو تميم هذه المهمة فى داخل أرجاء الجزيرة وتظل فى تقدمها حتى تخرج عن دائرة حمايتها إلى قبيلة أخرى وهكذا نظير أجر معلوم.

هكذا كانت تجارة العرب عبر الصحراء فضلا عن المنتجات المحلية تحمل منتجات شرق وجنوب آسيا المعروضة فى اليمن وتجارة وسط وشمال آسيا. التى كان يجلبها التجار العرب من العراق وشواطئ الخليج العربى، مثل عطر دارين ولؤلؤ البحرين وتمر هجر. ولا شك أن الاحتكاك التجارى للعالم الخارجى كان له أثره فى النواحى المختلفة للحضارة العربية إلى جانب قيمته الاقتصادية[٢].

على الرغم من شهرة العرب بنقل التجارة الداخلية فى بلادهم على الطرق والدروب المختلفة باستخدام القوافل البرية، إلا أن نشاطهم لم يقتصر على ذلك بل اتصلوا بدول العالم المعروف وقتذاك وعقدوا معهم اتفاقيات للتبادل التجارى وبخاصة مع الهند والصين ومصر والحبشة ومدن البحر المتوسط (الروم). وقد تطور النشاط التجارى البحرى للعرب حتى صار الفرس والروم يعتمدون عليهم فى جلب السلع الشرقية وتسويق منتجاتهم هناك. وقد حمل لواء هذه التجارة العرب الذين كانوا يقطنون المدن الساحلية على شواطئ البحار والمحيطات والخلجان[٣]، فضلا عن الجاليات العربية التى استوطنت بعض موانئ هذه الدول. وقد أدت السيطرة العربية على هذه المناطق إلى أن عقد الروم تحالفا مع الحبشة لمهاجمة اليمن وانتزاع التجارة البحرية من العرب، كما تطلع الفرس من ناحية أخرى إلى هذا الغرض.

---

(١) نادفى : التاريخ الجغرافى للقرآن، ص١١٢.

(٢) لوبون : حضارة العرب، ص٥٧.

(٣) المسعودى : مروج الذهب، جـ٢، ص١٤٧.

كانت السفن الشراعية تحمل بضائع العرب الجنوبية إلى الساحل الأفريقى[١]، وهى البرد والثياب والمصنوعات المعدنية كالسيوف والخناجر وأدوات الحرب المختلفة فضلا عن الصحائف المعدنية المصقولة وأدوات الزينة وأنسجة الصوف والكتان والجلود المدبوغة والأحجار الكريمة[٢]. وكان العرب يجلبون الخشب اللازم لصناعة سفنهم من الخارج فيصنعونها بأيديهم، كما كانت سفنهم تعود محملة بالعاج والتوابل والرقيق. وكان لإتساع التجارة مع أفريقيا أن أقام العرب جاليات لهم فى مدن الساحل الأفريقى[٣] وكان العرب المقيمون فيها يعلنون ولاءهم لمملكة حمير اليمنية.

كما كان العرب يحملون منتجات الحجاز ونجد إلى بلاد الشام حيث يتم تصديرها إلى مدن البحر المتوسط (الروم) بينما كانوا يعودون بالقمح والزبيب والزيت والحرير ونصال دمشق وتروسها المكفتة[٤]. وكانوا ينقلون التوابل من جنوبى شرق آسيا إلى سوق آيلة حيث يقبل عليها الرومان ويحملون منه كميات كبيرة.

كذلك اشتغل العرب بنقل الطيب الذى كان من أهم سلع التبادل التجارى مع مدن البحر المتوسط، وكان الروم يتهافتون على شراء الطيوب العربية المنتجة محلياً، بواسطة سكان سواحل البحر الأحمر (القلزم)، والبحر العربى حيث كانوا يستخرجون العنبر[٥]، والطيوب المجلوبة من المدن الآسيوية. كما كانت تصدر إلى مصر وأسواق بلاد الشام مادة البخور التى بلغ من عظم قيمتها أنها كانت تقيم بميزان الذهب، وذلك أن البخور كان له أهمية كبيرة لاستخدامه فى المعابد وحرقه للآلهة[٦]. كما ارتبطت بالطيب أيضاً تجارة

---

(١) المقريزى : البيان والإعراب، ص٤٢؛ Davidson : The lost cities, p. 190.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٨، ص١٣٦.

(٣) Davidson : Op. Cit., p. 174.

(٤) درمنجم : حياة محمد، ص٣٩.

(٥) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن، جـ٢، ص١٨٤؛ القوزينى : عجائب المخلوقات، ص٢٨١.

(٦) جواد على : المصدر السابق، جـ٨، ص٩٥.

اللبان التى كانت تشكل قسماً رئيسياً من تجارة الأجزاء الجنوبية من جزيرة العرب مع الهند[١] وأفريقيا[٢].

لما كانت عدن تقع على مقربة من مدخل البحر الأحمر(القلزم) جنوباً، فكانت تعد من أهم المرافئ العربية على المحيط الهندى فاتخذت مرسى للسفن الآتية من أنحاء آسيا وسواحل أفريقيا الشرقية، كما كانت ترسوا عليها السفن المحملة بمنتجات الدول الآسيوية، وهى إلى جانب ذلك نقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر، لذلك اهتم العرب المقيمون فيها بالتبادل التجارى على نطاق دولى واسع، فكان الرقيق الأفريقى يستبدل به فيها منتجات الصين الحريرية وخزفها المطلى، ومنسوجات كشمير والأباريز والخشب[٣]، كذلك كانت عدن التى أطلق عليها المقدسى اسم دهليز الصين[٤]، حلقة التبادل التجارى بين الهند ومصر.

كما اهتم العرب بالعلاقات التجارية مع مصر فأقام بعض العرب فيها واشتغلوا بجلب البخور والمر والعطور والصبر من المدن العربية والآسيوية عن طريق البحر الأحمر (القلزم)، وكانت القبائل العربية ترسل الوفود إلى مصر لتقديم الهدايا إلى المقوقس[٥]، كما اشتهر كل من عمرو بن العاص وعبدالله بن جدعان بالتجارة العربية المصرية[٦].

كانت هناك علاقات للتبادل التجارى بين النبط[٧] سكان البطراء التى تقع بين الشوبك ومعان فى الأردن، وبين التجار فى كل من مصر والشام وقلب الجزيرة العربية، فكان يتم تبادل الزيت والدرمك (الرقيق الأبيض) المجلوب من الشام إلى الحجاز والعراق، مقابل الأدم والتمر، كما كان الاتجار

---

(١) الدمشقى : الإشارة إلى محاسن التجارة، ص٢٢.

(٢) Davidson : The African Past, p. 115.

(٣) لوبون : حضارة العرب، ص ٥٥٤.

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم، ص٣٤.

(٥) سعيد الأفغانى : أسواق العرب، ص٢٥.

(٦) المسعودى : مروج الذهب، جـ١، ص٣٦٢.

(٧) النبط : أصلهم عربى من عمان، والنبط : لفظ يطلق على العرب الذين يجاورون أقاليم غير عربية ويتداخلون مع أهلها فكان هناك أنباط الروم وأنباط الفرس.

بالطيب والمر من أهم السلع التى يبادلونها. ومن ناحية أخرى عقد النبط اتفاقا مع رؤساء المعابد المصرية على توريد القار اللازم لعمليات التحنيط[١].

كما تعد العلاقات التجارية بين العرب والهند من أهم علاقات التبادل التجارى بين الشرق والغرب، فكان العرب يجلبون القرفة واللبان ويصدرونها إلى البلاد الأوروبية والشام ومصر، وكان العرب والهنود يتبادلون جلب السلع الهندية إلى الموانئ العربية. ثم تحمل السفن الهندية المنتجات الأفريقية من العاج اللازم للنرد والشطرنج، وقوائم السيوف اللازمة لهذه الصناعة التى اشتهرت بها الهند[٢].

قامت علاقات تجارية بين العرب والفرس عن طريق الحيرة وكان ملوك الحيرة من اللخميين يرسلون تجارتهم إلى أسواق مكة فى حماية القبائل العربية، وفى مقابل ذلك يرسل إليهم سادة قريش الأدم والصمغ والطيب والمنسوجات الحريرية والتبر، فضلا عن التمر والزيتون والبطيخ من منتجات الطائف. والقمح والحبوب من منتجات هجر وتهامة. ومن ناحية أخرى كان العرب يسمحون للقوافل الفارسية أن تجوب أراضيهم خلال رحلاتها التجارية إلى الشام ومصر فى مقابل أجور مادية أو عينية[٣] متفق عليها وذلك فى مقابل حراسة القوافل وضمان وصولها إلى أهدافها، فكان رئيس القبيلة يأخذ من لطائم الفرس مما تحمله من تجارات، أو يقدمون هم المقابل فى صورة هدايا وكان قصى يأخذ العشر ممن دخل مكة من غير قريش[٤].

جـ) المعاملات التجارية والمالية :

لم تكن المعاملات فى أنحاء الجزيرة العربية موحدة، ففى المدن شاع استعمال النقود المعدنية من الدنانير والدراهم، بينما اعتمد عرب البادية على المقايضة فى معاملاتهم التجارية.

---

(١) المقريزى : البيان والإعراب ص٨١.

(٢) Maqboul : Commercial relations, pp. 148-150.

(٣) ناد فى : التاريخ الجغرافى للقرآن ص١١٢.

(٤) المسعودى : مروج الذهب، جـ٢، ص٥٨.

كان العرب يتعاملون بالدنانير الذهبية المضروبة فى بلاد الروم والدراهم الفضية الساسانية، وكانت العملة الذهبية تعرف عندهم بالدينار أو التبر أو العين، بينما الفضية كانت تعرف بالدرهم أو الورق. وكانوا يتعاملون بوزن الدراهم التى كانت أكثر شيوعاً فى الاستعمال اليومى فأطلقت على النقود عامة، فكان الثمن إذا ذكر دون تمييز فهو يعنى القيمة بالدراهم. وكانت الدنانير توزن بصنج زجاجية بيزنطية.

استخدمت الحنطة ثمنا لبعض السلع المتداولة مثلها فى ذلك مثل النقود فى الحجاز كما استخدمت الذرة لنفس الغرض فى الجنوب[١]. وكانت الدنانير والدراهم تقيم بالحبوب فكان الدينار بخمس وستين حبة.

كان الدرهم الساسانى من الفضة الخالصة ويساوى ستة دوانق[٢]، بينما كان الدرهم الطبرى يساوى أربعة دوانق والمغربى ثلاثة، وكان الدرهم بوزن بستين شعيرة وعلى النقيض إذا ما كثرت الدراهم كانت توزن بالأوقية التى كانت تساوى أربعين درهما وبالنش وهو نصف الأوقية[٣]، وبالنواة التى كانت توزن بخمسة دراهم.

وإلى جانب الدنانير والدراهم استعمل العرب الفلوس، وهى عملات نحاسية محدودة القيمة تساعد على إجراء العمليات التجارية البسيطة[٤]، وتيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن.

ارتبطت المعاملات المالية بالصيرفة، ففى المراكز التجارية والأسواق ظهرت طائفة من المتخصصين فى وزن النقود وفرزها، وكان اليعاقبة فى بلاد مذحج باليمن ونجران وأهل ثقيف بالطائف يقومون بأعمال الصيرفة[٥]، وكان

---

(١) الشافعى : الأم، جـ٣، ص٨٦.

(٢) الدانق : عملة نحاسية قيمتها سدس درهم.

(٣) Lammens : La Mecque, p. 128.

(٤) عبدالرحمن فهمى : النقود العربية، ص١١.

(٥) الخربوطلى : تاريخ العراق، ص٣٦٣.

الصيارفة فى مكة وضواحيها يزنون السبائك والنقود الفارسية والحميرية[١]، ويعدون الدنانير الرومية[٢]، كما كان هناك طائفة بيثرب يحترفون الصيرفة ويعتبرونها نوعاً من الأعمال التجارية فيتعاملون بالذهب والفضة واستبدال مثيلاتها وكسورها بها وتحويلها إلى النقود المساعدة عند الحاجة إليها[٣]

ومما يجدر ذكره أن المقايضة استخدمت فى الأسواق الكبيرة والصغيرة على السواء ولم يقتصر استعمالها على بادية الحجاز وذلك أن العرب كانوا قد اشتهروا بفراستهم فى تقييم أنواع السلع المختلفة ومقابلتها بنظائرها، كما أن المقايضة كانت تدر عليهم أرباحاً أكثر من الشراء بالنقد والبيع، فضلا عن اختزال دور الوسطاء لأن المقايضة علاقة تجارية مباشرة بين طرفين يستغنى كل منهما عما يفيض عن حاجاته الأساسية. كما أن السلعة ذاتها تعتبر نقوداً للقيمة الاقتصادية الكامنة فى مادتها، ولها قوة النقد الشرائية[٤]، والمقايضة هى الثمن الذى يعد ترجمة نقدية لقيمة المبادلة[٥]. ولاشك أن المقايضة قد سبقت التعامل النقدى وهى الأكثر انتشاراً والأسهل فى التعامل التجارى.

كان الربا من وسائل التعامل المالى فى المجتمع العربى، وكان من أسباب الثروة عند كبار رجال المال، وكان المرابون يغالون فى تقدير فوائد قروضهم للمحتاجين حتى بلغت أضعاف الدين مما كان يتسبب عنه ضياع أموال الناس وحريتهم. وكان أحيحة بن الجراح أحد زعماء الأوس قد اشتط فى الربا المتعامل به مع قومه حتى كاد يحيط بأموالهم[٦]. وكان الربا منتشرا فى أرجاء الجزيرة العربية وبخاصة فى المدن. وقد نهى الإسلام عن التعامل به، ثم أمر الله تعالى بتحريمه تحريماً قاطعاً لآثاره المدمرة على حياة الناس ومعايشهم.

---

(١) الفاسي : التراتيب الإدارية، جـ١، ص٤١٤-٤١٥.

(٢) درمنجم : حياة محمد، ص٤٢.

(٣) الخزاعي : الدلالات السمعية، ص٦٤٤.

(٤) عيسى عبده : النقود والمصارف، ص٣٩.

(٥) سعيد النجار : نظرية الثمن، ص١١.

(٦) الأصفهاني : كتاب الأغاني، جـ١٣، ص١٨.

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾(١)، وقال تعالى : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾(٢).

كذلك كان السرار من وسائل التعامل التجارية عند العرب قبل الإسلام وذلك أن المتعاملين كانا يتفقان على ثمن للبيع فإن اختلفايفرض الثمن الذى يحدده أحدهما شريطة أن يخرج خاتمه قبل الآخر، فيقول «إن أخرجت خاتمى قبلك فهو بيع بكذا، وإن أخرجت خاتمك قبل فبكذا، فإن أخرجاه معاً عادا فى الإخراج»، وقد اشتهرت عكاظ بهذا النوع من التعامل(٣).

كما تعامل عرب البادية فى الأسواق ببيع الجزاف، وكان التاجر يشترى الحبوب أو التمر على هيئته دون أن توزن أو تكال وكانوا إذا تبايعوا أو ابتاعوا لحما أو سمنا أو غيره لم يتبايعوه إلا جزافا، وكذلك الحال يتبايعون العسل والزبد واللبن وعامة الرطب إنما يبتاع فى سلال جزافا(٤)، ويرتبط ببيع الجزاف الثنيا، وذلك ببيع السلعة كاملة على حالتها باستثناء جزء مجهول منها يحدده البائع بعد إتمام البيع، وقد نهى عنه الرسول ﷺ(٥).

عرف نظام البيع بالمزايدة فى بلاد العرب فكان الرجل يأتى بسلعته يعرضها للبيع فى مزاد، فيتنافس طلابها برفع السعر ويأخذها صاحب أكبر ثمن(٦). كما اشتهر بينهم بيع المعاومة، وهو بيع تمر النخيل لسنوات قادمة،

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٣١).
(٢) سورة البقرة : آية (٢٧٥-٢٧٦).
(٣) سعيد الأفغانى : أسواق العرب، ص٥٤.
(٤) الشافعى : الأم، جـ٣، ص١٣.
(٥) ناصف : التاج الجامع للأصول، جـ٢، ص١٢٦.
(٦) مسلم : صحيح مسلم، جـ٣، ص١٧٤.

وقد نهى عه الإسلام لأنه بيع مجهول غير مقدور، وكذلك كان هناك بيع المشروط، وذلك أن الرجل كان يبيع الشيء مع فرض شرط يكون جزءاً من الصفقة كأن يقول بعتك الثوب شريطة أن أخيطه لك أو أصبغه. وقد نهى الإسلام عنه[١]، لأنه كان يفقد المشترى سيطرته على السلعة بعد شرائها. فقد كان البائع يشترط فى بعض الأحيان عدم بيع السلعة أو هبتها للغير، أو يشترط البائع الحصول على سلعة من المشترى دون إرادته.

كما اشتهر بين العرب التعامل بضرب الحصى فكان المشترى يعترض القطيع من الغنم فيأخذ حصاة ويرمى بها، فأى شاة أصابتها الحصاة كانت له[٢]، وهذا النوع من التعامل كان فيه غبن بالبائع والمشترى على السواء، فإن أصابت الحصاة شاة ثمينة كان الغبن على البائع، وإن أصابت عجفاء كان على المشترى. ومن ناحية أخرى كان الرجل يشترى أرضا بمبلغ من المال ويحددها بنهاية ما تصل إليه الحصاة التى يقذف بها، كما كان البائع يبيع السلعة بعدد من الدراهم يحدد وفق ما يقع فى قبضته من الحصى ثم يقبض على حفنة من حصباء الأرض[٣].

وكان العربان يعنى شراء السلعة بدفع جزء من ثمنها مقدما، فإن لم يرجع المشترى فى الأجل المحدد لاستكمال باقى الثمن صار البائع فى حل من بيع السلعة ويكون له العربان. وكان الكالى بالكالى مشابهاً للربا، وهو مأخوذ من كلىء الدين إذا تأخر، فكان الرجل يشترى السلعة إلى أجل فإذا حل الأجل ولم يجد ما يقضى به فيقول بأجل آخر بزيادة شئ فيبيعه ولا يجرى بينهما تقايض[٤].

أما التعامل بالمنابذة فكان الرجل ينبذ ثوبه وينبذ الآخر إليه ثوبه فيتم البيع من غير نظر ولا تراض[٥]، والمزابنة هى بيع التمر بالكيل إن زاد فلأحد

---

(١) الشوكانى : نيل الأوطار، جـ٥، ص٢٠٣.

(٢) ابن القيم الجوزية : زاد المعاد، جـ٤، ص ٢٦٦.

(٣) ابن ماجة : سنن ابن ماجة، جـ٢، ص٧٣٩.

(٤) الصنعانى : سبل السلام، جـ٣، ص٤٥.

(٥) ناصف : التاج الجامع للأصول، جـ٢، ص٢٣٢.

المتعاملين وإن نقص كان عليه، تحت العجز والزيادة. ومنه أيضاً بيع التمر بالتمر في رؤوس النخيل[1]، والثمار في أشجارها وهو ما يعرف بالمخاضرة.

وكان هناك أيضاً بيع المضامين والملاقيح وحبل الحبلة، والمضامين ما في ظهور الجمال، والملاقيح وهو ما في بطون الإناث، وحبل الحبلة الجنين في بطن الدابة. وقد نهى الرسول ﷺ عن المزابنة والخاضرة والمضامين والملاقيح لأنه تعامل بالغش[2].

كما نهى الإسلام عن بيع المصراه والنجش وتلقي الركبان، والتصرية هي ربط أخلاف الشاة أو الناقة وترك حلبها حتى يجتمع لبنها فيكثر، حتى يخدع المشترى بأن ذلك عادتها فيزيد في ثمنها، وصربت اللبن في الضرع إذا جمعته. والنجش أن يحضر الرجل إلى السوق ويوهم الناس أنه يريد شراء الشئ وهو لا يريد فيقتدى به الناس فيزيد في ثمنها حتى يزداد إلى أكثر من قيمتها الحقيقية فهو تضليل عن الثمن المستحق. وكان تلقي الركبان بأن يعترض الرجل طريق الباعة من البدو قبل أن يصلوا إلى السوق فيوهمهم بسعر أقل مما تستحقه سلعهم ويعرض عليهم شراء السلعة ويوفر عليهم ما بقى من الطريق وبهذا يظفر بسعر أقل، مما يعرض أصحابها إلى خسارة مادية. وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن المناجشة فقال صلى الله عليه وسلم : «لا تناجشوا». كما نهى عن تلقي الركبان فقال صلى الله عليه وسلم : «لا تلقوا السلع»[3]، وقال صلى الله عليه وسلم : «لا يتلقى الجلب»[4]، أى المجلوب من بلد إلى آخر للتجارة.

كانت المضاربة من وسائل التعامل التجارى عند العرب قبل الإسلام، فكانت المضاربة عندهم حول ارتفاع أثمان بعض أنواع السلع وانخفاضها،

---

(١) الشافعى : الأم، جـ٣، ص٣٠٦.

(٢) السمهودى : وفاء الوفاء، جـ١، ص٥٤٦.

(٣) الشافعى : المصدر السابق، جـ٣، ص٨٢.

(٤) الشوكانى : نيل الأوطار، جـ٥، ص١٨٨.

وحول القوافل وصولها وتأخرها، وحول الزروع وثمارها وقد أدت المضاربات إلى اضطرار عبد الله بن جدعان أحد أثرياء مكة إلى عدم إيفاء ديونه بعد أن كان يرسل المنادين لدعوة الناس إلى ولائمه[١]، وكان حكيم بن حزام يعقد الصفقات فى المحاصيل قبل نضجها اعتماداً على مهارته فى تقدير ما سوف تكون عليه أثمانها عند انعقاد الأسواق وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك[٢]، وعن كل وسيلة من وسائل التعامل المالى والتجارى التى قد تجر ضرراً على الناس كما نهى صلى الله عليه وسلم عن الغش ووسائله وكافة أشكاله، فقال صلى الله عليه وسلم : «من غشنا فليس منا»[٣].

---

(١) درمنجم : حياة محمد، ص٤٤.

(٢) الشافعى : المصدر السابق، جـ٣، ص٨٣.

(٣) ابن القيم الجوزية : زاد المعاد، جـ٤، ص٢٣٩.



الفصل التاسع

الحياة الاجتماعية

١ – طبقات المجتمع.

٢ – الأسرة العربية :

أ) الزواج والطلاق.

ب) المرأة العربية ودورها فى المجتمع.

٣ – صفات العرب ومناقبهم.

٤ – العادات والتقاليد.



الحياة الاجتماعية

١ - طبقات المجتمع

كان المجتمع العربى قبل الإسلام يتألف من طبقات ثلاث تأثرت فى تشكيلها بالحالة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية والأصل الذى ينتمى إليه أصحاب كل طبقة فكان هناك الصرحاء الأحرار أبناء القبيلة[١] ، الذين يجمع بينهم الدم الواحد والنسب العريق والجد المشترك، وهم الذين كانوا يمثلون الطبقة العليا، أصحاب المنزلة الاجتماعية الرفيعة، فكانوا يتمتعون بالحرية والاستقرار والأمان فى ظل حماية القبيلة، فإذا ما ارتكب أحدهم إثماً أو جر على قبيلته وبالا، كان أفراد القبيلة يتضامنون لنصرته ظالما كان أو مظلوما، فامتلأ قلبه بالفخار والثقة الزائدة بالنفس التى جعلته لا يتردد فى استعمال حق الأحرار فى واحد من أهم مظاهر الشرف والرفعة فى هذا المجتمع وهو الإجارة[٢]، فكان يدخل الجار فى حمايته ويلزم قبيلته بذلك والدفاع عنه بل والقصاص ممن قد يتعرض له بالأذى، مما عرض القبائل لكثير من المشكلات وفرض عليها مسئوليات وتضحيات عديدة[٣]، وكان المجير يعلن الإجارة على الملأ فى صراحة تامة بقوله : «قد لزمنى ذمامك وأنا مانعك مما أمنع منه نفسى وأهلى وولدى»[٤]، وكان أبناء الطبقة العليا هم أصحاب الأموال الذين تتركز فى أيديهم الثروات الطائلة، فمنهم السادة التجار، وأصحاب الإقطاعيات الكبيرة فى المدن والمناطق القابلة للزراعة، والرعى وكان أثرياء البادية يملكون ألوفاً من الإبل فضلا عن مساحات كبيرة من مناطق

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٥، ص٢٢٩.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٣-٢٤.

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف، جـ١، ص٧٤.

(٤) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ٢، ص١٢٦.

ويرجع القول السابق إلى هانئ بن مسعود، سيد بنى شيبان حين أجار النعمان بن المنذر.

الرعى، وقد أثر التغلغل المادى فى نفوس أصحاب هذه الطبقة، وظهرت آثاره فى الديات، فبينما كانت دية الحر الشريف تصل إلى الخمسمائة والألف من الإبل[١] كانت دية غيره من أتباع الطبقات الأخرى لا تكاد تصل إلى نصف قيمة ما تبلغه دية الحر العريق.

كانت الطبقة المتوسطة تتمثل فى صغار التجار وأصحاب الإقطاعيات المحدودة ولما كانوا يعتبرون فى منزلة أقل من السادة الكبار؛ اجتماعياً واقتصادياً، لذلك ارتبطوا بهم وداروا فى فلكهم، ومنهم أيضاً الخلعاء الذين نبذتهم قبائلهم لتصرفاتهم الشائنة وخروجهم على تقاليدها الموروثة. ويرجع انتماؤهم إلى أبناء هذه الطبقة لأنهم كانوا صرحاء عريقو النسب فقلت درجتهم الاجتماعية بعد خلعهم وانضمامهم إلى قبائل أخرى. ذلك أن الخليع يلحق بعشيرة من غير قومه يستجير بأحد رجالها فيجيره ويحميه ويصير له من الحقوق ما لسائر أفراد العشيرة وعليه ما عليهم من واجبات فمن ذلك أن المقداد كان رجلا من بنى البهراء فسفك فيهم دما، وهرب إلى كندة وانتسب إليها، ثم عاد فسفك فى العشيرة الجديدة، وهرب إلى مكة حيث تبناه الأسود الزهرى فصار يعرف بالمقداد بن الأسود الزهرى[٢]. وكانت العشائر إذا خلعت رجلا من أبنائها أشهدت على ذلك فى الأسواق والمجتمعات العامة، فخلعت خزاعة، قيس بن الحدادية بسوق عكاظ لأنه كان على الرغم من شجاعته، فاتكا صعلوكا خليعا، وأشهدت على نفسها بخلعها إياه، فلا تسأل عن جريرة له ولا تطالب بجريرة أحد عليه[٣].

ومن ناحية أخرى، كان الرجل إذا نفاه قومه ولم يجد من يجيره خرج إلى الصحراء هائماً على وجهه[٤]، وراح يجمع حوله عصابة من أمثاله من الشذاذ والفتاك للإغارة على القوافل والأحياء. كما فعل قيس بن الحدادية،

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٥، ص١٤٨.

(٢) ابن عبد ربه : المصدر السابق : جـ٢، ص٧٢.

(٣) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ١٣، ص٢.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٠٢.

الذى جمع شذاذا من العرب وفتاكا من قومه أغار بهم على قافلة من قومه وقتل رجلا، واستاق أموالهم آخذاً بثأر خلعه ونبذهم له وتعييرهم بنفيه من قبيلته[١].

كان العتقاء ينتمون إلى الطبقة المتوسطة أيضاً والمعتق كان عبداً، فصار بالعتق حراً، فارتقى من الطبقة الدنيا إلى المتوسطة، بينما لا يرتقون إلى العليا لعدم توفر صلة النسب العربى الحر الأصيل. لذلك كان المعتق فى كثير من الأحيان يظل مرتبطاً بالمعتق بل وينتسب إليه فكان يقال زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ أى عتيقه[٢]. بينما كان المعتد ينتسب إلى القبيلة التى منحته حريته فيقال مولى بنى هاشم[٣].

كان بعض الموالى يخلص لسيده، فيثق به ويمنحه حرية التصرف المطلقة فى أمواله، فمنحت السيدة خديجة بنت خويلد غلامها ميسرة وكالة أموالها وإدارتها. كما منح النبى ﷺ كركرة النوبى، الذى كان هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة قد أهداه إليه، ثقته فجعل له زمام دابته أثناء القتال وحراسة عياله فى وقت السلم والنفقة على من تلزمه نفقتهم.

لما كان الولاء يباع عند بعض القبائل العربية، فكان الرجل يبيع العبد دون الولاء، فلما جاء الإسلام جعل الولاء لمن أعتق. وكان هناك العتق مع تعليق الحرية الكاملة إلى ما بعد وفاة المعتق، فيضمن بذلك تفانى العبد فى خدمة سيده طيلة حياته. كما عرفت المكاتبة من مظاهر العتق وهى العتق مقابل المال المقسط. قال أبو سعيد المقبرى اشترتنى امرأة من بنى ليث بسوق ذى المجاز بسبعمائة درهم فكاتبتنى على أربعة آلاف درهم، فأذهبت إليها بعامة المال[٤]، كما كان العبد يكافأ بالعتق إذا أبلى بلاء حسنا فى الحرب، فحصل

---

(١) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ١٣، ص٢.

(٢) مسلم : صحيح مسلم، جـ٥، ص٨٢.

(٣) الأصفهانى : المصدر السابق، جـ٧، ص١٨٨.

(٤) الشوكانى : نيل الأوطار، جـ٦، ص١٠٤-١٠٥.

وحشى، قاتل حمزة بن عبدالمطلب على حريته بعد أن قام بتنفيذ رغبة هند بنت عتبة زوج أبى سفيان[١].

على أن بعض الأثرياء كان يشترى العبد ثم يعتقه تقرباً إلى الله فى الجاهلية، ومن أشـهرهم حكيم بن حزام الذى قيل أنه أعتـق مائة رقبة فى الجاهليـة ومثلها فى الإسـلام[٢]، كما أن معد يكرب بن سلامة بن تغلـب لم يأتـه قـط أسير إلا فكه ومنحه الحرية الكاملة[٣].

ولما كانت غالبية المعتقين لا يجدون سبيلا للعيش بعد حصولهم على حريتهم لأن المعتق لم يكن ليستطيع العيش منفرداً فى مجتمع الصحراء القاسى، فكان يظل تابعاً لمعتقه على رضى منه، فيمحه شرف البنوة بالتبنى تطييباً لنفوسهم وإظهاراً للشفقة. فلما جاء الإسلام أبطل التبنى وردهم إلى آبائهم، قال تعالى : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم﴾[٤].

كان المستجيرون من غير الخلعاء ينتمون أيضاً إلى أبناء هذه الطبقة وكان الجوار يتم بلمس الخيمةأو الاحتماء بها فى البادية وبدخول البيت فى المدن[٥] وقد ظل الجوار معمولا به فى الإسلام. بعد أن أبقى على هذا التقليد الرفيع من تقاليد العرب قبل الإسلام. قال تبارك وتعالى : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾[٦].

كانت الطبقة الدنيا هى طبقة السواد الأعظم من الفقراء المعدمين والأرقاء، فكان لكل قبيلة عدد كبير من العبيد السود والبيض والمولدين، فهم

---

(١) الميدانى : مجمع الأمثال، جـ١، ص٢٢.

(٢) الشافعى : كتاب الأم، جـ٣، ص١٤١-١٤٢.

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٣٠٣.

(٤) سورة الأحزاب : آية (٥).

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٥، ص٢٢٤.

(٦) سورة التوبة : آية (٦).

القوة المنفذة لرغبات السادة في الصحراء، والآلات اللازمة لحركة الحياة وسد حاجات المجتمع في المجالات الاقتصادية المختلفة من زراعة وتجارة ورعي وصناعات حرفية. وكان الأسر هو المورد الأساسي لتزويد القبائل بالعبيد ذلك أن الأسير يصير ملكا لآسره إن لم يدفع الضريبة، فيستخدمه أو يعرضه للبيع، كما تخصص بعض التجار الجبارين في الحرابة المسلحة لجلب العبيد إلى أسواق النخاسة التي كانت تدر عليهم أرباحاً طائلة، فضلا عن تربص بعض الجماعات على طرق تحرك القوافل والأفراد للإغارة عليها وسرقة أموالها وأسر أفرادها، فمن ذلك أن سلمان الفارسي أسر خلال رحلته من العراق إلى الشام[1]. وكان العبيد والإماء السود يجلبون من شواطئ أفريقيا وينقلون إلى أنحاء الجزيرة العربية لبيعهم للسادة الأثرياء فكان بنو مخزوم من قريش يملكون أعداداً كبيرة منهم[2]، بينما كان الرقيق الأبيض يجلب من بلاد الفرس والروم عن طريق الشام والعراق.

كان أبناء الطبقة الدنيا محرومين من كافة الحقوق الآدمية مع تحملهم لمسئوليات والتزامات شاقة، وذلك في ظل ظروف لا آدمية وحياة ملؤها المذلة والمهانة وكانوا يشتغلون بالحرف التي كان العربي يأنفها ويزدريها فمنها، الحجامة والنجارة والحدادة، والخدمة بالمنازل حيث الاحتطاب والطهي والخبز والطحن، وجلب علف الماشية والرعي والحلب[3] واستقاء الماء وأعمال النظافة. وكان السادة العرب لا يطعمون العبيد معهم، وإنما يأكلون بعد الضيوف ما يفي، لذلك أوصى النبي ﷺ أن يطعم العبد مما يصنع بيديه.

أما الإماء والجواري فكان عدد كبير منهن يشتغلن بالغناء والبغاء كارهات فضلا عن قيامهن بما يقوم به العبيد، فكان لعبد الله بن أبي بن سلول - زعيم الخزرج في يثرب - جوار يفرض عليهن ضرائب، وفي مكة

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان، جـ١ ، ص٤٨٧.

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٣، ص١٢.

(٣) قال عنترة بن شداد العبسي : العبد لا يعرف الكر وإنما يعرف الحلاب والصر، والحلب ليتا من الآخرين.

أنظر، المرتضى : أمالي المرتضى، ص٥٦-٥٧.

كانت إماء عبدالله بن جدعان يدرن عليه أموالا عظيمة من احتراف البغاء. وقد نهى الإسلام عن إكراههن على البغاء فقال تبارك وتعالى : ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾[١]. وكان العرب يفضلون بيع الأمة التي تتمتع باحتراف الرقص والغناء رغبة في ثمنها على الاستمتاع بها[٢] لأن الأمة التي تجيد الغناء كانت أغلى ثمنا، فكان الاتجار بها يعد صفقة رابحة وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك بقوله : «لا تبيعوا المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن (الغناء) ولا خير في التجارة فيهن وثمنهن حرام»[٣].

لما كان أبناء هذه الطبقة معدمين لا يملكون شيئا ولا يجدون حتى قوت يومهم لذلك ارتبطت حياتهم ومقدراتهم بسادتهم تبعية مطلقة تجلت في الاعتقاد الديني والإيمان الروحي. وقد صور القرآن الكريم ذلك ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل﴾[٤].

كان من أهم الآثار التي ترتبت على التفاوت الكبير بين السادة والفقراء أن اشتدت الكراهية بين أبناء الطبقتين مما اضطر بعضهم إلى الهرب من هذا الجحيم إلى الصحراء، فيتربصون بالقوافل على الطرق التجارية ويقومون بالفتك والقتل والسلب والنهب. ولاشك أن الأثرياء كانوا يمثلون العامل الأساسي لهذه الظاهرة في مجتمع ما قبل الإسلام، وهم الذين كانوا يتحملون تبعاتها. وقد صور القرآن الكريم هذا الوضع الاجتماعي المتردي الناجم عن اختلال التوازن الاقتصادي في قوله تبارك وتعالى : ﴿بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما﴾[٥].

---

(١) سورة النور : آية (٣٣).

(٢) الشوكاني : نيل الأوطار، جـ٥، ص٢٣٢.

(٣) ناصف : التاج الجامع للأصول، جـ٢، ص٢٣٦.

(٤) سورة الأحزاب : آية ٦٧.

(٥) سورة الفجر : الآيات (١٧-٢٠).

٢ - الأســرة العربيــة

أ) الزواج والطلاق :

لم تقتصر أنواع الزواج والطلاق التى شاعت فى الجزيرة العربية قبل الإسلام على العرب وحدهم، بل عرفت عند كثير من الشعوب السامية الأخرى[١] ، ولم تكن بعض الزيجات الشاذة التى تواترت أخبارها فى المصادر العربية مرحلة بدائية فى طور السلم الاجتماعى البشرى، كما يزعم بعض علماء الاجتماع[٢]، وإنما الدافع لها يرجع إلى بعض الأوضاع الاجتماعية والأحوال الاقتصادية فضلا عن أثر الطبيعة الصحراوية[٣]. فكانت ظاهرة استثنائية فرضتها ظروف خاصة.

كان الزواج السائد فى المجتمع العربى قبل الإسلام هو ذلك النوع الطبيعى الذى يتمشى مع الحاجات الاجتماعية الأساسية للإنسان والسلوك الفطرى له، وقد أقره الإسلام بعد أن قام بتهذيبه ووضع الضوابط التى تحكمه، إلا أن أنواعا أخرى عرفت فى أنحاء الجزيرة العربية.

يعد زواج البعولة أو تعدد الزوجات أكثر أنواع الزواج شيوعا فى الجزيرة العربية بعد أن وجد قبولا واستحسانا من أبنائها، وكان هذا النوع مباحا عند مختلف الشعوب وعند كافة الأديان. ولايزال زواج البعولة معمولا به عند معظم القبائل البدائية وبخاصة فى أفريقية يقول الرحالة (Lowie) : «نظام تعدد الزوجات بدون عدد محدود، ماتزال قبائل أفريقيا الهمجية تمارسه ويتوقف عدد الزوجات عندهم على مكانة الرجل فى القبيلة، فقد يتزوج خمسا أو عشرا أو عشرين أو حتى ستين، ويعتبر ملك قبيلة الأمازون جميع نساء القبيلة زوجاته[٤].

---

(١) Rivers : Social Organization, p. 15.

(٢) Lowie : Primitive Society, p. 46, Rivers : Op. Cit., p. 43.

(٣) Ellwood : The Psychology of Human Society, p. 214.

(٤) Lowie : Primitive Society, p. 39.

على الرغم من انتشار زواج البعولة بين العرب، إلا أن كثيراً منهم اتخذ زوجة واحدة بسبب ضيق ذات اليد أو بدافع الرغبة فى ذلك، أو لاشتراط الزوجة الأولى عند العقد عليها لذلك كان زواج البعولة يشكل عبئا ماديا ثقيلا على الرجل إلا أن تعدد الزوجات كانت له ضرورة اجتماعية من أجل زيادة النسل وكثرة الذرية فى القبيلة، لما عرف عنهم من التباهى والتفاخر بالحرث والنسل. على أن حرص الرجل الزواج من بنات قبيلته لم يمنع الاقتران بأخريات من غير قبيلته[١]. وقد أقر الإسلام هذا النوع من الزواج مع تحريم الجمع بين أكثر من أربع زوجات، واشترط فى ذلك وجوب العدل بينهن أو اتخاذ زوجة واحدة. قال تعالى : ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾[٢].

كذلك عرف زواج الشغار فى بلاد العرب وهو يقوم على المبادلة فيزوج الرجل ابنته أو أخته على أن يزوجه الآخر ابنته أو أخته بدون مهر. ويدل هذا النوع من الزواج على مدى ولع العرب بالتجارة وحبهم للبيع والشراء فالمبادلة هى أبسط أنواعها. وكانوا يعتبرون الفتيات من البنات والأخوات رأس مال يمكن بحسن استخدامه أن يزيد من الأموال أو المكانة الاجتماعية فقد كان يترتب عليه عقد المحالفات والانتساب إلى عشيرة تتمتع بمنزلة رفيعة بين القبائل. وكان يتم بقول الرجل للآخر : شاغرنى (زوجنى) أختك أو بنتك أو من تلى أمرها حتى أزوجك أختى أو بنتى أو من إلىّ أمرها.

كان زواج المقت أو الزواج بالميراث من أنواع الزواج غير الشائع عند العرب، وفيه يتزوج الإبن الأكبر زوجة أبيه المتوفى، على اعتبار أنها جزء من الميراث مثلها فى ذلك مثل الأمتعة والأموال[٣]. وذلك للحفاظ على ثروة الأسرة والعشيرة ومن بينها الزوجة والأولاد. وكان الوريث إذا كره نكاح زوجة

---

(١) Smith : Kinship and Marriage, p. 61.

(٢) سورة النساء : آية (٣).

(٣) Lowie : Primitive society, pp. 30-31.

أبيه نصب نفسه ولياً عليها، فمنعها من الارتباط بغيره حتى وفاتها[١]، قال البخاري : «إن الرجل إذا مات كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها»[٢]. وتدل تسميته بزواج المقت على عدم انتشاره، لأنه كان ممقوتا عند الأغلبية[٣]. وكان يعرف أيضاً بالنكاح العضل، لأن الوارث يحق له أن يعضلها أى يمنعها من الزواج. وكان الرجل يطرح ثوبه على الأرملة لإثبات حقه في أن يمتلكها ضمن الميراث، ويقابل ذلك خلع النعل إذا تنازل الوارث عن حقه في نكاحها، فكان الخلع بمعنى التنازل ومنحها حريتها. وظل زواج المقت أو العضل قائماً حتى حرمه الإسلام. فلما جاءت كبيشة بنت معن بن عاصم الأوسى إلى رسول الله ﷺ واشتكت إليه إبن زوجها قائلة :«يا رسول الله إن أبا قيس توفى فورث ابنه نكاحي، وقد أخذني وطول على فلا هو ينفق على ولا هو يخلى سبيلى»، فقال لها رسول الله ﷺ «اقعدى في بيتك حتى يأتى فيك أمر الله عز وجل». فنزلت الآية الكريمة : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما أتيتموهن﴾[٤]. كما حرم القرآن الكريم نكاح زوجة الأب تحريماً مطلقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾[٥].

كذلك عرف في بلاد العرب زواج الرهط أو زواج المشاركة وهو تعدد الأزواج. ولاشك أنه كان يختلف عن الشيوعية الجنسية التى انتشرت بين أفراد بعض القبائل البدائية. لأن زواج الرهط كان يفرض التزامات ويوجب حقوقاً يلتزم بها المشاركون في المرأة. ومن الجدير بالذكر أن هذا النوع كان نادراً في جزيرة العرب وإنما فرضته بعض الظروف الاقتصادية والاجتماعية فمن ذلك قلة عدد النسل[٦] وبخاصة عند القبائل التى شاع عندها عادة وأد البنات،

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن، جـ٥، ص٩٤.

(٢) القسطلانى : إرشاد السارى، جـ٦، ص٢٨٨.

(٣) الألوسى، بلوغ الأرب، جـ٢، ص٥٢.

(٤) سورة النساء : آية (١٩).

(٥) سورة النساء : آية (٢٢).

(٦) Westermarck; History of Human Marriage, p. 472.

أو للظروف الاقتصادية التى تفرض اشتراك عدة أخوة فى الزواج بامرأة واحدة. وكان الأزواج جميعاً متساوين فى الحقوق الزوجية، إلا أن الأبوة الرسمية كانت تحددها المرأة نفسها[١]. وكان الأخوة يتفقون فيما بينهم على وضع عصا على باب الخيمة فيمتنع الآخرون عن دخولها. وفى الليل كانت الزوجة من نصيب الأخ الأكبر[٢]. ويدل على وجود هذا النوع من الزواج عند العرب قبل الإسلام، قول السيدة عائشة رضى الله عنها «زواج الرهط أن يجتمع الرجال ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم قد عرفتم الذى من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل»[٣].

كان هناك نوع آخر من زواج المشاركة يعرف بنكاح الاستبضاع، وكان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من الطمث أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ثم يعتزلها لا يمسها حتى يتبين حملها من الرجل الذى استبضعت منه، وكانوا يفعلون ذلك رغبة فى نجابة الولد[٤] أو المرجح أن الرجل كان يستثمر أمته وليس زوجته للحصول على ذرية قوية لمعاونته فى القيام بأعماله أو للمبادلة والاتجار فيهم.

يتفق نكاح الخدن مع النوع السابق من حيث اتخاذ الرجل خدنا لجواريه لمصاحبتهن ومؤانسة وحشتهن، وقد نهى الإسلام عن الأخدان فى قوله تعالى : ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾[٥]، وفى قوله تبارك وتعالى : ﴿إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان﴾[٦].

---

(١) Smith : Kinship and Marriage, p. 145.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص٢٦٠.

(٣) القسطلانى : إرشاد السارى، جـ٦، ص١٢٧.

(٤) Smith : Kinship and Marriage, p. 100.

(٥) سورة النساء : آية (٢٥).

(٦) سورة المائدة : آية (٥).

وكما كان يجتمع الأخوة على الزواج من امرأة واحدة، كان الرجل يجمع بين الأختين أو أكثر في وقت واحد. وقد حرم الإسلام هذا النوع كما جاء في قوله تعالى : ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيما﴾(١).

كان النكاح بالأسر من أشهر أنواع الزواج المعروف عند العرب، ذلك أن السبي كان أحد الأغراض الأساسية من الحروب والغارات. وكانت المرأة المأخوذة بالسبي تعرف بالنزيعة، لانتزاعها من أهلها وفصلها عنهم، وكان فرسان العرب يفتخرون بخطف النساء وأسرهن. ومن أهم ما يتميز به أنه لا مهر فيه ولا ثمن لأن السيف قد كفاهم ذلك قال حاتم الطائي(٢) :

وما انكحونا طائعين بناتهم ... ولكنا خطبناها بأسيافنا قسرا

فما زادها فينا السباء مذلة ... ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا

ولكنا خلطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا

لما جاء الإسلام أحل سبايا الحروب وجعلهن ملك يمين، ووضع الضوابط المنظمة لذلك فصارت الأسيرة لا تباع ولا تفتدى بمالها بمجرد ظهور حملها، وكان ولدها يولد حراً ويرث أباه، بينما كانوا لا يورثون الهجين(٣).

ومجمل القول أن الإسلام قد حرم الأنواع المختلفة من الزيجات الشاذة في آية جامعة من سورة النساء، فقال عز من قائل : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فإن لم تكونوا دخلتم بهم فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد

---

(١) سورة النساء : آية (٢٣).

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص٢٩٧.

(٣) ابن عبد ربه : المصدر السابق.

سلف. إن الله كان غفوراً رحيما﴾[١]، ومما يجدر ذكره أن أنواع المحرمات التى تضمنتها الآية الكريمة لم تكن على إجمالها شائعة عند العرب فى الجاهلية مثل الزواج من الأمهات أو البنات. إنما أشار إليها القرآن الكريم لأنها كانت متبعة عند بعض الشعوب الأخرى وقد وردت فى الآية الكريمة لأن الدين الإسلامى أرسل للبشر كافة ولم يقتصر على العرب والقرآن الكريم يخاطب الناس جميعاً فى كل مكان وزمان.

كان العرف العربى يعترف للرجل بحق تسريح زوجته، وكانت أشهر صيغ الطلاق، «حبلك على غاربك»، أى خليت سبيلك فاذهبى حيث شئت، أو يقول الرجل «فارقتك أو سرحتك» أو «عودى إلى أهلك أو ارجعى إلى أبيك» أو أن يقول لها «الحقى بأبيك» فمن ذلك أن الفاكه بن المغيرة المخزومى، أحد فتيان قريش، كان قد تزوج هند بنت عتبة، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن، فقال (نام) يوماً فى البيت وهند معه ثم خرج عنها وتركها نائمة، فجاء بعض من كان يغشى البيت، فلما وجد المرأة ولى عنها. فاستقبله الفاكه بن المغيرة فدخل على هند وأنبها. وقال من هذا الخارج من عندك؟ قالت والله ما انتبهت حتى أنبهتنى، وما رأيت أحداً قط، قال الحقى بأبيك[٢]. وكان الطلاق يصبح بائنا إذا تكرر ثلاث مرات فى فترة زمنية معلومة. وكثيراً ما كان الزوج يسرح امرأته مرة أو مرتين ثم يستردها فيضطرها بذلك إلى البقاءمرتبطة به إلى أجل غير محدود. وذكر المؤرخون أن العرب أوجدوا ما يعرف بالمحلل، وهو الرجل الغريب يعقد له على المطلقة ثم يطلقها بعد العقد مباشرة لإعادتها إلى زوجها الأول. وكان هذا التحايل مذموماً عندهم، فأطلقوا على المحلل اسم التيس المستعار[٣]، وقد أقر الإسلام الطلاق ثلاث مرات ولا تحل لزوجها حتى تنكح زوجا غيره. قال تعالى ﴿الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما اتيتموهن شيئا

---

(١) سورة النساء : آية (٢٣).

(٢) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ١٦، ص٧٧.

(٣) البيهقى : السنن الكبرى، جـ٧، ص٢٠٧.

إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾[١].

يعد الظهار من أشهر أنواع الطلاق الذى انتشر بين العرب قبل الإسلام، وذلك أن يشبه الرجل زوجته بمحرم عليه تأبيداً، كأن يقول لها أنت عليّ كظهر أمى أو كبطنها أو كظهر أختى أو عمتى، فيقع بذلك الظهار وقد نهى الإسلام عن الظهار وأوجب الكفارة علي من ظاهر امرأته، قال تعالى : ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به، والله بما تعملون خبير. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا﴾[٢].

أما طلاق الايلاء فكان يعنى تحديد فترة زمنية للفراق بين المرء وزوجه لا يقترب منها خلالها، وكان ايلاء العرب قبل الإسلام السنة والسنتين فجعله الإسلام أربعة أشهر. قال عز وجل : ﴿والذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾[٣].

وكان هناك طلاق الخلع وذلك بأن تفتدى الزوجة نفسها على مال تدفعه إلى الرجل مقابل تخلية سبيلها وجرت عادتهم أن يكون هذا التعويض مساوياً لقيمة المهر الذى سبق أن قدمه الزوج. ومن ناحية أخرى كانت الزوجة تتعرض فى بعض الأحيان إلى إهمال الرجل فلا يراجعها ولا يطلقها، ويظل مفارقاً لها حتى ترضيه بدفع شئ له، وهو ما يعرف بالطلاق العضل، وكان

---

(١) سورة البقرة : ٢٨-٣٠.

(٢) سورة المجادلة : الآيات (٢-٤).

(٣) سورة البقرة : الآيتان (٢٢٦-٢٢٧).

الرجل ينكح المرأة الشريفة الثرية، ثم يفارقها حتى توافقه على شئ يطلبه وإلا عضلها[١]. وقد نهى الإسلام عن ذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾[٢].

على الرغم من أن الطلاق كان من حق الرجل إلا أن بعض النسوة كان لهن هذا الحق ومن بينهن سلمى بنت عمر بن زيد بن لبيد الخزرجية، وعاتكة بنت مرة، وفاطمة بنت الخرشب الانمارية[٣] وكانت المرأة تتخذ وسيلة رمزية لتعبر بها عن فصم عرى الزواج، فتقوم بتحويل فتحة الخيمة المؤدية إلى خدرها إلى الناحية المضادة، حتى إذا جاء الزوج ووجد الباب موصدا فهم المراد، وكانت المرأة المطلقة تترك دار سكناها وتعود إلى عشيرتها والحى الذى تنتمى إليه. ذلك أن المرأة كانت تظل مرتبطة بعائلتها الأصلية طيلة فترة زواجها بأواصر قوية. وهو ما يعبر عنه المثل العربى : «الزوج يوجد، والولد يولد، ولا عوض عن الأخ». ومن الجدير بالذكر أن المرأة المطلقة لم يكن لها عدة قبل الإسلام فانزل الله تبارك وتعالى الأمر بها للمحافظة على نقاء الدماء والأنساب من الاختلاط قال تعالى : ﴿يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾[٤].

ب) المرأة العربية ودورها في المجتمع :

كانت المرأة العربية عفيفة أبية تحب الفروسية وتفتخر بأمجاد البطولة فى الحروب، تثير الحماسة وتلهب الحمية وهى الزوجة الفاضلة والأم صانعة

---

(١) البيهقى : السنن الكبرى، جـ٢، ص٢٣٠.

(٢) سورة البقرة : آية (٢٣٠).

(٣) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ١٦، ص١٠٢.

(٤) سورة الطلاق : آية (١).

الأبطـال ملهمة الأدبـاء والشـعراء لا ترضى عن تـرك عشـيرتها وبيـت أبيها إلا للارتباط بالفارس الكامل والمقاتل الشجاع. لقد كانت شجاعة باسلة تتبع رجال القبيلة إلى ميادين القتال، تضمد الجراح وتحمل الماء لتسقى المحاربين. قال الدهان بن جندل شاعر ذهل يوم ذى قار[١] :

إن كنـت ساقية يوما ذوى كرم فاسقى فوارس من ذهل بن شيبانا

واسقى فوارس حاموا عن ذمارهم واعلى مفارقهم مسكا وريحانا

وإلى جانب ذلك كانت تقرع الدفوف للحث على التناحر ومواصلة القتال. فكانت كرمة بنت ضلع أم مالك بن زيد، تثير نفوس قومها منشدة :

نـحـن بـنـات طـارق [٢] نمـشـى عـلـى الـنـمـارق

مـشـى الـقـطـى البـارق [٣] المـسـك فـى المـفـارق

والـدر فـى المخـانـق [٤] أن تـقـبـلـوا نـعـانـق

أو تـدبـروا نـفـارق فـراق غـيـر وامـق [٥]

عـرس المـولـى طـالـق والـعـار مـنـه لاحـق

فتدافع القوم على أعدائهم من تغلب واقتحموا صفوفهم، وأعملوا السيوف فى رؤوسهم، وأوضعوا الأسنة فى صدورهم، حتى انتصرت بكر على تغلب، وشردت رجالها بعد أن كثر فيهم القتل والأسر.

كانت المرأة العربية تشارك القبيلة أعيادها وأحزانها فترثى أبطالها فى نبرات مؤثرة تتجلى من خلالها فصاحتها وشدة إخلاصها، فقالت أميمة بنت

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص١١٣-١١٤.

(٢) طارق : كوكب من كواكب السحر، وتريد نحن بنات المجد.

(٣) القطى البارق : صغار القطى الحائرة الفزعة.

(٤) المخانق : القلائد.

(٥) الوامق : المحب.

عبد شمس فى رثاء ابن أختها أبى سفيان بن أمية ومن قتل من قومها فى حرب الفجار[(١)] :

ألا يا عين فابكيهم   بدمع منك مستغرب
فإن أبك فهم عزى   وهم ركنى وهم منكب
وهم أملى وهم فرعى   وهم نسبى إذا أنسب
وهم مجدى وهم شرفى   وهم حصنى إذا أرهب
وهم رمحى وهم ترسى   وهم سيفى إذا أغضب

كما شاركت فى الأحداث الكبيرة التى كان لها أثرها فى حياة العرب، فاشتركت عاتكة بنت مرة بن هلال، زوج عبد مناف فى حلف الأحابيش[(٢)]، واشتركت أم حكيم البيضاء واختها عاتكة بنت عبدالمطلب فى حلف المطيبين[(٣)] فضلا عن مشاركة هند بنت الخس الأيادية، وخمعة بنت حابس الأيادى، وخصيلة بنت عامر بن الظرب العدوانى وحذام بنت الريان بالفصل فى قضايا النساء، وقضايا القبائل فى حذام[(٤)] :

إذا قالت حذام فصدقوها   فإن القول ما قالت حذام

كما قامت المرأة العربية بالحكم بين أعظم شعراء القبائل ولم تخش فى حكمها لومة لائم. فلما تزوج أمرؤ القيس إحدى نساء بنى طئ وهى أم جندب. وكان أمرؤ القيس معاصراً للشاعر المشهور علقمة بن عبده، وتنازعا إمارة الشعر، اقترح علقمة أن تكون أم جندب حكما بينهما فدعتهما أم جندب لينظم كل منهما قصيدة تصف الخيل فلما فرغا حكمت أم جندب لعلقمة على زوجها، فغضب امرؤ القيس وطلقها فتزوجت علقمة[(٥)].

(١) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ١٩، ص٨٢.
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٣، ص١١٥.
(٣) ابن هشام : المصدر السابق، جـ١، ص١٤٣.
(٤) الأصفهانى : المصدر السابق، جـ٢، ص١٠١.
(٥) الأصفهانى : المصدر السابق، جـ٧، ص١٢٧-١٢٨.

ليس أدل على مكانة المرأة العربية من أنها قد شاركت فى أعظم العهود التى تمت فى مهد الدعوة الإسلامية فاشتركت نسيبة بنت كعب أم عمارة من بنى مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن ثابت من بنى سلمة فى بيعتى العقبة قبيل الهجرة النبوية الشريفة إلى يثرب[١].

بلغ من منزلة المرأة العربيـة أن كان يستجار بها، فلما وقع السليك ابن السلكة أسيراً فى يد عشيرة بن عوار استشفع بإحدى شريفاتها وهى فكيهة بنت قتادة بن شنؤ فردت إليه حريته[٢]، كما أعطت فتاة عربية أمانا لرجل فلم يستطع ملك العرب أن ينقضه، فلما غزا مروان القرظ بن زنباع قبيلة بكر بن وائل وقع فى الأسر، فطلب من آسره أن يذهب به إلى خماعة بنت عوف بن محلم وكان مروان قد أسدى لها يداً فيما سلف من دهرها، فلما ذهبوا به إليها أجارته من كل مكروه وكان مروان قد أساء إلى عمرو بن هند، ملك العرب وطاغية الحيرة فأقسم عمرو على ألا يعفو عن مروان حتى يضع يده فى يده (أى يملكه من نفسه)، وكان عمرو إذا ملك فتك، فلما علم بمستقره من عوف أرسل إليه ليأتيه به. فقال عوف قد أجارته ابنتى وليس إليه من سبيل إلا العفو فأجابه عمرو إلى ما طلب وعفا عن مروان، وما كان ليعفو عنه بعد أن ظفر به لولا أن أجارته المرأة[٣].

ومن ناحية أخرى كان الخائف الهارب يعقد رداءه بطنب (حبل السرادق) خباء المرأة فيعود آمنا ليس عليه من سبيل، فلما عصفت حرب الفجار الأكبر بين كنانة وقيس ضرب مسعود بن مالك الثقفى، سيد قيس خباء لزوجته سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف وراء جنده، فدخل عليها فأبصر بالدموع تجول بين خديها، فقال : «ما يبكيك؟ قالت : أبكى لما عسى أن يصيب قومى. فقال لها : من دخل خباءك من قريش فهو آمن». فأخذت تصل به قطعا حتى يسع الجمع العديد من قومها. فلما انكشفت قيس وغلب على

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، جـ١، ص١٣٧.

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص١٣٧.

(٣) الميدانى : مجمع الأمثال، ص٢٢٢-٢٢٣.

أمره مسعود قال لها ابن أخيها : «من تمسك بأطناب خبائك فهو آمن، ومن دار حول خبائك فهو آمن». فلم يبق قيسى إلا اعتصم بها.. ودار حول خبائها[١].

كانت المرأة العربية تتحمل مسئولياتها نحو قومها بالتدخل الإيجابى فى إطفاء نيران الحرب إذا ما استمرت طويلا وكثر فيها القتلى والجرحى فمن ذلك أن الحارث بن عوف المرى، سيد العرب قال لمن حوله : أترونني أخطب أحداً فيردنى؟ قيل : نعم. قال : ومن ذاك. فقيل له : أوس بن حارثة الطائى. فلما دخل أوس منزله.. قال لكبرى بناته : يا بنية، هذا الحارث بن عوف، سيد من سادات العرب قد جاءنى طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين؟ قالت : لا تفعل. فعرض الأمر على أختها الوسطى فلم ترض فلما وافقت أختها الصغرى، خرج إلى الحارث قائلا : «قد زوجتك يا حارث بهيسة بنت أوس». قال : قد قبلت، فأمر أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها. حتى إذا حملت إلى زوجها وبلغ بها حماه، كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان قد عصفت هوجاؤها بهم واشتدت نارها فيهم، فلما بصرت به مرتدياً مطارف (أردية من الخز مربعة) العرس. قالت : والله لقد ذكرت ما لا أراه منك. قال : كيف؟ قالت : أتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضا! قال : فيكون ماذا؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم. فخرج فمشى بين القوم بالصلح واحتمل حمائل القوم (الديات يدفعها قوم عن قوم) وديات قتلاهم، وكانت ثروة عظيمة نزل عنها للطرفين[٢].

تتجلى منزلة المرأة العربية وعلو مكانتها فى أنها كانت مثار افتخار ملوك العرب بنسبهم إلى أمهاتهم، فمنهم المنذر بن ماء السماء، ملك الحيرة، وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف. ومنهم عمرو بن هند. بل أن قبائل بأسرها تشرفت بالانتساب إلى أمهاتهم فمنها، خندف وجديلة. وخندف هى ليلى بنت حلوان بن عمران، زوج الياس بن مضر بن نزار ومن بطونها هذيل وكنانة

---

(١) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ٩، ص٧٩.

(٢) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ٩، ص١٤٢-١٤٣.

وأسـد والهون. وأما جديلة فهى ابنة مدركة بن إلياس ومن بطونها عدوان. كذلك انتسبت كل من بجيلة ومزينــة وعاملة وعفراء وباهلة وبنى طفـاوة وبنى العبدية وبنى طهية وبنى حطى إلى أمهاتهم[١]. ومن ناحية أخرى كان الشعراء يفتخرون فى أشعارهم بأمهاتهم فمن ذلك قول الشنفرى :

أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا وأمى إبنــة الأحرار لو تعرفينها

وأثنى الشنفرى على زوجته ومدحها بقوله :

أميـمـة لا يخـزى نثاها حليلهـا إذا ذكـر النسـوان عـفـت وجلت

إذا هو أمـــسى آب قـرة عــينه مـاب السعيـد لم يسل أين ظلت

فالحديث العطر عنها فى العشيرة ليملأ زوجها زهواً وافتخاراً، لأنها مثال العفة والجلال، وهو يعبر عن مدى سعادته بلقائها بعد عودته فلا يسألها أين كانت، لأنه كان يجلها ويرفعها عن كل شك[٢].

كان للمرأة العربية مكانة مرموقة فى المجتمع العربى قبل الإسلام، وقد شاركت الرجل نكبات الدهر وتحملت مسئولياتها نحو بيتها وأسرتها، فكانت المرأة الحرة تقوم ببعض الأعمال قضاء للواجب ودفعاً للملل، ومن أشهر أعمالهن غزل أصواف الغنم وأوبار الإبل. وقد وجدت فى ذلك منفعة للأسرة وأداة لهوهن، ومن أمثالهن؛ نعم لهو الحرة المغزل. كما كانت تشرف عى البيت وما إليه من إعداد المطاعم، التى كان قوامها اللبن والتمر والبر والشعير والعسل والسكر والأرز والزبد واللحم والزيت والسمن ولحوم الإبل[٣]، ومن أشهر مطاعمهم السخينة[٤]، والبـريك[٥]، والجسزيرة[٦]، والربيكة[٧]،

(١) الأصفهاني : كتاب الأغاني، جـ٩، ص٢.

(٢) شوقي ضيف : العصر الجاهلي، ص٧٤.

(٣) الألوسي : بلوغ الأرب، جـ١، ص٤٢٢.

(٤) السخينة : تتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء.

(٥) البريك : الرطب يؤكل بالزبد أو السمن.

(٦) الجزيرة : قطع لحم صغيرة يضاف عليها الدقيق بعد نضجها.

(٧) الربيكة : التمر يعجن بالسمن والأقط فيؤكل وربما صب عليه الماء فشرب.

والبسيسة[١]، والفؤارة[٢]، والحريقة[٣]، والصحيرة[٤]، والعكيسة[٥]، والأصبية[٦]، والبهط[٧].

أما نساء البادية فكن يأتين المدائن والقرى للعمل كمرضعات، وكان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد أن يلتمسوا له مرضعة فى غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأصح له، ومن أجل ذلك دفع النعمان بن المنذر بابنه إلى بنى مرة ليسترضع فيهم فأرضعته سلمى بنت الحارث بن ظالم[٨].

كانت المرأة العربية حرة شريفة شديدة التمسك بعفتها، فلما أسرت فاطمة بنت الخرشب على يد حمل بن بدر الغزارى، رمت بنفسها من الهودج منكسة فماتت لساعتها، حينما حاول الاقتراب منها، وكان من أشهر أمثالهم «المنية ولا الدنية»[٩].

قصارى القول أن المرأة العربية كانت تتمتع بمنزلة رفيعة فى قومها، وقصص الفروسية وأشعارها عامرة بصور النساء العربيات اللائى كان لهن شأن عظيم[١٠]، ومنهن الخنساء بنت عمرو، وهند بنت عتبة، وزنوبيا (ملكة تدمر)، وسجاح التميمية، وحبى بنت حليل الخزاعى - زوج قصى بن كلاب - التى كانت تحتفظ بمفتاح الكعبة[١١].

---

(١) البسيسة : السويقة يلت بالسمن أو الزبد.

(٢) الفؤارة : الحلبة تطبخ بالتمر.

(٣) الحريقة : أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب وهى أغلظ من السخينة.

(٤) الصحيرة : اللبن يغلى ثم يذر عليه الدقيق.

(٥) العكيسة : لبن يصب عليه الامالة وهى الشحم المذاب.

(٦) الأصبة : دقيق يعجن بلبن وتمر.

(٧) البهط : الأرز يطبخ باللبن والسمن، أنظر : ابن منظور : لسان العرب، جـ١٢، ص٢٧-٣٧؛ الألوسى : بلوغ الأرب، جـ١، ص٤٢٥.

(٨) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ١٠، ص٢١.

(٩) الأصفهانى : المصدر السابق، جـ١٦، ص٢١.

(١٠) Perron : Femes Arabes, p. 166.

(١١) الأزرقى : أخبار مكة، جـ١، ص٦٢.

ذلك ما كان من أمرها فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام رفع مكانتها وحفظ لها حقوقها، وأوجب حمايتها، ومنحها حق العلم والعمل. فقد جاء فى قوله تبارك وتعالى : ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾(١). كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الشريفة بوجوب تكريم المرأة وصيانة حقوقها. ولو استوعب نساء العالم ما جاء به الإسلام من أجلهن لنبذن الوثنية والشرك ولدخلن فى دين الله أفواجا.

---

(١) سورة النساء : آية ٣٢.

٣ – صفات العرب ومناقبهم

اشتهر العرب قبل الإسلام بالصفات والخلال الكريمة التى كان للطبيعة الصحراوية وشدة الجدب وقسوة الحياة أثرها فى تطبيعهم بها وغرسها فى نفوسهم. وصارت وفرة الفضائل وتنوع المآثر من سمات التميز التى اصطبغت بها فطرتهم.

كان من أهم صفاتهم الجليلة التى تغنى بها الأدباء والشعراء على مر الزمان؛ المروءة وعلو الهمة والوفاء بالعهود والشجاعة والفروسية والكرم الخيالى. فلم تكن خصلة عندهم تفوق الكرم وإغاثة البائس الفقير[١]. وكان الكرم اللامحدود يمثل إحدى مفاخرهم التى يحرصون عليها. فكانوا يتباهون بكثرة الأضياف وذبح الإبل وإطعامها المحتاج، لأن الميل الفطرى للعطاء هو من أهم سمات سخاء العرب المشهور، والكريم عندهم هو من أعطى فحرم نفسه وبذل من نصاب حاجاته الضرورية. فلما سئل قيس بن سعد : «هل لقيت أكرم منك؟ فأجاب : أجل. لأن المنح لا يستحق الثناء إذا كان المرء موفور النعمة وإنما يستحق الثناء من أعطى من قليله». لقد وجد العرب فى فعل الخير شرفًا يخلد على مر العصور. يتضح ذلك من رد حسان بن سهل على من قال له : «لا خير فى الإسراف، فقال حسان : لا إسراف فى الخير». ولما وجه الحسين بن على بن أبى طالب اللوم لعبدالله بن جعفر على إسرافه فى البذل، قال : «لقد عودنى الله أن يغمرنى وعودته أن أغدق نعمه على خلقه، وإنى لأخشى إذا أنا هجرت عادتى، أن يهجر الله عادته». ولقد أقر الإسلام أخلاق الكرم والنجدة وإغاثة الملهوف، قال تعالى : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾[٢].

الواقع أن إيواء الغرباء وإطعامهم بلا مقابل وهو ما يعرف بالقرى، يرجع إلى عادة قديمة وتقاليد جليلة تنسب إلى إبراهيم الخليل – عليه السلام. ولقد

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام، ص١٠.

(٢) سورة الإنسان : الآيتان (٨-٩).

ذكر القرآن الكريم ما قام به النبى إبراهيم لإكرام ضيفه فى قوله تبارك وتعالى : ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما، قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾[١]. وقد احتذى العرب هذا المثل الكريم عن جدهم وصار عندهم كرم الضيافة يضرب به الأمثال بعد أن انتشر فى جميع أرجاء الجزيرة العربية وكان من أشهر من اتصف بالكرم من رجالات العرب كعب بن مناة، وقيس بن سعد، وأوس بن حارثة، وعبدالله بن حبيب العنبرى، وهرم بن سنان، وحاتم الطائى، الذى قال لخطيبته «ماوية» فى معنى الكرم[٢] :

أماوى قد طال التجنب والهجر   وقد عذرتنا عن طلابكم العذر[٣]

أماوى أن المال غاد ورائح   ويبقى من المال الأحاديث والذكر

وقال فى موضع آخر :

وإنى لعبد لضيف ما دام ثاويا   وما فى إلا تلك من شيمة العبد[٤]

كان من مظاهر كرمهم إيقاد النيران ليلا لتمكين الغرباء من الاهتداء إلى الأماكن التى يقطنونها، وكانت النيران توقد على المرتفعات. وقد بالغ بعضهم فى الكرم فكانوا يستخدمون المندلى الرطب، وهى أعواد من العطر حتى يهتدى بها العميان[٥]. وعن إشعال النيران على المرتفعات يقول الشاعر :

له نار تشب على يفاع   إذا النيران ألبست قناعا

ولم يك أكثر الفتيان مالا   ولكن كان أرحبهم ذراعا

وفضلا عن ذلك كانوا يجتذبون الغرباء إلى مواضعهم بنباح الكلاب[٦]، وكانت عادة معروفة عند العرب، فينبح الشخص الذى ضل طريقه، فتنبح

---

(١) سورة الذاريات : الآيات (٢٤-٢٧).

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ١، ص٣٣٥.

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ١، ص٤١٦.

(٤) ابن عبد ربه : المصدر السابق جـ١، ص٣٣٥.

(٥) الألوسى : المصدر السابق، جـ١، ص٤١٦.

(٦) الألوسى : المصدر السابق، جـ١، ص٥١.

الكلاب على نباحه فيهتدى إلى مكان الضيف، وفى ذلك يقول نابغة بن جعدة[١] :

عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب أو ليفزع قوم

فجاوبه متسمع الصوت للقرى له عند إتيان الملمين مطعم

يكاد إذا ما أبصر الضيف للقرى يكلمه من حبه وهم أعجم

ولقد حرص الإسلام على هذه الخصلة الكريمة، فقال النبى صلى الله عليه وسلم مرشداً المؤمنين إلى حب الخير «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما اللهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا»[٢].

كانت الشجاعة والفروسية من المثل العليا عند العرب ذلك أن حياتهم الرعوية البسيطة وقسوة الصحراء فرضت عليهم السمو الخلقى فصاروا يستهينون بالموت إلا تحت ظلا السيوف، يقول السموءل بن عاديا :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

لما كانت حماية الضعيف والدفاع عنه هى شرع الفروسية، لذلك تنافس الفرسان فى مساعدة النساء والأرامل والأيتام والمغلوبين على أمرهم وجعل كل منهم سيفه فى خدمة الحق والانتصاف للمظلوم من الظالم ولقد استخدم فرسان العرب شجاعتهم أنبل استخدام فصارت رهن إشارة البائسين، ولم يكن من بينهم من يرفض حماية ضعيف أو الدفاع عن مظلوم استنجد به. وكان الضعيف إذا احتمى بالقوى ضمن له الحماية والأمان من نفسه، ومن أهله وعشيرته فى حياته وبعد مماته. وكان العرب يتباهون بكثرة من يلوذ بهم ويطلب حمايتهم. وكانت القاعدة عندهم حماية الجار بريئاً كان أم آثما

(١) مسلم : صحيح مسلم، جـ٤، ص١٤.

(٢) مسلم : المرجع السابق، جـ٤، ص١٤.

حماية كاملة ضد الجميع مما أدى إلى تحملهم مسئوليات جسيمة، وجر عليهم مشاكل عديدة. وكان امتداد الحماية واتساع نطاقها يعنى المزيد من السمو وعلو القدر والمنزلة. فلما أقبل الشاعر الأعشى يوماً على علقمة بن علاثة سائلا أن يكون فى حماه قبل أن يحميه من الإنس والجن، فطلب الأعشى أن يحميه من الموت أيضاً فاعتذر فقصد الأعشى الشاعر، عامر بن طفيل وسأله الحماية الكاملة، فوعد بأن يحميه ولو من الموت فسأله الأعشى : وكيف أنت فاعل؟ قال : إذا أتاك الموت وأنت فى حماى دفعت لأهلك ديتك. فأعجب الأعشى من هذا الجواب وأنشد يمدح عامرا ويهجو علقمة.

ومما يجدر ذكره أن المرء إذا لم يجد فى طريقه رجلا قوياً يحتمى به، كان يستجير بأى اسم، فلما أوشك بنو الحارث أن يقتلوا رجلا يدعى خالدا، استجار بواحد منهم هو قس بن الصمة، لكن قسا كان غائباً ولم يفد ذلك خالدا، فلما عاد قس بعد فوات الأوان. غضب وعاب على أهله ما ألحقوه من الهوان، إذ بلغت الجرأة بهم أن يرفعوا أيديهم على من احتمى باسمه[1]. وكان الرجل إذا ما تخلى عن حماية الضعيف لحق به العار وصار رمزاً للمذلة والهوان، اللذين كانا يأنفهما العربى الحر، قال المتلمس :

إن الهوان حمار الأهل يعرفه ... والحر ينكره والرسلة إلا جد

ولا يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان : عير الأهل والوتد

كان من أشهر فرسان العرب، خالد بن جعفر بن كلاب العامرى، وعتيبة ابن الحارث وعامر بن الطفيل وقيس ابن معد يكرب وعمرو بن كلثوم وعنترة ابن شداد، وقد وصف الأعشى شجاعة قيس بن معد يكرب بالبسالة والجرأة فى ميادين الحرب حيث كان يقاتل بدون ترس، وذلك أنه كان يقينا أن الإنسان سيموت حتماً فلكل إمرئ أجل محتوم فقال[2] :

---

(١) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ١٠، ص٢٢٨.

(٢) شوقى ضيف : العصر الجاهلى، ص ٣٤٩.

كنت المقـدم غـيـر لابس جنة   بالسيف تضرب معلمـا أبطالهـا
وعلمت أن النفس تلقى حتـفـهـا   ما كان خالقها المليك قضى لها

ولقد أقر الإسلام الشجاعة والإقدام وجعلهما من صفات المؤمن بعد أن هذبهما وجعلهما في خدمة الحق ودفع العدوان فقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[١]، وقال تبارك وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾[٢].

وتتجلى فروسية العرب ونبذهم للهوان والضيم فيما عرف عندهم بالاعتضاد، وهو أن يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحدا حتى الموت جوعاً، فكان يسترخص الحياة، ويقبل على الموت مترفعاً عن الدنايا والخساسة في طلب الرزق، فإذا ضاق على أحدهم رزقه، حمل أهل بيته إلى موضع فضرب عليه وعلى عياله خباء حتى يلقوا جميعاً مصيرهم[٣].

كان الحلم من أجل الصفات التي تدل على مكانة الفضيلة بين العرب، وهي تعني الصفح والمغفرة عند المقدرة، فكان الحليم يستطيع التغلب على نفسه عندما يتغلب على عدوه. وبلغ من انتشار هذه الصفة الحميدة أن انتشرت بين العرب الأمثلة التي تؤكدها وتشجع على الأخذ بها فقالوا : «الكريم من يغفر الذنوب ويستر العيوب» و«إذا غلبت فكن عفوا»، و«لا عظمة مع الحقد»، وقد ورد في القرآن الكريم ما يؤكد هذه الصفة الحميدة ويعضدها فقال تعالى : ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾[٤].

---

(١) سورة الأنفال : آية (٤٥).

(٢) سورة الأنفال : الآيتان (١٥-١٦).

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبير، جـ١، ص٤٣-٤٦.

(٤) سورة آل عمران : آية (١٣٤).

كما كان التسامى عن الدنايا والنقائص يعد من صفات العزة والكرامة ويتجلى فى الغض عن العوراء. قال عنترة بن شداد :

واغضن طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

انى امرؤ سمح الخليقة ماجد لا اتبع النفس اللجوج هواها

كانت عفة العربى هى شرفه، الذى يموت دونه وهمته التى تضطرم بينه جنبيه، فقد عرف عندهم أن الرجل الذى يتأثر بالنساء فى مسيرهن ويجعل همة ابتغاء المهينات منهن جبان، ساقط الهمة، مغمور العرض، لأن مغالبة النفس وقمع الهوى أدل على الشجاعة. وكانوا يقولون : «ليس سيدا من غلبته شهوته»(١).

ولقد نمت هذه الصفة الحميدة فى ظل الإسلام وارتقت فجاء فى قوله تبارك وتعالى : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوافروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن... لعلكم تفلحون﴾(٢).

على أن الوفاء بالعهود وكراهة الغدر كانت من أعظم الصفات الملازمة للعربى، وكانوا يشهرون بمن يغدر منهم فى المجتمعات العامة والأسواق الكبرى، حتى يلحقوا بخائن العهد العار. ولعل وفاء بن زهير المازنى الذى قتل أخاه لغدره بجارٍ له من أشهر قصص الوفاء عند العرب قبل الإسلام لذلك ارتفع الوفاء بالعهد إلى قدسية الدين، وبات من يحنث بوعده آثما يتعرض لازدراء الناس ولعنة الله. ومن أجمل مظاهر التمسك بالعهود أن الحروب المشتعلة بين عشائر العرب وقبائلهم، كانت تخمد عندما يهل شهر الهدنة وذلك بلا رقيب أو حاكم، فيعم الزمان أرجاء القرى والبوادى وتنقل السلع

(١) عبدالله عفيفى : المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها، جـ١، ص٦٢-٦٣.

(٢) سورة النور : الآيتان (٣٠-٣١).

دون خوف أو حذر. فالعهد في الصحراء كان يعنى النجاة. وكلمة الوفاء كانت تعنى الفخر والنبل والجلال. ولعل من أنبل صور الوفاء بالعهد حفظ السموءل بن عاديا أمانة امرئ القيس التي أودعها لديه، فلما أتاه الحارث بن أبي شمر الغساني ليأخذ منه أدرع امرئ القيس امتنع السموءل فأخذ الحارث إبناً له غلاما. وقال إما أن سلمت الأدرع إلى وإما قتلت ابنك.

فأبى السموأل أن يخون أمانته، فضرب الحارث وسط الغلام فقطعه قطعتين،فقال السموءل في ذلك[1] :

وفيت بذمة الكندى إنى   إذا ما خان أقوام وفيت
وأوصى عاديا يوما بأن لا   تهدم يا سموءل ما بنيت
بنى لى عاديا حصنا حصينا   وبئرا كلما شئت استقيت

ولقد أوصى الإسلام بالوفاء بالعهود وشدد على الحفاظ عليها في قوله تعالى : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها﴾[2].

وقصارى القول أن الخلق العربى الأصيل قد حظى من الإسلام بكل التشجيع والمؤازرة بعد أن رضيه الله تبارك وتعالى دينا للمؤمنين وأساساً للسلوك الاجتماعى الإنسانى، وقد أحله الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه محلا سامياً رفيعاً فقال : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فاستمر الخلق العربى الراقى شرفاً يتوج المؤمنين، فلم يكن ثمة تعارض بين ما كان عليه العرب وما جاء به الإسلام إلا فما يتعلق بالعصبية التى عرفها الإسلام بحمية الجاهلية الأولى. وقد شهد لوبون بذلك حين قال : «أن أخلاق العرب فى الأدوار الأولى من الإسلام أرقى كثيراً من أخلاق أمم الأرض قاطبة ولاسيما الأمم النصرانية، وكان عدلهم واعتدالهم، ورأفتهم وتسامحهم، ووفاؤهم بعهودهم ونبل طبائعهم، مما يتوقف النظر، ويناقض سلوك الأمم الأخرى»[3].

---

(١) الأصفهاني : كتاب الأغاني، جـ٢٠، ص١٣٤.

(٢) سورة النحل : آية (٩١).

(٣) لوبون : حضارة العرب، ص٤٥٣.

٤ – العادات والتقاليد

ارتبطت أهم العادات الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام بمعتقداتهم الدينية متأثرين فى ذلك بالطبيعة الصحراوية الموحشة التى جعلتهم يؤمنون بوجود قوى خفية خارقة لها أثرها فى حياة الناس ومقدراتهم وما يتعرضون له من خير وشر، ولذلك عمدوا إلى التقرب منها بالزيارات والقرابين والتضرع والتوسل والأدعية والصلوات التى تقام فى مناسبات مختلفة.

كان لهذا الاعتقاد الدينى أثره الروحى العميق فى نفوسهم مما جعلهم يؤمنون بقدرة المنجمين والسحرة على إمكانية السيطرة على هذه القوى الخفية وتوجيهها طبقاً لرغبات أصحاب الحاجات لأن هذه القوى متغلغلة فى أجسامهم ومحيطة بهم فى كل مكان، وأنها ذات طبيعة نافعة ضارة تبعاً لتوجيه السحرة، ومما زاد من تأثر الناس بها أنها خفية غير مرئية وأنها تستطيع إلحاق الأذى والضر بالإنسان فى كل مكان وزمان ولا سبيل لاتقاء شرها سوى بمحاولة التقرب والتودد إليها عن طريق أولئك السحرة والمنجمين بوسائط من الجن، الذين يعيشون فى الظلام مستقرين. واسترضائهم لازماً لدفع الأذى والضر عن الإنسان فتجلب له الخير والسلام. ويتجلى هذا الاعتقاد فى قوله تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجن أنهم لمحضرون﴾[(١)]، ذلك أن قريشا جعلت بين الآلهة وبين الجن والوسطاء قرابة، وأنها تشارك الله جل جلاله قدراته سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم. وخرقوا له بنين وبنات بغير علم. سبحانه وتعالى عما يصفون﴾[(٢)].

كان من عاداتهم التى ارتبطت بالجن، ضرب الثور الذى يركب الجن قرنيه ليقتحم الماء عندما يمتنع البقر عن شرب الماء. وذلك لاعتقادهم أن الجن تصدت للبقر فاقتحمها الشيطان – أخبث أنواع الجن – الذى ركب قرنى الثور[(٣)].

---

(١) سورة الصافات : آية (١٥٨).

(٢) سورة الأنعام : آية (١٠٠).

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٣٠٣.

كما اتخذوا وسائل من الأرواح التى تسكن أجساد أصنامهم على زعمهم، لتوصيل رغباتهم إلى الآلهة وذلك لاعتقادهم أن لها قدرات خارقة على إحلال الخير ودفع الأذى والضر عن الإنسان، فضلا عن توجيه الشر إلى أعدائهم وكان الكاهن ذو القدرات والمواهب الخاصة هو الذى يستطيع القيام بذلك فيتصل بها ويؤثر عليها حتى يستشف منها مستقبل الإنسان وما تخبئه له الأقدار وكان السحر والكهانة منتشرين بين غالبية العرب فى قبائلهم وعشائرهم، مدنهم وباديتهم. وكان الكاهن يستقى الأخبار ويعرف المغيبات ويقرأ المستقبل بوسيط من الأرواح يعرف بالتابع، الذى كان يسترق السمع وينقل للكاهن ما سمعه[١]، ولقد سخر جهم الهذلى من هذا الاعتقاد فقال :

يظنان ظنا مرة يخطئانه   وأخرى على بعض الذى يضعان

قضى الله أن يعلم الغيب غيره   ففى أى أمر الله يمتريان

كان العربى يعتقد أن للكهنة أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية هى التى جعلت الشياطين تأنس لهم وتساعدهم بكل ما تصل قدراتهم إليه، لذلك كان للكهانة شأن عظيم فى حياة الناس وصارت جزءا من حياتهم اليومية لا يستطيع المرء أن يتحرك أو يقدم على عمل إلا بعد الرجوع إليها.

ولما سئل النبى ﷺ عن الكهان قال : «ليسوا بشيء». قالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون حقا. فأخبرهم الرسول ﷺ «ذلك من جهة الشياطين يلقون إليهم الكلمة فتكون حقا فيزيدون هم معها مائة كذبة»[٢].

كان لكل قبيلة كاهن أو عدة كهان يرجع إليهم أفرادها لاستشارتهم فى كل أمر عظيم يقدمون عليه أو لمعرفة أسباب الكوارث التى تعرضوا لها وكان الكاهن يتفق مع أصحاب الحاجات المتلهفين على قراءة المستقبل، على

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص٣١٣.

(٢) العينى : عمدة القارى، جـ٧، ص٣٥؛ ابن القيم الجوزية : زاد المعاد، جـ٤، ص٣٥٤.

الحلوان، وهو المقابل الذى يتناوله الكاهن، ويعطيه للتابع لأن الحاجة تظل معلقة لا تتحقق إلى بدفع الحلوان، وقد نهى الرسول ﷺ عن «ثمن الكلب ومهر البغى وحلوان الكاهن»[١]. على أن بعض الكهان كانوا قد ودعوا تابعيهم من الجن وآثروا إعداد قبائلهم للدخول فى الإسلام[٢].

لم تقتصر الكهانة على معرفة الغيب والتنبؤ بالمستقبل عن طريق تابع بل استخدم الكهان وسائل أخرى فمنها العرافة والقيافة والزجر والطيرة والعيافة والأحلام والاستقسام بالأزلام وطرق الحصى والخط على الرمال والتفرس فى ملاحظة بعض أجزاء أجسام الحيوان أو الإنسان، فضلا عن التنجيم.

يختلف الكاهن عن العراف، فالكاهن يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الأزمان ويدعى معرفة الأسرار عن طريق التابع. أما العراف فهو الذى يدعى معرفة الشئ المسروق ومكان الضالة وذلك عن طريق دراسة مقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها، ويرادف معنى العرافة التنجيم[٣]. وكان العراف يتمتع بالذكاء والتفرس فى الأمور والتجارب وله ملكات ومواهب خاصة، يقضى ويتنبأ للناس بالملاحظة والاستنتاج بمراقبة الأشياء، ومن العرافين رباح بن عجلة، عراف اليمامة، والأبلق الأسدى، عراف نجد.

أما القيافة فيقصد بها التنبؤ والإخبار عن شئ بتتبع الأثر والشبه وتنطوى فى بابها قيافة آثار الأقدام والأخفاف وحوافر الحيوان والطير للاستدلال على أصحابها وقد اشتهر بنو مدلج وبنو لهب بالقيافة[٤].

كما كانت الفراسة من أنواع الكهانة التى انتشرت فى بلاد العرب قبل الإسلام وهى الاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه على صفاته وطبائعه. والعيافة هى التنبؤ بملاحظة حركات الطيور والحيوانات ودراسة أصواتها وقراءة

---

(١) القسطلانى : إرشاد السارى، جـ٨، ص٤٠.

(٢) السهيلى : الروض الأنف، جـ١، ص١٣٧.

(٣) الزبيدى : تاج العروس، جـ٦، ص١٩٣.

(٤) ابن دريد : الاشتقاق، ص٢٨٨.

بعض أحشائها. ولذلك أطلق على العائف اسم الشاق، لأنه يشق بطون الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها واستخراج الخبر مما يراه على تلك الأحشاء من ألياف واشتهر بنو أسد بالعيافة، وكذلك بنو لهب، وهم حي من الأزد، منهم لهب بن أحجم بن كعب، وهو الذى تكهن بمقتل عمر بن الخطاب قبل وقوعه بعام[١]، وقد أجمل ابن خلدون تعريف الكهان بصنوفهم المختلفة بقوله «هم الناظرون فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها. وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان[٢].

يعد الاستقسام بالأزلام[٣]، الذى عرف طريقه إلى عادات الناس الاجتماعية، إحدى طرق التنبؤ، وكان يتم ذلك أمام الأصنام حتى يكون تعبيراً عن مشيئة الآلهة وإرادتها، كما أن بعض الكهان كانوا يحملون الأزلام على أكتافهم ويستقسمون بها فى الأسواق والمجتمعات العامة خاصة أيام الأعياد. وكان القائم بالاستقسام يتقاضى أجراً معلوماً يصل إلى مائة درهم عند سدنة هبل[٤]. وكان الناس يتفاءلون بالأزلام، وصارت جزءا من حياتهم اليومية فكانوا يرجعون إليها فى حالات السفر أو العمل أو الزواج أو دفع الديات فضلا عن التثبت فى الأنساب المشكوك فيها، وقد ورد ذكرها وتحريمها فى القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى : ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[٥].

---

(١) السهيلى : الروض الأنف، جـ١، ص١١٨.

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ص١٠٧.

(٣) الأزلام : هى أسهم مكتوب على بعضها افعل والباقى لا تفعل، فإذا جاء أحد يريد الاستقسام، أجال السادن الأزلام فما يخرج يعمل به.

(٤) ابن الكلبى : الأصنام، ص٢٨.

(٥) سورة المائدة : آية (٣).

كان الطرق، وهو الضرب بالحصى من عاداتهم الاجتماعية، وكانت يقوم به الطراق من الرجال والنساء للكشف عن المستقبل، وذلك بأن يخط الطارق خطوطاً كثيرة بسرعة على الأرض ثم يمحو على مهل خطين خطين، فإن بقى خطان فهما علامة الرضى والنجاح،وإن بقى خط واحد فهو علامة الخيبة. ومنهم من كان يخط ثلاثة خطوط ثم يضرب عليها بشعير أو نوى، ويتمتم بحاجة المريد، فإن أصيب خط واحد وبقى خطان كان الفلاح، وإن أصيب خطان وبقى خط واحد فهو علامة الفشل والتشاؤم. وقد سخر أحد الشعراء من الطرق بالحصى وهو لبيد بن ربيعة فقال[١] :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

أما الزجر فهو رمى الطيور بحصاه ثم يصيح الرامى ليفزعها ويزجرها وعندئذ يراقب حركات طيرانها، فإن تيامنت أى اتجهت يميناً تفاءل وخرج لقضاء حاجته وإن تياسرت أى اتجهت يساراً تشاءم به. وقد عرف الزجر بالطيرة وذلك لاعتماد الزاجر على الطيور فى زجرهم[٢]، وقد انتشر التطير فى حياة الناس فصار يشمل الحيوان والأسماء والكلمات والأعداد. كما تطير البعض بذوى العاهات وذوى القبح الشديد، واعتبروهم نذير شؤم فكانوا يتجنبون الالتقاء بهم. يقول الجاحظ : «حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الابتر زجروا عند ذلك وتطيروا عندها. كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال[٣] ويعلق على ذلك بقوله «وأصل التطير من الطير إذا مر بارحاً (ميامنا) وسانحا (مياسرا) أو رآه يتفلى أو ينتف فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك فى كل شئ.. وللطيرة سمت (اطلق اسم) العرب المنهوش بالسليم، والبرية بالمفازة، وكنوا

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ١، ص٣٣٠.

(٢) الزبيدى : تاج العروس، جـ٣، ص٣٦٤.

(٣) أنظر الحيوان : جـ٣، ص٤٣٧.

الأعمى أبا البصير والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، والغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم[١]، وقد سخر العقلاء من التطير كما جاء في قول النابغة :

تعلم أنه لا طير إلا ... على متطير وهو الثبور

بل شيء يوافق بعض شيء ... أحايينا وباطله كثير

وقال المرقش :

ولقد غدوت وكنت لا ... أغدو على واق وحاتم

فإذا الأشائم كالأيا ... من والأيامن كالأشائم

وكذاك لا خير ولا ... شر على أحد بدائم

وقد نهى الرسول ﷺ عن التطير بقوله : «اقروا الطير عى مكناتها، لا تطيروها ولا تزجروها»[٢].

كذلك تطير العرب بقراءة أحشاء الحيوانات، وبخاصة الكبد لأنه في نظرهم موطن العداوة ومقر الحقد، فكان يقال للأعداء سود الأكباد لأن الحقد أحرق أكبادهم حتى اسودت[٣].

واشتهر عند العرب التطير بالمرأة، فقيل «لا عدوى ولا طيرة، إنما الشؤم في ثلاث، في «الفرس والمرأة والدار»[٤].

وكانوا في اعتقادهم يتغلبون على شؤم ناصية المرأة وعتبة الدار بالذبائح، فمن تقاليدهم ذبح عدة ذبائح عند زفاف العروس إلى زوجها ووصولها إلى

---

(١) الجاحظ : المصدر السابق، جـ٣، ص٤٣٨.

(٢) الجزري : جامع الأصول، جـ٨، ص٤٥٢.

(٣) ابن منظور : لسان العرب، جـ٤، ص٣٧٨.

(٤) العيني : عمدة القارئ، جـ٢١، ص٢٨٩.

عتبة الدار طردا للأرواح الشريرة وإرضاء لها، وكان من عاداتهم أيضاً الذبح على عتبة الدار الجديدة. وتعرف هذه الذبائح بذبائح الجان[١].

كان العرب يتشاءمون أيضاً من بعض الطيور والحيوانات ومن أهمها البوم والغراب، والحيوانات ذات العاهات، فكانوا يقولون ليس فى الأرض شئ يتشاءم به إلا والغراب أشأم منه. وغالبيتهم يتطير إذا صاح الغراب صيحة واحدة، فإذا أثنى تفاءلوا. وعند غيرهم إذا صاح صيحتين فهو شر، وإذا صاح ثلاث مرات فهو الخير[٢]، وقد اشتقوا من اسمه الاغتراب والغربةوالغريب لتشاؤمهم منه، واعتبروا أكل لحمه عاراً لأنه يأكل الجيف والقاذورات[٣] وأشد ما يتشاءمون بالغراب إذا ولاهم ظهره أو شماله[٤] أو أبصروه يتفلى وينتف. كذلك أمر الجراد عندهم لأنهم تنظروا منه الجرد، ولأنه مختلف الألوان فهو عندهم كحوادث الزمان[٥].

أما البوم فكان من أسباب التشاؤم بها منظرها الكئيب وصوتها الحزين وظهورها فى الليل، وقد وصفوها بأم الخرائب[٦]، ولذلك اعتقدوا أن روح الميت المرفرفة على القبر هى البوم.

وكانوا يتطيرون من الثور الأغضب (المكسور القرن) ومن الحية والثعلب فلحركات هذه الحيوانات ولأصواتها أثر فى التنبيه بوقوع الشر[٧].

ومن ناحية أخرى كان العرب يتفاءلون بالهدهد فهو عندهم آية اليمن وسبيل الهداية. وكانوا يعتقدون أنه كان يدل النبى سليمان عليه السلام على

---

(١) الزبيدى : تاج العروس، جـ٢، ص ١٣٨.

(٢) الجاحظ : الحيوان، جـ٣، ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

(٣) الجاحظ : المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٣٩.

(٤) ابن سيده : المخصص، جـ١٣، ص ٢٤.

(٥) الجاحظ : الحيوان، جـ٣، ص ١٣٦.

(٦) الدميرى : حياة الحيوان، جـ١، ص١٨١.

(٧) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص ٣٣٨.

مواضع الماء في أعماق الأرض[١]. على أن العرب بصفة عامة كانوا يعتقدون أن الطيرة والفأل مكتوبان على الإنسان، وأن حياته ومصيره مقرران[٢].

لاشك أن البيئة الصحراوية القاسية هي المؤثر الحقيقي في تطيرهم، لأنهم كانوا كثيراً ما يتعرضون للكوارث ويبتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللسع والعض والأكل والافتراس، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف الجاني والجارح والقاتل وكيفية الطلب والهرب[٣].

كذلك تعلق الناس بالسحر والسحرة لاعتقادهم بقدرتهم على القوى الخفية لتجنب الأذى وتحقيق الخير، وصار للسحرة مكانة كبيرة بين الناس وبخاصة النساء. فاستعانت المرأة بالسحر للتأثير على قلب الرجل والاستئثار به دون باقي زوجاته، واستعانت المرأة به للتفريق بين الرجل وزوجته حتى تحصل عليه. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾[٤].

قسم ابن خلدون السحر ثلاثة أنواع فقال : «السحر بالمعنى المفهوم عند الفلاسفة وهو التأثير بالهمة من غير آلة ولا معين، والطلمسات وهي التأثير بمعين من مزاج الأفلاك والعناصر أو خواص الأعداد، والشعبذة والشعوذة وتكون بالتأثير في القوى المتخيلة والتصرف فيها بقوة نفس الساحر المؤثرة، حتى يرى الرائي شيئا في الخارج وليس هناك شيء»[٥].

---

(١) الجاحظ : جـ١، ص١٦٠-١٦١.

(٢) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص٣٣٤.

(٣) الجاحظ : الحيوان، جـ٦، ص٢٩.

(٤) سورة البقرة : آية (١٠٢).

(٥) أنظر : ابن خلدون : المقدمة، ص١٠٨.

كان السحرة يستخدمون بعض النباتات والأعشاب لاستخلاص المادة الخاصة بعملهم. أو الاستعانة ببعض الجمرات ووضعها فى طريق مرور الشخص المراد التأثير عليه وذلك بعد القراءة عليها، كما استعملوا السلوانة وهى عبارة عن مسحوق يتخذ من تراب قبر أو خرز يقرأ عليه ثم يغتسل به الإنسان، وقيل أنه يطرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى. قال الشاعر[١] :

جعلت لعراف اليمامة حكمة   وعراف نجد ان هما شفيانى

فما تركا من رقية يعلمانها   ولا سلوة إلا بها سقيانى

أما استخدام السحر فى الأذى فكان يتم بالنفث فى العقد، الذى أشار إليه القرآن الكريم فى سورة الفلق، قال تعالى : ﴿قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسق إذا وقب. ومن شر النفاثات فى العقد. ومن شر حاسد إذا حسد﴾[٣]. وكانت المرأة تأتى بخيط أو وتر وتقرأ عليه شيئا مبهم القول، وبينما هى تتمتم تعقد العقدة[٤]. ويرى المفسرون أن لبيد بن أعصم اليهودى كان يتسخدم بناته الساحرات فى النفث فى العقد. وكانت بناته بعد أن يتم لهن النفث فى العقد يقمن بدس الخيط فى بئر بنى زريق وهى بئر ذروان تحت حجر أسفل البئر، وكانت عادتهم دفن السحر فى معطن من الأرض فلا تزال الجن موكلة بإذن المسحور به ما دام الخيط فى موطنه[٥]. فلما استخرجوا السحر من بئر ذروان وجدوا مشاطة رأس وأسنان مشطة وإذا فيه خيط معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر.

كذلك كان السحرة يستخدمون أوراق بعض النباتات وخلطها مع الملح والبخور والدماء والعظام وقرون الحيوانات ثم حرقها وإذابتها فى الماء أو دفنها، وفضلا عن ذلك كانوا يعمدون إلى التنفير وذلك باستخدام كل ما ينفر ويقزز

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص٣٤٠.

(٢) العينى : عمدة القارئ، جـ٧، ص٢٤.

(٣) سورة الفلق.

(٤) القسطلانى : إرشاد السارى، جـ٧، ص١٤.

(٥) Perron : Femmes Arabes, p. 165.

لطرد الأرواح الشريرة من الأماكن والأشخاص، ومن ذلك استخدام عظام الموتى وبعض أجزاء من عظام الحيوانات أو مخالب الطيور، التى كانوا يتشاءمون منها. ومن ناحية أخرى كانوا ينصحون روادهم بحمل الحمائل وتعليقها فى الجبهة لحماية ودفع الأذى أو لمنح البركة والتوفيق والنصر فى الحرب وكانت الحمائل على صنفين، الطبيعى ومنها أنواع معينة من الأحجار أو النباتات أو المعادن النادرة وقد يكون جزء من إنسان أو حيوان. والصنف الآخر معمول وهو الحمائل المكتوبة أو المنقوشة أو المصورة، وهى التى كتبت أو نقشت بأسلوب خاص يمتاز بالغرابة والغموض مع تذييلها بأجزاء من الكتب المقدسة أو الأدعية أو أسماء الآلهة أو الجن أو الملائكة. والحمائل هى ما كان يعرف عند العرب بالتمائم.

وكانت الرقية من أشهر عاداتهم الاجتماعية فى مداواة بعض الأمراض المستعصية وخاصة فيما يتعلق منها بالعصبية مثل الحمى والصرع ولدغات العقارب والحيات. ويتم ذلك بقراءة شئ على المريض ثم النفث عليه. فضلا عن ذلك استعملتها المرأة العربية بكثرة لاعتقادها أن الخرز له أثر فى إصلاح أمرها من اجتلاب خير أو دفع مكروه، وكانت تقرأ عليها كلمات أعدها السحرة لهن ومن أنواع الخرزات الهنمة[١]، والدردبيس[٢]، وكرار[٣]، والقبلة[٤]، والصرفة[٥]، والعطفة[٦]، والينجلب[٧]، وكان رقاهن لتأليف القلوب هوابة. هوابة ابرق والسحابة. أخذته بمركن فحبه تمكن. أخذته بإبرة فلا يزل فى عبرة. جلبته باشفى فقلبه لا يهدأ. جلبته بمبرد فقلبه لا يبرد.

(١) الهنمة : خرزة تجتذب بها المرأة قلب زوجها؛ ابن منظور : لسان العرب، جـ٦، ص١٠٧.

(١) الدردبيس : خرزة سودا تتحبب بها المرأة إلى زوجها.

(٢) كرار : خرزة يؤلف بها نساء البادية قلوب رجالهن؛ ابن منظور : لسان العرب، جـ٦، ص٤٥٢.

(٤) القبلة : خرزة نساء الأعراب ورقيتها «يا قبلة أقبليه».

(٥) الصرفة : خرزة يصرفن بها الرجال إذا قست قلوبهم.

(٦) العطفة : خرزة يعطفن بها الرجال إذا قست قلوبهم.

(٧) الينجلب : خرزة يتخذنها للرضا بعد الغضب؛ الألوسى : بلوغالأرب، جـ٣، ص٧٠٦.

كذلك كانت المرأة العانس تقوم ببعض العادات من أجل إيجاد خطيب لها، فمن ذلك نشر جانب من شعرها وتكحيل إحدى عينيها وتكحيل إحدى رجليها على أن يكون ذلك ليلا، ثم تقول، يالكاح، أبغى النكاح قبل الصباح، وكان يجب عليها أن تلبس خرزة القرزحلة[1]، وقد سخر منها أحد الشعراء بقوله :

لا تنفع القرزحلة العجائزا إذا قطعتا دونها المفاوزا

ومن عاداتهم الاجتماعية أن يعقد الرجل طرفا من غصن الشجر بطرف غصن آخر لقياس حفظ امرأته لنفسها وعدم خيانته. ومن ذلك أيضاً أن أحدهم إذا أراد دخول قرية واتقاء وتجنب وبائها، فعليه أن يقف على بابها ثم ينهق نهقة الحمار ثم يعلق عليه كعب أرنب، ثم يدخل الموضع المراد دون حذر[2]، وذلك لاعتقادهم أن كعب الأرنب ينفي جنان الدار وشيطان الحماطة[3] وغول القفر، كما استعملوا سن الثعلب، فمن ذلك أن جنية أرادت صبيا فلم تقدر عليه، فلما سئلت أمه عن ذلك، قالت كانت عليه نفرة ثعالب وهررة.

كانت تقاليد العرب فى الزواج أن يتقدم الرجل إلى كبير العشيرة يطلب يد فتاة من بناتها بما يرغب من صفات فلما نزع قيس بن زهير – سيد عبس – إلى النمر بن قاسط، من بطون ربيعة وقال : يا معشر النمر، نزعت إليكم غريباً حزيناً فانظروا لى امرأة أتوجها، قد أذلهاالفقر، وأدبها الغنى لها حسب وجمال، فاختاروا له على هيئة ما طلب. فكانت آثر الناس عنده وأذهبهم لبلواه[4]. فكان مرجع العربى اختيار شرف الحسب وسناء الذكر قبل الثراء. وبالمقابل كان للفتاة حرية الاختيار وبخاصة حينما يتقدم أكثر من خطيب يطلب يدها. فلما أقبل سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب على عتبة بن ربيعة يخطبان إليه ابنته هند، عرض عليها أمر كل منهما فآثرت أبا سفيان،

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، جـ١٤، ص٧٢.

(٢) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٣٤٨.

(٣) الحماطة : شجرة شبيهة بالتين تأوى إليها الحيات.

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص٢٧٣.

فزوجت منه[1]، وكانت هند قد طلبت من أبيها ألا يوافق على زواجها قبل أن يعرض الأمر عليها قائلة : «يا أبت لا تزوجنى من أحد حتى تعرض علىّ أمره وتبين لى خصاله»، فلما تقدم كل من سهيل وأبى سفيان لخطبتها، دخل عليها أبوها وهو يقول :

أتاك سهيل وابن حرب وفيهما	رضا لك يا هند الهنود ومقنع
ومامنهما إلا يعاش بفضلة	وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزأ	وما منهما إلا أعز سميدع
فدونك فاختارى، فأنت بصيرة	ولا تخدعى إن المخادع يخدع

قالت: يا أبت، والله ما أصنع بهذا شيئا، ولكن فسر لى أمرهما وبين لى خصالهما، حتى أختار لنفسى أشدهما موافقة لى. فبدأ يذكر سهيل بن عمرو فقال : أما أحدهما ففى سطة من العشيرة (أى من أوساطهم وخيارهم) وثروج من العيش، إن تابعته تابعك. وإن ملت عند حط إليك، تحكمين عليه فى أهلة وماله. وأما الآخر، فموسع عليه، منظور إليه فى الحسب الحسيب، والرأى الأريب، مدرة أرومته وعز عشيرته، شديد الغيرة، كثير الطيرة لا ينام على ضلعه ولا يرفع عصاه عن أهله. فقالت : يا أبت الأول سيد مضياع للحرة. فما عست أن تلين بعد إبائها، وتضع تحت جناحه إذا تابعها بعلها، فاشرت وخافها أهلها فأمنت. فساءت عند ذلك حالها وقبل عند ذلك دلالها. فإن جاءت بولد أجمعت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه لى. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العفيفة، وإنى للتى لا أريب له عشيرة فتغيره ولا تصيبه بذعر فتضيره وإنى لأخلاق مثل هذا موافقة فزوجنيه فزوجها من أبى سفيان، فولدت له يزيد ثم معاوية[2].

وتتجلى حرية الفتاة فى الموافقة على من يتقدم لخطبتها أو الرفض فيما روى عن الخنساء بنت عمرو بن الشريد، لما تقدم دريد بن الصمة لخطبتها

---

(١) ابن عبد ربه : المصدر السابق، جـ٣، ص٢٧٤.

(٢) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ٩، ص٥٣-٥٤.

قال له أبوها : مرحباً بك يا أبا قرة، إنك كريم لا يطعن في حسبه، والسيد لا يرد عن حاجته، والفحل لا يقرع أنفه. ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيره. وأنا ذاكرك لها وهي فاعلة. ثم دخل إليها وقال لها : يا خنساء، أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم، دريد بن الصمة يخطبك وهو من تعلمين فقالت يا أبت : أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح وناكحة شيخ بن جشم هامة اليوم أو غدا فخرج إليه أبوها، وقال : يا أبا قرة قد امتنعت. ولعلها أن تجيب فيما بعد فانصرف[1] بل ربما اختارت المرأة لنفسها الرجل المناسب، فلا لوم ولا نكير، فقد وصف لخديجة بنت خويلد الشريفة، ذات الحسب والنسب والمال، محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام وما كمله الله به من أدب طاهر وخلق عظيم. فخطبته لنفسها.

كان الرجال في بعض الأحيان يرسلون امرأة يثق بها إلى بيت العروس لتأتي له بوصف عنها بعد محادثتها وفحصها إذا لم يوافق أهلها على أن يجالسها، أما الشائع عندهم فإن من حق الرجل ذلك[2]، وكان الرجال يفضلون الغرائب من النساء لأنهن على اعتقادهم أولد للنجباء من الأبناء وقيل في ذلك :

انــذر من كان بعيــد الهـم   تزويـــج أولاد بنـــات العم

فليس ناج من ضوى وسقم[3]

وقد شجع الرسول ﷺ على الزواج من الغرباء لقوله : «اغتربوا لا تضووا» أي تزوجوا الغرائب حتى لا ينكفن عن الضعاف[4]، على أن بعض أبناء العشائر كانوا يؤثرون الأقارب من النساء لأنهن أصبر على نبوة[5] الخلق وريب

(١) الأصفهاني : المصدر السابق، جـ١٤، ص١٣٢.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص٢٨٢.

(٣) الضوى : دقة العظم وقلة الجسم خلقة أو هزالا.

(٤) الزبيدي : تاج العروس، جـ١٠، ص٢٢١.

(٥) نبــوة : ما يشوبه من السوء.

الزمان، وكان بنو عبس يؤثرون بنات العم، ذلك أنهم لما سئلوا أى النساء وجدتم أصبر، فقالوا بنات العم[١].

كانت الخطوة التالية بعد الاختيار هى الاتفاق على المهر، الذى كان يعد فرضاً واجباً على الرجل، لا يتم الزواج دون تقديمه، وإلا أعتبر بغيصا وسفاحاً. وتستثنى من ذلك حالة الأسر فى الحروب[٢] فكان للرجل حق الدخول بالمرأة دون مهر، لذلك تمسك الحرائر وأهلوهم لأنه كان يعد من دلائل الشرف والحرية وعلو المكانة. وكان المهر من سلع مختلفة كقطمان الضأن أو العطور أو الأقمشة أو قطع النقد من الذهب والفضة، وكان أعز مهورهن الذهب السبيك، والأينق العشراء، يبذلون منها على قدر رزقهم وقوة ثرائهم، وكان يبلغ عند أصحاب الجاه والثراء نحو مائة رطل أو مائة ناقة، وقد يجمع الرجل بينهما. فكان مهر عبدالمطلب بن هاشم لفاطمة بنت عمرو مائة ناقة ومائة رطل من الذهب[٣]. أما من قدر عليه رزقه فكان يسوق إلى امرأته عرضا مما يباع ويشترى. وذكر ابن سيده أن العرب يقولون الأزواج ثلاثة : زوج مهر، وزوج بهر، وزوج دهر. أما زوج مهر، فرجل لا شرف له يثنى المهر ليرغب فيه، وأما زوج بهر، فالشريف وإن قل ماله تتزوجه المرأة لتفتخر به، وأما زوج دهر، ذلك الكفء الذى لا عيب فيه[٤]. وكان المهر يصبح ملكا خاصاً لولى أمر الفتاة يتصرف فيه كيف يشاء، لذلك كان القوم يبادرون الأب بالتهنئة عندما تولد له بنت قائلين : هنيئاً لك النافحة أى السحابة كثيرة المطر. وبعد الاتفاق على المهر ينتهى الأمر بكلمة الرجل خطب، فيرد عليه بكلمة نكح[٥]، وخلال ذلك ينهض الرجل واقفاً أو يعتلى شرفاً من الأرض أو يتبوأ ظهر راحلته. فإذا انتهى القوم من ذلك نحرت الجزر، ومدت المطاعم وسمع الغناء من مجالس

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار، جـ١ ، ص١٩٧.

(٢) Smith : Kinship and Marriage, p. 76.

(٣) الحلبى : إنسان العيون، جـ١ ، ص٤٨.

(٤) أنظر المخصص، جـ٤ ، ص٢٤.

(٥) الزبيدى : تاج لعروس، جـ١ ، ص٢٥١.

النساء وتسمى وليمة ذلك اليوم بالنقيعة[١]، وهذا اليوم هو ما كان يعرف بيوم الأملاك، أى الاتفاق والعقد وتقديم المهر. ولقد أقر الإسلام هذا التقليد، غير أنه جعل من المهر صداقا حقا من حقوق المرأة خالصاً لها لا ينازعها فيه أحد، قال تبارك وتعالى : ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وأرزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾[٢].

أما يوم البناء وهو يوم الدخول فكان يتميز بالفرح والسرور والبهاء، وكان الفتيان يتبارون باللعب بالرماح، وينتصلون بالسيوف ويستبقون على متون الخيل، ويسرحون ويمرحون. بينما تجلس النساء على النمارق المصفوفة والزرابى المبثوثة، ثم تزين الفتاة ويفرغ عليها الحلى مما تملك وما لا تملك لأن قومها كانوا يستعيرون لها أمتع ما فى الحى من حلى. فمن ذلك أن عتبة ابن ربيعة قد استعار حلى بنى أبى الحقيق لتزف فيها ابنته هند على أبى سفيان[٣]. وكانت النساء تتبارى فى تزيين العروس وتجميلها بكل فنون التجميل من التكحل[٤]، والتنمص[٥]، والتزجيج[٦]، والتفليج[٧]، والتلمية[٨]، والوشر[٩]، والوصل[١٠]، والخضاب[١١].

---

(١) الحلبى : إنسان العيون، جـ١، ص١٤٩.

(٢) سورة النساء : الآيتان (٤-٥).

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبير، جـ٧، ص١٧١.

(٤) التكحل : اخذ العين بقليل من الكحل تداوياً أو ازدياناً وأكثر ما يكون التكحل بحجر الأثمد.

(٥) التنمص : أخذ ما بين الحاجبين من الشعر.

(٦) التزجيج : حف ما حول الحاجبين من العشر وإطالتهما بالأثمد.

(٧) التفليج : تفريق ما بين الثنايا والرباعيات.

(٨) التلمية : خضاب الشفاة واللثات.

(٩) الوشر : تحزيز الأسنان وتحديدها بمبرد ونحوه.

(١٠) الوصل : أن تصل المرأة شعرها بشعر مستعار.

(٨) الخضاب : تجميل الوجنات بالخضاب.

القسطلانى : إرشاد السارى، جـ٨، ص٤٧٥-٤٧٧.

كانت العروس تجلس إلى أمها لتلقى النصائح قبيل حملها إلى بيت زوجها، فلما خطب الحارث بن عمرو - ملك كندة إبنة عوف بن محلم الشيبانى - قالت لها أمها : «أى بنية، إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال.. أى بنية إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت، وعشك الذى فيه درجت، إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكونى له أمة، يكن لك عبدا، واحفظى له خصالا عشرا، يكن لك ذخرا، أما الأولى والثانية، فالخشوع له بالقناعة وحسن الطاعة. وأما الثالثة والرابعة، فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبح ولا يشم منك إلا أطيب ريح.. وأما الخامسة والسادسة، فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة. وأما السابعة والثامنة، فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة، فلا تعصين له أمرا، ولا تفشين له سرا، فإنك إن خالفت أمرة، أوغرت صدره، وإن أفشيت سره، لم تأمنى غدره. ثم إياك والفرح بين يديه إن كان ترحا والترح بين يديه إذا كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكونى أشد ما تكونين له إعظاما، يكن أشد ما يكون لك إكراما، وأشد ما تكونين له موافقة يكون أطول ما يكون لك مرافقة. واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك، فيما أحببت أو كرهن، والله يخير لك»[١].

وفى نهاية يوم البناء تسير الفتاة فى زيها البهى فى حشد من أقاربها ومعارفها اللائى يودعنها عند مفارقتها لهن باليمن والبركة.

ومن تقاليدهم استقبال المولود بذبح شاه وتلطيخ رأسه بشيء من دمها، وتعرف هذه الذبيحة بالعقيقة والعقيقة هى شعر المولود حين يخرج على رأسه

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ٣، ص٢٧٢.

فى بطن أمه ونسب للذبيحة لذبحها عند الاحتفال بحلق هذا الشعر(١). ثم يتم دلْـك فم المولود بالتمر الممضوغ أو عسل النحل أو دلك جسمه بالملح أو الحلو لأن الحلو رمز السعادة والفرح، والملح عنصر هام للحياة. ولأن الخبز والملح هما رمز الصداقة والمودة والمحافظة على العهود. وكان الختان من عاداتهم التى تمسكوا بها وهو نوع من أنواع العبادة الدموية التى كان يقدمها الإنسان إلى الآلهة، فقطع جزء من البدن وإسالة الدم منه هوتضحية فى عرفهم، كما كان حلق الشعر أوتقصيره يعد نوعاً من أنواع التقرب إلى الأرباب(٢). وكان العرب يعيبون من لم يختتن، ويعتبرونه بقولهم الأغلف والأعزل، ويعدون الأغلف ناقصاً وكانوا يلبسون لطفل الكحلة، وهى خرزة تجعل على الصبيان فتقيهم أذى العين وتحميهم من الجن والإنس وربما اتخذها النساء لتأليف قلوب الرجال.

كان العرب قبل الإسلام يفضلون الأولاد الذكور على البنات. وكانت الزوجة التى لا تنجب ذكرا تتعرض للهجر وفرار زوجها منها، فلما تعرضت زوجة أبى حمزة الضبى لهجر زوجها لها والإقامة فى خيمة جيرانه فراراً منها لكثرة إنجاب البنات قالت :

يظل فى البـيت الذى يلينا   يظل فى البـيت الذى يلينا
تا الله مـا ذلك فى أيدينا   تا الله مـا ذلك فى أيدينا
ونحن كـالأرض لزارعـينا   ونحن كـالأرض لزارعـينا

ننبت ما قد زرعوه فينا(٣)

كان الوأد من أقبح العادات التى عرفت عند بعض القبائل العربية قبل الإسلام، فكانوا يدفنون بناتهم حين ولادتهن يدفعهم إلى ذلك إسرافهم فى

---

(١) العينى : عمدة القارئ، جـ١، ص٨٢.

(٢) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص٢٧٧.

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين، جـ١، ص١٠٤.

الاعتزاز بأنفسهم وشرفهم، خوفاً من إلحاق العار بالعشيرة يوم يخطف ابنتهم عدو يهتك عرضها، أو لوجود نقص خلقي أو مرض أو قبح، كأن تكون زرقاء أو شيماء أو كسحاء، وهي من الصفات التي كانوا يتشاءمون منها وقد ذكر الوأد في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت﴾[١]. كما كان من عاداتهم قتل الأولاد ذكورا وإناثا خشية الفقر والفاقة. وقد نهى الإسلام عن ذلك في قوله تعالى : ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾[٢].

كان الوأد يتم بإلقاء الوليدة في حفرة بعد تطييبها وتزيينها ثم يهال عليها التراب حتى تستوى الحفرة بالأرض وقد استنكر الإسلام هذه الفعلة الشنيعة في قوله تعالى : ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب. ألا ساء ما يحكمون﴾[٣].

يرجع إدخال عادة وأد البنات في بلاد العرب إلى رئيس قبيلة ربيعة، وذلك أن ابنته لما وقعت في الأسر خلال إحدى حروب القبيلة، اختارت البنت البقاء في كنف آسرها على العودة إلى بيت أبيها، فغضب زعيم القبيلة واستن هذه العادة السيئة وقلدته بعض العشائر والقبائل فمنها قيس وأسد وهذيل وكندة وبكر بن وائل وتميم[٤].

ومن الجدير بالذكر أن هذه العادة لم تكن ظاهرة عامة في بلاد العرب، بل كان بعض العرب يعيبها ويرى في إنقاذ الموءدة شرفاً ومكرمة لا يبخل في سبيلها بمال، فلما مر صعصعة بن ناجية - جد الفرزدق - يوماً برجل يحفر ليئد ابنته وامرأته تبكي. سأل الرجل عن ذلك فأجابه خشية الفقر. فعرض عليه أن يستبقى ابنته مقابل ناقتين عشراوين يمنحهما إياه، فقبل، فأعطاه

---

(١) سورة التكوير : آية (٧).

(٢) سورة الإسراء : آية (٣١).

(٣) سورة النحل : آية (٨٥).

(٤) الأصفهاني : كتاب الأغاني، جـ١٩، ص٣.

صعصعة ناقتين وحملا ثم قال فى نفسه، إن هذه لمكرمة ما سبقنى إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها وقد فخر الفرزدق بذلك فى قوله[١] :

أبى أحد الغيثين صعصعة الذى
متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر
أجار بنـات الوائدين ومن يجـر
على الفقـر يعـلم أنه غيرمحضر

كذلك كان زيد بن عمرو بن نفيل يقوم بذلك، فكان يحيى الموءودة بأن يكفى أباها مؤونتها إن كان فقيرا[٢].

قصارى القول أن عادة وأد البنات لم تكن متبعة عند كافة القبائل العربية فى الجاهلية، بل اقتصرت على بعض البطون والعشائر وقام كثير من سـادات العرب بمحاربة هذه العادة البشعة والتخفيف من آثارها. ولم يرتبط الوأد بالفقر وحده، لأنه لم يتقصر على الطبقات الفقيرة بل كان عاماً عند فقراء القبائل وأغنيائها، بل أن الفقر لم يرد فى الآيات القرآنية الكريمة التى نزلت فى الوأد إنما كانت خشية الإملاق هى السبب الأساسى فى قتل الأولاد. وقد نهى الإسلام عن ذلك فى مواضع كثيرة فمنها قوله تبارك وتعالى : ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مار رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾[٣].

كان من عاداتهم الاجتماعية عقر العقائر على قبور الموتى وتلطيخ جوانب القبر ونضخة بالدم، حتى يشفى غليل الروح ويسكنها وذلك لاعتقادهم أن روح الميت تتحول وتصير طائرا يرفرف فوق قبره، ويسمى الهامة ويظل يصيح

---

(١) الأصفهانى : كتاب الأغانى، جـ١٩، ص٣.

(٢) مسلم : صحيح مسلم، جـ٣، ص١١٢.

(٣) سورة الأنعام : آية (١٤٠).

اسقونى حتى يؤخذ بثأره فى حالة كون الميت قتيلا. قال زياد الأعجم يرثى المغيرة بن المهلب[1] :

فإذا مررت بقبره فاعقر به
كوم الجلاد وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها
فلقد يكون اخادم وذبائح
يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى
اضربك حتى تقول الهامة اسقونى

ومن عاداتهم أيضاً حمل رؤسائهم على أعناقهم إذا اشتد بهم المرض لكى يشفى لأن رفعه على الأعناق أكثر راحة لروحه من وضعه على الأرض[2].

كان الإعلان عن موت الشخص بالبكاء والعويل، وكان النعى والبكاء بحسب منزلة الميت ومكانته، فكان شق الجيوب عليه من وسائل التقدير والإكرام، يقوم بذلك ناع أو جملة نعاة، فيركب الناعى فرسا ويسير بين الناس ذاكراً اسم الميت وأعماله الجيدة وحسبه ونسبه. وكانت زوجة الميت يطلق عليها النواحة. واجتماع النسوة للبكاء والعويل على الميت يسمى مناحة[3]. ومن عاداتهم عند ذلك شق الجيوب وتعفير الرؤوس بالتراب ولطم الخدود وكانت المناحة تستمر أياماً يذكر خلالها مناقب الميت وكان يشترك مع أهل الميت نادبات محترفات وكانت مدة العزاء عند العرب قبل الإسلام عاما كاملا تقوم خلاله الصالقات[4] والحالقات[5] والشاقات[6] بعملهن. وقد

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٣٤٣.
(٢) الألوسى : المرجع السابق، جـ٣، ص٢٠.
(٣) الزبيدى : تاج العروس، جـ٢، ص٢٤٣.
(٤) الصالقة : هى التى ترفع صوتها بالنياحة.
(٥) الحالقة : هى التى تحلق رأسها عند نزول المصيبة.
(٦) الشاقة : هى التى تشق جيبها.

نهى الإسلام عن ذلك فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : «ليس منا من صلق أو حلق أو خرق»[١].

كانت المناحة تستمر سبعة أيام، تندب فيها لانساءوتنوح فى الصباح والمساء وفى أيديهن النعال تصفقن بها وجوههن وصدورهن[٢]. وتظهر قريبات الميت حاسرات يلطمن الخدود ويشققن الجيوب، ولا يستعملن مدة المناحة طيبا أو زيتا، ولا يغسلن رؤسهن ويقتصرن على استعمال ملابس الحزن وهى الملابس البيضاء. ذلك أن اللون الأبيض كان شعار الحزن فى بلاد الشام والحجاز. وكانت زوجة الميت تقيم من بعده سنة كاملة لا تمس ماء ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعرا[٣]. وكانت تقيم في الحفش وهو عبارة عن خيمة أو بيت صغير، وذلك حداداً على وفاة زوجها وتلبس شر ثيابها. يقول صاحب تاج العروس : «كانت المرأة إذا توفى زوجها دخلت خفشا ولبست شر ثيابها حتى تمر بها سنة. ثم تؤتى بدابـة؛ شـاة أو طائر فتفتض بها، ثم تخرج فتعطى بعرة ترمى بها.. وكانت لا تغتسل ولا تمـس ماء ولاتقلم ظفرا ولا تنتف من وجهها شعرا، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر، ثم تفتض بطائر.. وتنبذه فلا يكاد يعيش»[٤].

جرت عادة العرب قبل الإسلام على دفن الميت بملابسه وتغطية رأسه وقد حل الكفن فى الإسلام محل الملابس، إلا فى حالة الاستشهاد فيدفن الشهيد بملابسه التى استشهد فيها[٥]، وكانوا يصلون على الميت وذلك بوضعه على سرير ثم قيام وليه بذكر محاسنه ومآثره، وإذا كان سيداً عظيماً ذكرت مناقبه مرة أخرى عند قبره وكان يتم دفن الموتى على جوانب طرق الرحلة أثناء سير القوافل. بينما يدفن فى المنزل فى حالة الاستقرار. وقد نهى الإسلام عن

---

(١) مسلم : صحيح مسلم، جـ١، ص٧٠.

(٢) المبرد : الكامل فى اللغة والأدب، جـ٢، ص٢٦٣.

(٣) القسطلانى : إرشاد السارى ، جـ٨، ص٢٠٨-٢١١.

(٤) الزبيدى : تاج العروس، جـ٥، ص٧٠.

(٥) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٥، ص٢٨٩.

اتخاذ المنازل مقابر. قال الرسول صلى الله عليه وسلم «لا تجعلوا بيوتكم مقابر»[١]. وكانوا يدفنون مع الموت بعض الأشياء التي قد يحتاجها الميت في حياته الأخرى فعثر في مقابر أهل اليمن وجنوب الجزيرة العربية على حلي وأحجار ثمينة وغيرها مدفونة مع موتاهم. وكان بعض العرب يدفنون موتاهم في مقابر منفصلة عن المنازل وفي هذه الحالة كانوا يضربون القباب على القبور ليقيم فيها أقارب الميت ليجاوروه خلال مدة العزاء ولاستقبال زائريه وفضلا عن ذلك كانوا يعقلون ناقة الميت عند قبره بأن يعكسوا عنقها ويديروا رأسها إلى مؤخرها ويتركوها في حفرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت وربما أحرقت بعد موتها. وكانوا يزعمون أن من مات ولم تعقل ناقته عند قبره، حشر ماشياً، ومن كانت له بلية (الناقة المعقولة) حشر راكبا على بليته وفي ذلك يقول عويمر النبهاني[٢] :

ابني لا تنس البليـة إنها لابيـك يوم نشوره مركوب[٣]

كان القبر عند العرب محترما مهابا مقدسا، فكانوا يضعون العلامات حولهْ حتى لا يقترب منه إنسان أو حيوان وكانوا يحلقون شعورهم أو بعضها ويرمونه على القبر، وحلق الضفيرتين إكراماً وتعظيماً كما كانوا يفعلون مع الآلهة في مواسم الحج، وفي هذا تضحية بأعز ما يملكون. والقبر تسمية كانت شائعة في بلاد العرب قبل الإسلام، والمقبرة هي موضع القبر[٤]. والقبر المسوى مع الأرض كان يسمى رمساء فإذا رفع عنها فهو قبر مسنم، فقال ابن مغفل أرمسوا قبري رمساً»[٥]، وقد نهى الإسلام عن تسنيم القبور وجعلها حكمها في حكم الأوثان[٦]، وذلك للقضاء على ظاهرة تقديس القبور.

---

(١) ابن القيم الجوزية : زاد المعاد، جـ٤، ص٢٣٩.

(٢) الألوسي : بلوغ الأرب، جـ٢، ص٣٤٠-٣٤٢.

(٣) ابن منظور : لسان العرب، جـ٦، ص٣٧٦.

(٤) ابن منظور : لسان العرب، جـ٦، ص٣٧٦.

(٥) ابن منظور : المصدر السابق، جـ٧، ص٤٠٥.

(٦) مسلم : صحيح مسلم، جـ٣، ص٦١.

أما عاداتهم فى الاحتفالات فكان لهم يومان يلعبون فيهما ويلهون وهما النيروز والمهرجان نقلا عن الفرس فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى يثرب أبطلهما وأحل محلهما يومى الفطر والأضحى. أما الأعراب فى البادية فكانوا يحتفلون بيومى السبع والسباسب، قال النابغة الذبيانى[١] :

رقاق النعال، طيب حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب

وكانوا يحتفلون بأعيادهم بضروب مختلفة من التسلية فمنها؛ الصيد وسباق الخيل ولعب الكرة والال والجماح، والمدحاة والأرجوحة، والخدروف وضاح ولعب الميسر، وكان الصيد من أمتع أنواع التسلية، خاصة إذا ما اقترن بالمراهنات، فكان الرجل يراهن صاحبه على شئ معلوم هذا رهنا وهذا رهنا، فأيهما فاز فى السباق أخذ رهنه ورهن صاحبه[٢]. أما لعب الكرة فكان يستعمل فيه الصوالجة وشبيها بذلك القلة والمقلى وهما عودان، فيرمى الصبى بالقلة فى الهواء ثم يضربها بمقلى فى يده وإذا وقعت كان طرفاها مجافيين للأرض، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع فيعترضها بالمقلى فتطير فى الهواء[٣].

---

(١) الألوسى : بلوغ الأرب، جـ١، ص٣٤٧

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ١ ، ص٢٠٧.

(٣) ابن سيده : المخصص، جـ٤، ص١٧-١٩.



المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمعربة.

ثانياً : المراجع الأجنبيـة.



المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

القـرآن الكريم :

* إبراهيم أحمد العدوى :

«التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية»، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧م.

* ابن الأثير، على بن أحمد بن أبى الكرم (ت ٦٣٠هـ) :

ـ «أسد الغابة فى معرفة الصحابة»، تحقيق الأستاذ/ محمد صبيح، القاهرة، ١٩٦٤م.

ـ «الكامل فى التاريخ»، ٩ أجزاء، بيروت ١٩٧٨م.

* أحمد شلبى :

ـ «موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية»، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٢م.

* أحمد فخرى :

ـ «اليمن ماضيها وحاضرها»، القاهرة، ١٩٥٧ .

ـ «دراسات فى تاريخ الشرق القديم»، القاهرة، ١٩٦٣م.

* أحمد محمد الحوفى :

ـ «المرأة فى الشعر الجاهلى»، القاهرة، ١٩٥٤م.

* الأزرقى، أبو الوليد محمد بن عبدالله (ت ٢٢٣هـ) :

ـ «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار»، مكة المكرمة، سنة ١٣٥٢هـ.

* إسرائيل ولفنسون :

ـ «تاريخ اليهود فى بلاد العرب»، القاهرة، ١٩٢٧م.

* الأصفهانى، على بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت ٣٥٦هظ) :

ـ «كتاب الأغانى»، ٢١ جزءا، القاهرة، ١٩٢٧م، ١٩٣٦.

* السيد عبد العزيز سالم :

ـ «دراسات في تاريخ العرب»، الجزء الأول، الاسكندرية، ١٩٦٧م

* السيد محمود شكرى الألوسى :

ـ «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٢٤.

* الويس موسل :

ـ «شمال الحجاز»، ترجمة د. عبدالمحسن الحسينى، الاسكندرية، ١٩٥٢م.

* أميل درمنجم :

ـ «حياة محمد»، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٤٥م.

* أندروليام سن :

ـ «صحار عبر التاريخ»، ترجمة أمين عبدالله، عمان، ١٩٧٩م.

* البخارى، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) :

ـ «صحيح البخارى»، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٨هـ.

* البكرى، أبو عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ) :

ـ «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع»، القاهرة، ١٩٥٤.

* البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) :

ـ «أنساب الأشراف»، دار المعارف بمصر ١٩٤٥م

* البيهقى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن على (ت ٤٥٨هـ) :

ـ «السنن الكبرى»، ٩ أجزاء، دار المعرفة، بيروت.

* تيودور نولدكه:

ـ «أمراء غسان من آل جفنة»، ترجمة قسطنطين رزيق، بيروت ١٩٣٣.

* الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) :

ـ «كتاب التبصر بالتجارة»، القاهرة، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

ـ «كتاب الحيوان»، القاهرة، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

ـ «البيان والتبيين»، القاهرة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

* الجزرى، أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير (ت ٦٠٦هـ).
ـ «جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ»، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٩٤٩-١٩٥١م.
* جـواد على :
ـ «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٨ مجلدات، المجمع العملى العراقى، ١٩٥١-١٩٦١م.
* جورج فضلو حورانى :
ـ «العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل الوسطى»، ترجمة د. يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م.
* جورجى زيدان :
ـ «العرب قبل الإسلام»، بيروت، ١٩٦٨م.
* جوستاف لوبون :
ـ «حضارة العرب»، ترجمة عادل زعيتر، عيسى البابى الحلبى بمصر ١٩٦٤م.
* ابن حزم، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) :
ـ «جمهرة أنساب العرب»، دار المعارف بمصر، ١٩٤٨م.
* حسن إبراهيم حسن :
ـ «تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى»، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م.
* الحلبى، على بن برهان الدين إبراهيم بن أحمد (ت ١٠٤٤هـ) :
ـ «إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون»، ثلاثة أجزاء، دار المعرفة، بيروت.
* حمزة الأصفهانى، أبو عبيد الله حمزة بن الحسن الأصفهانى (ت٣٠٦هـ) :
ـ «تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء»، برلين ١٣٤٠هـ.
* الخـازن، علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم (ت٧٢٥هـ) :
ـ «لباب التأويل فى معانى التنزيل»، ٧ أجزاء، مكتبة التقدم العلمية، القاهرة، ١٣٤٩هـ.
* ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ) :
ـ «كتاب المسالك والممالك»، مجموعة المكتبة الجغرافية، نشردى غوية، ١٨٨٩م.

* الخزاعى، أبو الحسن على بن ذى الوزارتين محمد :
- «الدلالات السمعية على ما كان فى عهد الرسول ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية»، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٦٣٨.
* ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) :
«المقدمة»، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.
«العبر وديوان المبتدأ والخبر»، بيروت، ١٩٦٨م.
* ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدى بن دريد (ت ٣٢١هـ) :
«كتاب الاشتقاق»، طبعة جوتنجن، ١٨٥٤م.
* الدمشقى، أبو الفضل جعفر بن على :
«الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأغراض»، القاهرة ١٣١٨هـ.
* الدميرى، كمال الدين أبو ابقاء محمد بن موسى (ت ٨٠٨هـ) :
«حياة الحيوان الكبرى»، مجلدان، ١٣١١هـ.
* الدهلوى، أحمد شاه بن عبدالرحيم الدهلوى (ت ١١٧٦هـ) :
«حجة الله البالغة»، مصر ١٣٢٢هـ.
* ديتلف نلسن :
«التاريخ العربى القديم»، ترجمة د. فؤاد حسنين، القاهرة، ١٩٥٨م.
* رشيد الجميلى :
«تاريخ العرب فى الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية»، بيروت، ١٩٧٢م.
* الزبيدى، محب الدين أبى الفيض محمد بن محمد ابن عبدالرازق (ت ١٢٠٥هـ) :
«تاج العروس فى جواهر القاموس»، ١٠ مجلدات، مصر، ١٣٠٦هـ.
* الزبيرى، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦هـ) :
«كتاب نسب قريش»، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣م.
* زكريا مهران :
«موجز النقود والسياسة النقدية»، مطبعة مصر، ١٩٤٤م.

* سبتينوموسكاتى :
«الحضارات السامية القديمة»، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٦٨م.
* ابن سـعد، محمد (ت ٢٣٠هـ) :
«كتاب الطبقات الكبير»، لجنة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٨م.
* سـعيد الأفغانى :
«أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام»، دار الفكر، دمشق ١٩٦٠م.
* سعيد النجار :
«نظرية الثمن»، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م
* السـمهودى، نور الدين على بن جمال الدين (ت ٩١١هـ) :
«وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ»، القاهرة، ١٣٢٦هـ.
* السـهيلى، عبدالرحمن أبو القاسم بن عبدالله بن أحمد (ت ٥٨١هـ) :
«كتاب الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية»، جزءان، مطبعة الجمالية بمصر، ١٩١٤م.
* سـيد مظفر الدين نادفى :
«التاريخ الجغرافى للقرآن»، ترجمة عبدالشافى غنيم، لجنة البيان العربى، ١٩٥٦م.
* ابن سيده، أبو الحسن على بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ) :
«المخصص»، ١٧ جزءاً، بولاق ١٣١٦-١٣٢١هـ.
* السـيوطى، عبدالرحمن بن أبى بكر جلال الدين (ت٩١١هـ) :
«الإكليل فى استنباط التنزيل»، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
«تدريب الراوى»، دار الكتب الحديثة.
* الشـافعى، أبو عبيد الله محمد بن إدريس بن العباس بن شافع (ت ٢٠٤هـ).
«الأم»، ٧ مجلدات، بولاق، ١٣٢١-١٣٢٦هـ.
* الشـوكانى، محمد بن على بن محمد بن عبد الله (ت ١٢٥٥هـ) :
«نيـل الأوطار، شرح منتقى الأخيار من أحاديث سـيد الأخيار»، ٩مجلدات، دار الجبـل، ١٩٧٣م

* الصنعانى، الزمير محمد بن إسماعيل الكحلانى (ت ١١٨٢هـ) :
«سبل إسلام بشرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام»، دار الكتب العلمية، بيروت.
* الطبرسى، أبو الفضل على بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨هـ) :
«مجمع البيان لعلوم القرآن»، ١٢ جزءاً، القاهرة، ١٩٥٨.
* الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) :
«تاريخ الرسل والملوك»، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨م.
* الطليطى، صاعد أحمد (ت ٤٦٣هـ) :
«طبقات الأمم»، بيروت، ١٩٨١م.
* ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد (ت ٣٤٩هـ) :
«العقد الفريد»، القاهرة، ١٩٢٨م.
* أبو عبيد، أبو العبيد القاسم عبدالرحمن عبدالرحمن ابن سلام (ت ٢٢٤هـ) :
«الأموال»، القاهرة، ١٣٥٣هـ.
* عبدالرحمن فهمى :
«النقود العربية فى ماضيها وحاضرها»، القاهرة، ١٩٦٤م.
* عبدالعزيز مزروع الزهرى :
«قصص عكاظ»، دار الكتاب العربى، ١٩٥١م.
* عبد الله عفيفى :
«المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها»، مصر، ١٣٤٠هـ.
* عبد المنعم ماجد :
«التاريخ السياسى للدولة العربية»، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.
* العسقلانى، الشيخ شهاب الدين أحمد بن على بن حجر الكنانى (ت ٨٥٢هـ).
«فتح البارى بشرح صحيح البخارى»، ١٣ جزءا، بولاق، ١٣٠٠هـ.
* على حسنى الخربوطلى :
«تاريخ العراق فى ظل الحكم لاموى»، دار المعارف، ١٩٥٩م

* علي عبد الرسول :

مبادئ الاقتصاد في الإسلام والبناء الاقتصادي في الدولة الإسلامية»، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م.

* عيسى عبده إبراهيم :

«الاقتصاد الإسلامي، مدخل ومنهاج» شركة الطباعة الفنية المتحدة، ١٩٧٤م.

«النقود والمصارف»، بالاشتراك مع عبدالعزيز مرعي، لجنة البيان، القاهرة ١٩٦٢م.

* الفاســي، السيد عبدالحي بن عبدالكبير الحسني الكتاني :

«التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة»، مطبعة الرباط، ١٣٤٦هـ.

* فيليب حتي :

«تاريخ سورية ولبنان وفلسطين»، ترجمة جورج حداد وآخرين بيروت، ١٩٥٧م.

«تاريخ العرب»، بالاشراك مع ادوارد جورجي، بيروت، ١٩٦١م.

* ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) :

«كتاب المعارف»، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

« عيون الأخبار»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٣م.

* القرطبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ) :

«الجامع لأحكام القرآن»، ٢٠ جزءا، دار الكتب المصرية، ١٣٥٧هـ.

* القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القاضي (ت٦٨١هـ) :

«عجائب الخلوقات وغرائب الموجودات»، ١٩٧٣م.

* القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر عبدالملك بن أحمد بن محمد :

«إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري»، ١٠ أجزاء، مصر ١٢٨٥هـ.

* القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :

«صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، دار الكتب الخديوية، ١٩١٤م.

* ابن القيم الجوزية، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) :

«زاد المعاد في هدى خير العباد»، ٤ أجزاء، المطبعة المصرية، ١٣٧٩هـ.

* كارل الفونسو :
«علم الفلك، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى»، ١٣٥٧هـ.
* كارل بروكلمان :
«تاريخ الشعوب الإسلامية»، ترجمة نبيه فارس، دار العلم للملايين، بيروت.
* الكاســانى، علاء الدين أبى بكر بن مسعود الكاسانى الحنفى (ت ٥٨٧هـ) :
«بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع»، نشر زكريا على يوسف، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٧٢م.
* ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٧٤هـ) :
«البداية والنهاية»، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٨م
* الكلبى، زبو المنذر هشام بن محمد السائب، (ت ٢٠٤هـ) :
«كتاب الأصنام»، دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م
* لويس شيخو :
«النصرانية وآدابها بين عرب الجاهليين»، بيروت ١٩٣٣م
* ابن ماجه، الحافظ أبى عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى (ت ٢٧٥هـ) :
«سنن ابن ماجه»، مجلدان، مصر، ١٩٥٣م.
* المـبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ) :
«الكامل فى اللغة والأدب»، جزءان، مصر، ١٣٢٤هـ.
* ابن المجاور الشيخ جمال الدين أبى الفتح يوسف بن يعقوب الشيبانى :
«صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز» المسمى بتاريخ المستبصر، تصحيح ومراجعة أوسكر لوفغرين، مطبعة بريل، ليدن ١٩٥١م.
* محمد أحمد جاد المولى :
«قصص القرآن»، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٧٨م.
* محمد بيومى مهران :
«دراسات فى تاريخ العرب القديم»، المملكة العربية السعودى، ١٣٩٧هـ.
* محمد توفيـق :
«آثار معين فى جوف اليمن»، منشورات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٥١.

* محمد جمال الدين سرور :
«قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد ﷺ»، دار الفكر العربى، ١٩٦٤م.
* محمد حسين هيكل :
«فى منزل الوحى»، مكتبة النهضة المصرى، ١٩٥٧م.
«حياة محمد»، القاهرة، ١٣٥٨هـ.
* محمد عبد الله زغلول :
«المصنوعات الجلدية»، بالاشتراك مع محمد على محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢م
* محمد عبد المعيد خان :
«الأساطير العربية قبل الإسلام»، القاهرة، ١٩٣٧م.
* محمد مبروك نافع :
«تاريخ العرب، عصر ما قبل الإسلام»، القاهرة، ١٩٤٩م
* محمود طـه أبو العلا :
«جغرافية شبه جزيرة العرب»، الجزء الأول، لجنة البيان العربى، القاهرة، ١٩٦٥م.
* المرتضى : السيد أبو القاسم على بن الطاهر بن أحمد (ت ٤٣٦هـ) :
«أمالى الشريف المرتضى، ٣ مجلدات، القاهرة، ١٩٠٧م.
* المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ) :
«مروج الذهب ومعادن الجوهر»، كتاب التحرير، ١٩٦٦م.
«التنبيه والإشراف»، بيروت ١٩٦٨م.
* مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى (ت٢٦١هـ) :
«الجامع الصحيح»، المسمى صحيح مسلم، المطبعة المصرية، ١٩٦٦م.
* مصطفى صادق الرافعى :
«تاريخ آداب العرب»، جزءان، مصر ١٣٢٩هـ.
* المقدسى، شمس الدين أبو عبدالله محمد (ت ٣٨٨هـ) :
«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»، طبعة دى غوية، ليدن ١٩٠٦م.

* **المقـريـزى**، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ) :
«أمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع»، تحقيق محمود محمد شاكر القاهرة، ١٩٤١م.
* **منصور على ناصف** :
«التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ﷺ»، ١٥ جزءا، عيسى اليابى الحلبى، القاهرة، ١٣٥١هـ.
* **ابن منظور**، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) :
«لسان العرب»، ٢٠ مجلدا، القاهرة، ١٣٠٠-١٣٠٧هـ.
* **ابن منقـذ**، محب الدين أبو المظفر أسامة بن راشد بن منقذ الكنانى (ت ٥٨٤هـ) :
«المنازل والديار»، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٦٨م.
* **الميـدانى**، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ت ٥١٨هـ) :
«مجمع الأمثال»، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦١م
* **ابن نباته المصرى**، جمال الدين بن نباته (ت ٧٦٨هـ) :
«سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون»، دار الفكر العربى، ١٩٦٤م
* **نزيه مؤيد العظم** :
«رحلة فى بلاد العربية السعيدة من مصر إلى صنعاء»، مجلدان، القاهرة، ١٩٣٧م
* **النـووى**، محيى الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ) :
«شرح النووى على صحيح الإمام مسلم»، ٥ مجلدات، مصر، ١٣٨٣هـ.
* **النـويـرى**، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ) :
«نهاية الأرب فى فنون الأدب»، دار الكتب المصرية.
* **ابن هشام**، أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافرى (ت ٢١٣هـ) :
«السيرة النبوية»، المكتبة التوفيقية بالأزهر.
* **الهمدانى**، أبو محمد الحسين بن أحمد بن يعقوب بن داود (ت ٣٤٣هـ) :
«الإكليل»، نشر وتصحيح انستاس الكرملى، العراق، ١٩٣١م.
«صفة جزيرة العرب»، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٣م.

* **الواقـدى**، أبو عبيد الله محمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧هـ) :
«مغازى رسول الله ﷺ»، جماعة نشر الكتب القديمة، ١٩٤٨م.
* **ياقـوت**، شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى (ت ٦٢٦هـ) :
«معجم البلدان»، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
* **اليعقـوبى**، أحمد بن أبى يعقوب (ت ٢٨٢هـ) :
«تاريخ اليعقوبى»، دار المعرفة، بيروت.

ثانيـًا :المراجع الأجنبية :

* **Barton, G.A.** : "Semitic and Hametic Origins", London, 1934.
* **Davidson, B.** : The lost cities of Africa", U.S.A., 1959.
* **Guidi, Ign.** : "L'Arabie Antéislamique", (Conférences données à l'Universite du Caire en 1909", Paris, 1921.
* **Hitti, P.K.** : "History of the Arabs", London, 1960.
* **Lammens, H.** : "Le Berceau de l'Islam", (L'Arbie Accidental à la Veille de l'Hégire), Rome, 1914.

"La Cité Arabe de Taif à la veille de l'Hégire", (Mélanges de l'Université Saint-Joseph, Tome VIII, Fac. 4), Beyrouth, 1922.

"La Mecque à la veille de l'Hégire", (Mélanges de l'Université Saint-Joseph, Tome IX, Fac. 3), Beyrouth, 1924.
* **Lowie, R.H.** : "Primitive Society, London, 1929.
* **Maqboul, A.** : "commercial Relations of India with Arab World 1000 B.C. up to Modern Times", (Islamic culture, Vol. 38), 1964.

"Indo-Arab Relations", New Delhi, 1978.
* **Margoliouth, D.S.** : "The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam", London, 1924.
* **Moreland, W.** : "The ships of the Arabian Sea about A.D. 1500", (The Journal of Royal Asiatic Society), London, 1939.

* **Musil, A.** : "Northern Nejd", New York, 1928.

* **Nicholson, R.A.** : "A Literary History of the Arabs", Cambridge, 1962.

* **O'Leary, De Lacy** : "Arabia Before Muhammad", London, 1927.

* **Olinder, G.** : "The Kings of Kindah of the Family of Akil Al-Mirar", London, 1927.

* **Perron** : "Femmes Arabes avant et depuis l'Islamisme", Paris, 1868.

* **Philby, J.B.** : "The Background of Islam", Alexandria, 1949.

* **Philips, W.** : "Qataban and Sheba", London, 1945.

* **Rabin, Chaim** : "Ancient West-Arabian", (A study of the dialects of the Western Highlands of Arabia in the sixth and seventh centureis A.D.), London, 1951.

* **Rivers, W.H.R.** : "Social Organization", (Edited by W.J. Perry), London 1926.

* **Watt, W.M.** : "Muhammed at Mecca", Oxford, 1953.

* **Westermark, E.** : "The History of Human Marriage", London, 1925.

الفهرس

الفصل الثامن : الحالة الاقتصادية

الفصل التاسع : الحياة الاجتماعية

المصــادروالمراجــع :

رقم الإيداع ٩٥/٧٨٥٤
الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5487 - 33 - 1
طبع بمطابع دار روتابرينت



العرب قبل الإسلام

أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم





للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES